إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

أعلام التصوف في الجنوب الجزائري
ودورهم في ترسيخ القيم العقدية والتربوية
- منطقة وادي سوف أنموذجا -

* تأليف جماعي *

تحرير وتقديم
أ.د. إبراهيم رحماني
د. جمال الأشراف
د. زهير بن كتفي

Publications of Laboratory of Algerian scientists contributions to enrich the Islamic studies
Faculty of Islamic Sciences - University of El Oued - Algeria

Famous Sufis in southern Algeria
And their role in consolidating doctrinal and educational values
The Wadi Souf region is a model

Aelam altasawuf fi aljanub aljazayirii
wadawruhum fi tarsikh alqiam aleaqadiat waltarbawia
mintaqat wadi souf 'unmudhajan

Collective writing

Edit and submit
Pr. brahim Rahmani
Dr. Djamel Lachraf
Dr. Zoheir BenKetfi

ISBN: 978-9969-517-68-2
9 789969 517682
سامي للطباعة والنشر والتوزيع

إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة الشهيد حمه لخضر ـ الوادي ـ الجزائر

أعلام التصوف في الجنوب الجزائري ودورهم في ترسيخ القيم العقدية والتربوية ـ منطقة وادي سوف أنموذجا ـ

تأليف جماعي – يوم دراسي

الاثنين 27 شعبان 1444هـ الموافق لـ 20 مارس 2023م

تحرير وتقديم
أ.د/ إبراهيم رحماني
د/ جمال الأشراف
د/ زهير بن كتفي

سامي
للنشر والطباعة والتوزيع

مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
Laboratory of Algerian scientists contributions to enrich the Islamic studies
كلية العلوم الإسلامية – جامعة الوادي
Faculty of Islamic Sciences - University of El Oued - Algeria
مخبر بحث معتمد من قبل وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
تحت رقم (70). بتاريخ: 2015/02/21. الرمز: E0780400
الموقع الإلكتروني: https://www.univ-eloued.dz/index.php/8-univ/1818-lasceis

▫ الطبعة الأولى: 1445هـ / 2024م
▫ رقم الإيداع القانوني: ماي 2024م
▫ ردمك: 978-9969-517-68-2
▫ عدد الصفحات: 208
▫ المقاس: 16.5 × 24 سم

▫ التنفيذ الطباعي:

ولاية الوادي . الجزائر
032 14 93 39
0557 97 44 43
imp.alwady@gmail.com

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبيّنا ومولانا محمد وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

ففي هذا الراهن العولمي الشمولي، والتدفق الهائل والواسع جداً للمعلومات من كل حدب وصوب، وضبابية هذه المعلومات وانعدام التبيّن فيها، مع ما يشهده حاضر الأمة الإسلامية من هجوم غاية في الإمعان الشرس المبيّت أو غير المبيّت على حضارتها وأجلّ مقدساتها وأعظم رموزها؛ في راهن الخوف من الإسلام، وفي راهن الضعف والتشتت والانقسام والتشرذم الذي تعيشه الأمة الإسلامية، والمؤامرات التي تحاك وتنسج ضد الإسلام والمسلمين والتي يساهم في إشعالها وإذكائها حتى بعض المسلمين ممن يعتقدون امتلاك ناصية الحقيقة؛ يبدو أن الحاجة أصبحت جدّ ملحة إلى إعادة قراءة وإنتاج التراث الإسلامي من جديد في جانبه الروحي. ولعلّ التصوف يقدم علاجات تزيح ذلك الانقسام والاختلاف النكد الذي يعيشه العالم الإسلامي، ويضاهي الفراغ الروحي الذي يمر فيه الغرب ويجر إليه العالم بما فيه العالم الإسلامي جرا. إنه ضمن هذا الإطار المعرفي والواقعي الكلي يأتي هذا اليوم الدراسي الموسوم بـ: "أعلام التصوف في الجنوب الجزائري ودورهم في ترسيخ القيم العقدية والتربوية – منطقة وادي سوف أنموذجا".

والذي نسعى من خلاله إلى تقديم ولو جزءٍ من تلك القراءة الباحثة وذلك الإنتاج المنشود لجملة من أعلام هذا التراث.

وإنه مما يلاحظ في هذا المجال البحثي أن موضوع أعلام التصوف في الجزائر قد أخذ نصيبا مقبولا من الاهتمام، ولكن يظهر أن الكتابات في عمومها - مع استثناء بعضها - قد أخذت منحى تاريخيا أو سوسيولوجيا؛ مما يعني غياب الرؤية العقدية الروحية، والسلوكية والتربوية، والتعليمية والحضارية في التناول والقراءة لجملة هؤلاء الأعلام. كما يلاحظ أيضا على عموم الكتابات المشار إليها أنها أهملت إلى حد ما فيما أهملت أعلام الجنوب الجزائري الكبير.

وإن هذا اليوم الدراسي- فضلا عن محاولته التعريف بجملة من أعلام التصوف بمنطقة وادي سوف وتراثهم - سيحاول أيضا التركيز على إبراز جانب التعليم والتربية الذي حرص عليه هؤلاء الأعلام، وجسدوه واقعيا في حياتهم، فهو ميدان ضروري وحتمي لتطوير الحركة الفكرية والعلمية والنهوض بالأمة. وهو أحد الميادين التي تجلت فيها الزوايا والطرق

الصوفية بأعلامها كمدارس ومعاهد لتخريج التلاميذ والطلبة المتخصصين في شتى أنواع العلوم الإسلامية، فضلا عن امتداداته في الأوساط الشعبية العميقة.

ومن هنا فإن الإشكالية المركزية التي يحاول أن يجيب عنها هذا اليوم الدراسي هي: ما دور التصوف في إعادة طرح قضايا العقيدة والسلوك والتربية والتعليم والمفاهيم الحضارية في الإسلام؟ وما هي أهم ملامحها وسماتها من خلال التطرق إلى جملة من أعلام التصوف بمنطقة وادي سوف والتعريف بهم وبدورهم في هذه المنطقة؟ وما هي إسهاماتهم العلمية والتربوية فيها وامتدادات إشعاعهم العلمي والمعرفي خارجها إلى المغرب الإسلامي الكبير وربوع إفريقيا؟

وبناء على ذلك فإن هذا النشاط العلمي يسعى إلى التعريف بأعلام التصوف بمنطقة وادي سوف وبتراثهم، والوقوف على المنتج المعرفي لهم، والاطلاع على الدور العقدي والروحي والتعليمي والاجتماعي والحضاري الذي اضطلع به أعلام التصوف في المنطقة، وكذا إبراز وتحديد الدرس التربوي والسلوكي المستفاد من سير أعلام التصوف بالمنطقة.

من جهة أخرى نسعى إلى توجيه أنظار الباحثين وطلبة الجامعات إلى ضرورة النهوض بالتراث الصوفي المخطوط للمنطقة وأعلامه، وإخراجه إلى دائرة النور، وبعث روح الحياة فيه عن طريق درسه وإعداد المذكرات والأطاريح العلمية حوله، والعمل على تحقيقه ونشره إن تيسر الأمر.

هذا، وتتمحور الأعمال العلمية ضمن مجموعات بحثية تنطلق من عرض مدخل عام حول التصوف بالجزائر وزمن دخوله وانتشاره وأبرز من أسهم في ذلك من الأعلام، يليه مدخل عام إلى منطقة وادي سوف والتعريف بها وبأهمية موقعها الاستراتيجي في المغرب الإسلامي وفي إفريقيا عموما ودورها في احتضان عقيدة التوحيد ونشرها.

ثم يتم عرض نماذج لأعلام التصوف في الطريقة القادرية، الشاذلية، الرحمانية، والتجانية بوادي سوف من خلال بيان نبذ عن السير الذاتية لأولئك الأعلام، وشيء حول مؤلفاتهم وأدوارهم الفكرية والثقافية والتربوية.

نسأل الله تعالى التوفيق في القول والعمل،
وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الهيئة المشرفة

- **الرئيس الشرفي لليوم الدراسي**: أ.د. عمر فرحاتي - مدير الجامعة.
- **رئيس اليوم الدراسي**: أ.د. ابراهيم رحماني - عميد الكلية.
- **مدير اليوم الدراسي**: د. جمال الأشراف.
- **رئيس اللجنة العلمية**: د. زهير بن كتفي.
- **أعضاء اللجنة العلمية**:
  - أ.د. عبد الرحمن تركي؛
  - أ.د. علي خضرة؛
  - أ.د. معمر قول؛
  - د. أحمد عامر باي؛
  - د. بشير بوساحة؛
  - د. جمال الأشراف؛
  - د. عمارة نصيرة.
  - د. محمد عمارة؛
- **رئيس اللجنة التنظيمية**: أ.د. معمر قول.
- **أعضاء اللجنة التنظيمية**:
  - د. الصادق ذهب؛
  - د. زكريا قادي؛
  - د. محمد الصديق قادري؛
  - د. مختار قديري؛
  - ط د. السعيد مستور.
  - ط د. سمية بن بردي؛

كلية العلوم الإسلامية بجامعة الوادي

يوم دراسي حول أعلام التصوف

نظم أمس قسم أصول الدين بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الشهيد حمه لخضر بولاية الوادي، يوما دراسيا حول، أعلام التصوف في الجنوب الجزائري ودورهم في ترسيخ القيم العقدية والتربوية -منطقة وادي سوف أنموذجا-حسبما أوضحه عميد الكلية البروفيسور رحماني إبراهيم.

اليوم الدراسي الذي دارت أشغاله بذات الكلية، أنعقد بالتعاون مع مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية في إطار مشروع فرقة البحث (PRFU): أعلام التصوف في منطقة وادي سوف.

وأوضحت ديباجة اليوم الدراسي، أنه وانطلاقا مما يحاك بالإسلام والمسلمين من تحديات ومؤامرات ، في راهن الضعف والتشتت والانقسام والتشرذم الذي تعيشه الأمة الإسلامية، وعليه، فالحاجة أصبحت جدّ ملحة إلى إعادة قراءة وإنتاج التراث الإسلامي من جديد في جانبه الروحي.

وأضافت أنه لعلّ التصوف يقدم علاجات تزيح ذلك الانقسام والاختلاف النكد الذي يعيشه العالم الإسلامي، ويضاهي الفراغ الروحي الذي يمر فيه الغرب ويجر إليه العالم بما فيه العالم الإسلامي جرا، إنه ضمن هذا الإطار المعرفي والواقعي الكلي يأتي هذا اليوم الدراسي الموسوم بـ:أعلام التصوف في الجنوب الجزائري ودورهم في ترسيخ القيم العقدية والتربوية – منطقة وادي سوف أنموذجا، ليحاول أن يقدم ولو جزءا من هذه القراءة الباحثة وذلك الإنتاج المنشود لجملة من أعلام هذا التراث.

ومما يلاحظ في هذا المجال البحثي تقول ذات الورقة البحثية، أن موضوع أعلام التصوف في الجزائر قد أخذ نصيبا مقبولا من الاهتمام، ولكن يظهر أن هذه الكتابات في عمومها، مع استثناء بعضها، قد أخذت منحى تاريخيا أو سوسيولوجيا، مما يعني غياب الرؤية العقدية الروحية والسلوكية والتربوية والتعليمية والحضارية في التناول والقراءة لجملة هؤلاء الأعلام، كما يلاحظ أيضا على عموم هذه الكتابات أنها أهملت إلى حد ما فيما أهملت أعلام الجنوب الجزائري الكبير.

وإنطلاقا مما سبق فاليوم الدراسي، فضلا عن محاولته التعريف بجملة من أعلام التصوف بمنطقة وادي سوف وتراثهم، حاول أيضا التركيز على إبراز جانب التعليم والتربية الذي حرص عليه هؤلاء الأعلام وجسدوه واقعيا في حياتهم، فهو ميدان ضروري وحتمي لتطوير الحركة الفكرية والعلمية والنهوض بالأمة، وهو أحد الميادين التي تجلت فيها الزوايا والطرق الصوفية بأعلامها كمدارس ومعاهد لتخريج التلاميذ والطلبة المتخصصين في شتى أنواع العلوم الإسلامية، فضلا عن امتداداته في الأوساط الشعبية العميقة.

كما ضبطت الهيئة يومها الدراسي، في محاور عدة، محور يتضمن مدخل عام حول التصوف بالجزائر وزمن دخوله وانتشاره وأبرز من أسهم في ذلك من الأعلام، ومحور ثاني يدرس منطقة وادي سوف والتعريف بها وبأهمية موقعها الاستراتيجي في المغرب الإسلامي وفي إفريقيا عموما ودورها في احتضان عقيدة التوحيد ونشرها، ومحاور تدرس السيرة والمؤلفات والأدوار، حول أعلام التصوف في الطريقة القادرية ، والطريقة الشاذلية ، والطريقة الرحمانية، والطريقة التجانية، بمنطقة وادي سوف .

مجموع البحوث

نبذة عن تاريخ منطقة وادي سوف وبعض علمائها

أ.د/ عبد الرحمان تركي
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي
tourki-a.rahman@univ-eloued.dz

المقدمة

منطقة وادي سوف منطقة محافظة متدينة، تقع في الجنوب الشرقي الجزائري، تحدها الحدود التونسية، كما تجاورها ولايات تبسة وخنشلة وبسكرة والمغير وتقرت وورقلة، احتضنت هذه المنطقة الدين الإسلامي منذ عهد الفتوحات الإسلامية إبان خلافة عثمان رضي الله عنه.

اشتهرت هذه المنطقة بزراعة النخيل منذ فترة قديمة، وكان أهلها يعتمدون على هذه الزراعة في اقتصادهم وكسب قوتهم، واليوم اشتهرت بهذه المنطقة منتوجات زراعية متعددة أهمها منتوج البطاطا، بحيث صارت ولاية الوادي هي الأولى أو الثانية وطنيا في إنتاج هذه المادة.

أما من الناحية الدينية فقد اشتهرت هذه المنطقة بظهور العلماء والفقهاء والصالحين والدعاة والوعاظ والخطباء والمثقفين.

وقد تميز العلماء والفقهاء والخطباء بمنطقة وادي سوف بفهم الواقع الاجتماعي ومعالجة مشاكله المتعددة سواء ما تعلق منها بالمسائل العقائدية أو ما تعلق بالمسائل الأخلاقية والفقهية، بأسلوب يراعي مستويات المخاطبين واختيار الأوقات الملائمة مع الصدق والإخلاص وتقديم القدوة والمثال العملي.

كما اشتهرت هذه المنطقة بحفظة القرآن الكريم، حيث أن مساجدها كانت ولا زالت مدارس لتحفيظ القرآن الكريم للنشء، وهذا يعود للجهود الكبيرة التي بذلها أئمة المساجد، الذين عملوا على تعليم القرآن الكريم وتعليم القراءة والكتابة وتقديم دروس الوعظ والإرشاد، وتقديم الفتوى والإصلاح بين الناس.

في مداخلتي سأتطرق إلى التعريف بمنطقة وادي سوف والتعريف ببعض علمائها وفقهائها.

1 - التضاريس والمناخ والثروات:

تقع منطقة وادي سوف في الجنوب الشرقي الجزائري، يقطنها حوالي مليون نسمة تقريبا، ويحدها من الشرق دولة تونس، ومن الشمال ولاية تبسة وولاية خنشلة وولاية بسكرة، ومن الغرب ولاية المغير وولاية تقرت، ومن الغرب والجنوب ولاية ورقلة.

وتتميز هذه المنطقة بمناخها الصحراوي الذي يمتاز بالبرودة شتاء وبالحرارة الشديدة صيفا بسبب الجفاف، وهذا ما يدفع الحيوانات البرية إلى بناء جحورها تحت الأرض للحماية من انخفاض درجة الحرارة ومن ارتفاعها الكبير [1].

وتتميز كذلك بالعواصف الرملية والتي تكثر في فصل الربيع، وتشتهر بهبوب نوعين من الرياح خلال السنة، هما ريح السموم وتسمى الشهيلي وهي ريح محرقة في غاية الشدة، وتهب في الصيف، وريح البحري لأنها تأتي من جهة البحر، ويكون هبوب هذه الريح بالأسحار من الليل والغدوات من النهار [2].

وتتميز بندرة الأمطار، وهي التي تغذي الطبقة السطحية بالماء، وإذا ما هطلت الأمطار فإن الغلاف السطحي للأرض عبارة عن رمال تسمح بنفوذ المياه[3].

وتعرف هذه المنطقة بغابات النخيل التي تنتشر في أرجائها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، كما تعرف اليوم بعديد المزروعات مثل البطاطا والطماطم والفول السوداني.

وتوجد بها نباتات طبيعية متنوعة ذات جذور طويلة تنمو في الأودية وأطراف الكثبان الرملية، ويعتمد عليها البدو في رعي حيواناتهم، ومنها: الحلفاء وأشجار الحطب[4].

وتتميز كذلك بأرضها المبسوطة بالرمال، والتي تتخللها كثبان رملية تنتشر في كثير من أرجائها، وتتفاوت في ارتفاعها من مكان إلى آخر، وبها حجارة تعرف باللوس، وهي حجارة

---

[1] - لطيفة عريق: الطابع السكاني والتغير الاجتماعي في بلدية كوينين 842 – 1420 هـ / 1440 – 2000 م، دراسة تاريخية اثنوغرافية، مديرية الثقافة، ولاية الوادي، ط1، 2014، ص 19، والموقع الالكتروني: https://dcommerce-eloued.dz/?page_id=16، مديرية التجارة لولاية الوادي. تاريخ الزيارة 2023/2/1.

[2] - لطيفة عريق: المصدر السابق، ص 19، 20، والموقع الالكتروني:
https://dcommerce-eloued.dz/?page_id=16، مديرية التجارة لولاية الوادي. تاريخ الزيارة 2023/2/1.

[3] - لطيفة عريق: المصدر السابق، ص 21، والموقع الالكتروني:
https://dcommerce-eloued.dz/?page_id=16، مديرية التجارة لولاية الوادي. تاريخ الزيارة 2023/2/1.

[4] - الموقع الالكتروني: https://dcommerce-eloued.dz/?page_id=16، مديرية التجارة لولاية الوادي. تاريخ الزيارة 2023/2/1.

متشابكة ذات رؤوس متعددة لماعة وهي صلبة تستغل في البناء، كما تتميز بوفرة المياه الباطنية القريبة من سطح الأرض، والتي يستفاد منها في الري والفلاحة [1].

وهي بهذه الميزات والخيرات تساهم في الاقتصاد الوطني إسهاما كبيرا.

2 – دخول الإسلام و انتشاره وظهور المذاهب الإسلامية:

دخل الإسلام إلى الجزائر والمغرب الإسلامي بواسطة عقبة بن نافع الذي فتح إفريقية، وبذلك انتشر الإسلام إلى ربوع الجزائر ومنها منطقة وادي سوف والتي تتأثر بما جاورها من المدن والقرى من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وانتشر الإسلام بواسطة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وبواسطة القدوة الصالحة والكلمة الطيبة[2].

ووجد الناس في الدين الإسلامي الرحمة والتكافل والأخلاق العالية والقيم الراقية، وهو الدين الذي جنبهم العقائد الضالة من الوثنية والنصرانية واليهودية، وبسببه هاجر الناس إلى هذه المنطقة لما وجدوا فيها من بساطة العيش والحياة، ولسهولة الحصول على المياه الجوفية واستخراجها [3].

وتأثرت الجزائر بالمذهب الإباضي لما تكونت الدولة الرستمية على يد عبد الرحمان بن رستم سنة 160 هـ / 296 هـ، داعية إلى هذا المذهب، وعاصمتها تيهرت بغرب الجزائر، وبجانبها الدولة الأغلبية الموالية للخلافة العباسية والتي بسطت سيطرتها على الشمال الشرقي الجزائري إضافة إلى تونس، ووصل التأثر بهذا المذهب إلى منطقة وادي سوف كباقي مناطق الجنوب الشرقي الجزائري [4].

---

[1] - لطيفة عريق: المصدر السابق، ص 19، والموقع الالكتروني:
https://dcommerce-eloued.dz/?page_id=16، مديرية التجارة لولاية الوادي. تاريخ الزيارة 2023/2/1.

[2] - عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط7، 1994، ص 127، 128، وإبراهيم مياسي: أهمية مخطوط العدواني في كتابة تاريخ سوف، مجلة القباب، مجلة ثقافية تصدر عن دار الثقافة، الوادي، العدد الخامس، مارس 2007، ص 85، وعبد الحميد قادري: تقرت البهجة، قراءة تاريخية واجتماعية، مطبعة الاسكندر، قسنطينة، 2011، ص 11، 12.

[3] - عبد الحميد قادري: المصدر السابق، ص 12.

[4] - علي غنابزية: دور علماء وادي سوف في نشر المذهب المالكي بالجنوب الشرقي الجزائري، مجلة الدراسات الفقهية والقضائية، مخبر الدراسات الفقهية والقضائية، جامعة الوادي، مجلد 06، عدد 01، 2020، ص 48، وعلال بن عمر: حاضرة أسوف وأريغ ومكانتها في الفكر الإباضي من القرن2هـ_8م إلى القرن 6هـ_12م،= = مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي، العدد 17، جوان 2018، ص 358، 360، 361.

فوادي سوف من أولى المناطق التي احتضنت المذهب الإباضي وناصرته وانتصرت له منذ العهد الرستمي، وكان حملة العلم يزورون وادي سوف ونواحيها من أجل نشر المذهب الإباضي، كما كان طلبة العلم ينتقلون حيث أماكن العلماء فيأخذون عنهم وينهلون من علومهم وكانوا يقصدون الحواضر القريبة مثل منطقة ورقلة ومنطقة تقرت وبلاد الجريد، ومن علماء سوف في هذا المذهب أبو عمرو عثمان بن خليفة المارغني السوفي، ولد قبل سنة 471 هـ / 1078م، أخذ العلم عن أبي زكريا يحي بن أبي بكر الورجلاني، وتوفي قبيل سنة 530 هـ / 1135م، له كتاب السؤالات جمع فيه علم اللغة والأدب وابتدأه بشرح (بسم الله الرحمان الرحيم) وعرض فيه المسائل العقائدية، وله كتاب في الفرق والمذاهب رد فيه على آراء الفرق المخالفة للمذهب الإباضي وخاصة الفرق المنشقة عنه، ومن علماء سوف في هذا المذهب أبو عبد الله محمد بن علي السوفي، وكان عظيم القدر بين أتباع المذهب[1].

ورغم تجذر المذهب الإباضي في منطقة سوف والذي استقر بها قرابة أربعة قرون إلا أنها تحولت إلى المذهب المالكي الذي دخلها منذ القرن السابع الهجري، وقد أخذت المدرسة الفقهية المالكية تظهر بملامحها ولاسيما في القرن 11هـ/17م حينما تبلورت خصائص المذهب وفق مميزات المنطقة وبساطة حياتها الاجتماعية والاقتصادية، وتجلت في مظاهر الحياة الدينية والنشاطات العلمية في المدارس الحرة والمساجد والزوايا التي استمدت مرجعيتها العلمية من المذهب المالكي وعملت على نشره وتدريس أصوله ومنظوماته، وكان لعلماء سوف دورهم الكبير في حمل هذا المذهب أثناء ترحالهم في مختلف ربوع الصحراء وإلى شمال البلاد وإلى بلدان الجوار مثل ليبيا وتونس [2].

ومن أهم العوامل التي ساعدت على رسوخ المذهب المالكي بهذه المنطقة [3]:

1 - تطلع الجزائري دائما إلى مكة والمدينة، وهما المدينتان اللتان تزدهران بتعليم العلوم الإسلامية بمختلف تخصصاتها وفروعها، ولما لهما من مكانة في قلبه ونفسه، فإلى مكة قصده وتوجهه في الصلاة خمس مرات، وإليها يرتحل الناس لأداء فريضة الحج،

---

[1] - علال بن عمر: المصدر السابق، من ص 369 إلى ص 374..

[2] - علي غنابزية: المصدر السابق، ص 48.

[3] - يوسف بن أحمد حواله: الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري (90 – 450 هـ)، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط1، 1419 هـ، ج1، ص 118، 294، 295، 297، 298، وأبو القاسم سعد الله: على خطى المسلمين، حراك في التناقض، عالم المعرفة، الجزائر، ط2011، ص 12، وعلي غنابزية: المصدر السابق، ص 49، 50، وعلال بن عمر: المصدر السابق، من ص 377 إلى ص 381.

وتحتضن مكة والمدينة الحرمين الشريفين، وللمدينة مكانة بليغة في نفسه، ففيها قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وطائفة من التابعين وأتباعهم، ثم هي مستودع علم الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته وسنته [1].

2 – هجرة القبائل العربية من تونس إلى أطراف منطقة الوادي خلال القرن السابع الهجري بنزول قبيلة بني عدوان، ثم لحقت بها قبيلة طرود واستقرت بمدينة الوادي خلال القرن التاسع الهجري، وحينئذ صار المذهب مشهورا بهذه المنطقة.

3 – رحلات المغاربة لأداء فريضة الحج واحتكاكهم بسكان المنطقة.

4 – تنقل رجال العلم في محور يمتد من القيروان وبلاد الجريد نحو المغرب الأقصى ونواحيه، ومثلت منطقة سوف محطة للراحة والاستقرار بعد العودة بالزاد العلمي.

5 – الزيارات المتبادلة بين علماء وادي سوف وعلماء تونس، وكان لها الأثر في ترسيخ المذهب وتثبيته.

وكان أهل الوادي حريصين في أسفارهم وحجهم على الدراسة وطلب العلم، يتتلمذون على العلماء إلى أن ينالوا منهم سعة الاطلاع والتعمق في المعارف ويحصلون منهم على الإجازات في مختلف العلوم.

ومما تتميز به الجزائر عموما عن غيرها من أقطار المغرب العربي أنها لم تعرف دولة مركزية إلا في العهد العثماني (1518م - 1830م) بينما عرف المغرب الأقصى حاضرة مراكش وحاضرة فاس، وعرف المغرب الأدنى (إفريقية) حاضرة القيروان ثم حاضرة تونس، فكان علماء الجزائر ينتمون جغرافيا إلى هذه الحاضرة أو تلك، لأنه ليس لهم في بلادهم المغرب الأوسط حاضرة تجذبهم أو يجتذبون إليها عدا بعض المدن التي ازدهرت في وقت محدود مثل تيهرت الرستمية وبجاية الحمادية وتلمسان الزيانية [2].

وخلال العهد العثماني ينحصر إنتاج علماء الوادي وعلماء الجزائر عامة تقريبا في العلوم الشرعية مثل التفسير والقراءات ورواية الحديث ودرايته وفقه العبادات

---

[1] - مكة والمدينة مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ومهاجره، وبهما نهضة علمية إسلامية المنزع كالعناية بالفقه والحديث والتفسير والقراءات وكل العلوم النقلية، وقد أثمر هذا الجو العلمي الديني عن ظهور المذهب المالكي نسبة إلى الإمام مالك بن أنس الأصبحي المتوفى سنة 179 هـ، والذي يعتمد الأثر أساسا في بناء أحكامه، كما عرف بمذهب أهل المدينة لأن مالكا ولد وعاش وتوفي بها ويعرف كذلك بمذهب أهل الحجاز. (يوسف بن أحمد حواله: المصدر السابق، ج1، ص 118، 119).

[2] - أبو القاسم سعد الله: على خطى المسلمين، حراك في التناقض، ص 33.

والمعاملات والنوازل، وكذلك في مجالات الأدب والشعر، ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى أن القرآن الكريم والحديث النبوي هما المنبع الذي يستمد منه أهل منطقة الوادي والجزائر عامة كل علومهم الشرعية وأنماط حياتهم [1].

وشاع التدريس والخطابة والوعظ والإرشاد بين علماء الوادي، أما الكتابة في العلوم الإسلامية والتأليف فيها فكان أقل من ذلك لاسيما ما قبل القرن الرابع عشر الهجري [2].

وكانت منطقة الوادي حاضرة علمية قبل دخول الاستعمار إليها، فكل مساجدها كانت مدارس لتحفيظ القرآن الكريم ومبادئ الفقه واللغة، وبقيت على هذه الحال بعد احتلالها، ويعود ذلك إلى الجهود الكبيرة التي بذلها الشيوخ والأئمة بالمدارس القرآنية والأهلية، والذين تطوعوا لتحضير الطلبة في مختلف العلوم لإرسالهم في بعثات طلابية إلى مدارس ومعاهد في الجزائر أو في تونس مثل جامع الزيتونة [3].

ولم يقتصر دور هذه المدارس على التعليم القرآني بل تعداه إلى تعليم القراءة والكتابة ومحو الأمية وتعليم كبار السن وتقديم دروس الوعظ والإرشاد وتقويم الأخلاق وبث الوعي ومناهضة الاستعمار، ثم أصبحت عند انطلاق الثورة التحريرية مراكز للتعبئة والتجنيد، أما المشرفون عليها فقد تعددت وظائفهم فهم معلمون وأئمة مساجد وأئمة في الفتوى والإصلاح وقضاة ومصلحون [4].

وفي العهد الاستعماري هاجر آلاف الجزائريين ومنهم أهالي الوادي في بدايات القرن 20م لأسباب دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية نحو تونس والمغرب الأقصى والشرق الأدنى وفرنسا، لقد كانوا يطلبون الحرية والاحترام وفرص العلم والعمل التي لم يجدوها في وطنهم، ونظرا لاتصالات هؤلاء المهاجرين المتواصلة مع عائلاتهم وأقاربهم وللفوائد العلمية والمعنوية والمادية التي جنوها في الخارج فقد ساهموا مساهمة فعالة في تدعيم القضية الوطنية ومهاجتهم للاستعمار الفرنسي وتنوير مواطنيهم والتعريف بالقضية

---

[1] - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (16 – 20 م)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ج2، ص 9.

[2] - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (16 – 20 م)، ج2، ص 12، 16، 21.

[3] - بن علي محمد الصالح: الشيخ الحسين حمادي، حياة علم وكفاح، دار الثقافة، الوادي، ط1، 2012، ص 32.

[4] - بن علي محمد الصالح: المصدر السابق، ص 32.

الجزائرية [1].

3 – بعض العلماء والأئمة:

ومن العلماء والفقهاء والوعاظ والأئمة بمنطقة وادي سوف، سكنوها أو وفدوا إليها أو زاروها وهم كثيرون، أذكر [2]:

1 - طاهر المزوغي (ت 646 هـ/1248م)، استقر بواحة سوف وعمل على نشر المذهب المالكي بالمنطقة، وقد كللت جهوده وجهود من أتى بعده بالنجاح حتى لم يبق بسوف أي أثر مادي أو معنوي يدل على الوجود الإباضي بها.

2 - المسعود بن محمد الشابي الذي جاء في أواخر القرن 16 ليعلم الناس دين الله وشريعته من القرآن والسنة، ومكث مدة يعلم الناس ثم دعاهم إلى بناء مسجد فبنوا المسجد بوسط سوق الوادي.

3 - محمد بن عمر العدواني السوفي الليبي، رحالة ومؤرخ كثير الأسفار ومولعا بالبحث، عاش في القرن 17، واستقر ببلدة الزقم بالوادي، وكتابه الموسوم بتاريخ العدواني يعد أحد مراجع تاريخ المنطقة رغم ما يشوبه من خرافات وأساطير.

4 - خليفة بن حسن القماري (1711م – 1796م)، نشر العلم ورحل إلى بسكرة وسيدي عقبة وخنقة سيدي ناجي التي كانت مقصد الطلاب من كل النواحي الصحراوية، كما كانت محطة رجال العلم من الحجاج الوافدين من المغرب باتجاه الحجاز لأداء مناسك الحج، وكان له أثر كبير في الفقه المالكي واللغة العربية، سواء في سوف أو في الجزائر عامة، واشتهر بكتابه: جواهر الإكليل نظم مختصر الشيخ خليل.

5 - سالم العايب، وهو من الشيوخ الذين أوقفوا أنفسهم على التعبد والتعليم، والذي شيد زاوية بسوق الوادي سنة 1820، وشرع يعلم القرآن لجميع الناس بمن فيهم

---

[1] - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط4، 1992، ج2، ص 129.

[2] - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (16 – 20 م)، ج2، ص 82، 83، 84، وإبراهيم مياسي: المصدر السابق، من ص 81 إلى ص 92، والجباري عثماني: المصلح الشيخ عمار بن الأزعر وجهوده في التحرير والتنوير بالديار السوفية، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، العدد 13، جوان 2017، من ص 100 إلى ص 109، وعلي غنابزية: المصدر السابق، ص 52، 53، 61، 62، 63، وعلال بن عمر: المصدر السابق، ص 377، وبن علي محمد الصالح: المصدر السابق، ص 32، وإبراهيم رحماني: أضواء من سيرة العلامة الدكتور محمد محده السوفي الجزائري، مطبعة سامي، الوادي، ط1، 2018، غلاف الكتاب، ولطيفة عريق: المصدر السابق، ص 54، 55.

طلبة من بئر العاتر والشريعة وتبسة وخنشلة، جاء هؤلاء ليحفظوا القرآن وليتعلموا العلوم من توحيد وفقه وتفسير وحديث ولغة.

6 - الحسين بن علي بن عمر شيخ الطريقة الرحمانية بنفطة ووالد شيخ الأزهر الأسبق الخضر بن حسين، الذي جاء إلى الوادي عام 1870 وأسس مسجدا.

7- عمار بن عبد الله الأزعر القماري (1898 - 1969) الذي اشتغل بالتدريس والوعظ والإرشاد.

8 - محمد العيد آل خليفة من بلدة كوينين، ولد في عين البيضاء سنة 1904، نشأ بها وتلقى القرآن الكريم والدروس الابتدائية، ثم انتقل مع أسرته إلى بسكرة سنة 1918، وواصل دراسته بها، وفي سنة 1921 اتجه إلى جامع الزيتونة وتتلمذ به لمدة سنتين، وفي سنة 1927 دُعي إلى إدارة مدرسة الشبيبة الإسلامية، وفي هذه الفترة أسهم في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ونشر الكثير من قصائده في صحف الجمعية، وفي سنة 1940 بعد نشوب الحرب العالمية الثانية غادر العاصمة إلى بسكرة ومنها إلى باتنة للإشراف على مدرسة التربية والتعليم إلى سنة 1947، ثم إدارة مدرسة العرفان بعين مليلة إلى سنة 1954، وبعد اندلاع الثورة التحريرية أغلقت المدرسة وقبض عليه وسجن ثم فرضت عليه الإقامة الجبرية ببسكرة، توفي سنة 1979، وجمع شعره وآثاره في ديوان باسمه.

9 - ومن شخصيات وادي سوف: إبراهيم بن محمد الساسي الملقب بالعوامر 1881 - 1932م، صاحب كتاب الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، والذي اشتغل بالقضاء والتدريس والفتوى، ومحمد العربي بن موسى موساوي الذي أرسى نهضة علمية في مدينة تقرت، وخلفه في الإمامة تلميذه الطاهر العبيدي، وتلميذه وابن شيخه الميداني موساوي الذي أرسله إلى بلدة نقر بنواحي تقرت، وخلال الستينات قام مبروك الشامسي بدور هام في تقرت بتعليم فروع المذهب المالكي، وكذلك الحسين حمادي 1902-1982، والصادق زبيدي 1900-1963، والأمين العمودي الذي ناضل من أجل وطنه في صفوف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعبد القادر الياجوري القماري 1912- 1991 وهو من رجالات العلم والتعليم في الجزائر، وعبد العزيز الشريف 1898-1965 الذي انضم لجمعية العلماء وكان في استقبال الشيخ عبد الحميد بن باديس ووفد جمعية العلماء في ديسمبر 1937، وأبو القاسم سعد الله (1930-2013)، والذي لقب بشيخ المؤرخين الجزائريين، ومحمد محده (1955-2006) العالم القانوني الذي تبوأ المراتب العليا في

التدريس والإشراف الجامعي وفي مجالس القضاء والفتوى وفي مجالات خدمة المجتمع.

خاتمة

في ختام هذه المداخلة نخلص إلى أن منطقة الوادي شهدت نهضة علمية تعددت اتجاهاتها ومناحيها منذ الفتح الإسلامي إلى العهد العثماني، وغلب على المنطقة المذهب المالكي السني أو مذهب أهل المدينة لما للمدينة المنورة من مكانة عظيمة في قلوب أهل الوادي والجزائريين عامة.

وابتليت هذه المنطقة كغيرها من مناطق الجزائر بالاستعمار الفرنسي الذي أراد محو أسس الهوية الإسلامية العربية، إلا أنه فشل في ذلك نظرا لجهود العلماء والمصلحين والأئمة الذين وجهوا جهودهم وأعمالهم إلى التعليم وتربية النشء وإصلاح المجتمع ومحاربة الآفات والمفاسد الاجتماعية وبث الروح الوطنية.

مصادر البحث

- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (16 – 20 م)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ج2.
- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ط1، 1992 ج1)، (ط4، 1992، ج2، ج3).
- أبو القاسم سعد الله: على خطى المسلمين، حراك في التناقض، عالم المعرفة، الجزائر، ط2011.
- عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط7، 1994.
- يوسف بن أحمد حواله: الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري (90 – 450 هـ)، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط1، 1419 هـ.
- تاديوس ليفيتسكي (مستشرق بولوني): المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة ماهر جرار وريما جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2000.
- عاشوري قمعون: التعليم في منطقة سوف خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين (خليفة بن حسن القماري أنموذجا)، أعمال الملتقى الوطني الثاني حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين 12 – 13 هـ / 18 – 19 م من خلال المصادر المحلية، معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية، المركز الجامعي بالوادي، 24 – 25 جانفي 2012.
- علي غنابزية: الخدمات والأعراف الاجتماعية لرعاية غيطان النخيل بوادي سوف خلال القرن التاسع عشر، أعمال الملتقى الوطني الثاني حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين 12 – 13 هـ / 18 – 19 م من خلال المصادر المحلية، معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية، المركز الجامعي بالوادي، 24 – 25 جانفي 2012.

- علي غنابزية: دور علماء وادي سوف في نشر المذهب المالكي بالجنوب الشرقي الجزائري، مجلة الدراسات الفقهية والقضائية، مخبر الدراسات الفقهية والقضائية، جامعة الوادي، مجلد 06، عدد 01، 2020.
- إبراهيم مياسي: أهمية مخطوط العدواني في كتابة تاريخ سوف، مجلة القباب، مجلة ثقافية تصدر عن دار الثقافة، الوادي، العدد الخامس، مارس 2007.
- إبراهيم رحماني: أضواء من سيرة العلامة الدكتور محمد محده السوفي الجزائري، مطبعة سامي، الوادي، ط1، 2018.
- رضوان شافو: المقاومة الشعبية بصحراء قسنطينة، تقرت وضواحيها أنموذجا، 1844 – 1875، دار الشروق، الجزائر، 2016.
- الجباري عثماني: المصلح الشيخ عمار بن الأزعر وجهوده في التحرير والتنوير بالديار السوفية، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة الوادي، العدد 13، جوان 2017.
- علال بن عمر: حاضرة أسوف وأريغ ومكانتها في الفكر الإباضي من القرن2هـ_8م إلى القرن 6هـ_12م، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي، العدد 17، جوان 2018.
- بلال بوترعة: أثر الظروف البيئية على الأنشطة الاقتصادية لسكان وادي سوف خلال القرن 19 م، أعمال الملتقى الوطني الثاني حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين 12 – 13 هـ/ 18 – 19 م من خلال المصادر المحلية، معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية، المركز الجامعي بالوادي، 24 – 25 جانفي 2012.
- لطيفة عريق: الطابع السكاني والتغير الاجتماعي في بلدية كوينين 842 – 1420 هـ/ 1440 – 2000 م، دراسة تاريخية اثنوغرافية ، مديرية الثقافة، ولاية الوادي، ط1، 2014.
- بلقاسم بن خليفة: واقع النشاط الاقتصادي لمجتمع وادي سوف خلال القرن 19 م، أعمال الملتقى الوطني الثاني حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين 12 – 13 هـ/ 18 – 19 م من خلال المصادر المحلية، معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية، المركز الجامعي بالوادي، 24 – 25 جانفي 2012.
- بن علي محمد الصالح: الشيخ الحسين حمادي، حياة علم وكفاح، دار الثقافة، الوادي، ط1، 2012.
- سعد العمامرة: الإنتاج الفكري الثقافي السوفي، 1886– 2008، دار الثقافة، الوادي، ط1، 2010.
- عبد الحميد قادري: تقرت البهجة، قراءة تاريخية واجتماعية، مطبعة الاسكندر، قسنطينة، 2011.
- آمال علالي: الموروث الثقافي المادي واللامادي للمرأة السوفية، مطبعة سامي، الوادي، ط2، 2022.
- الموقع الالكتروني: https://dcommerce-eloued.dz/?page_id=16، مديرية التجارة لولاية الوادي. تاريخ الزيارة 2023/2/1.

إسهامات علماء الجزائر في نشر التصوّف
من خلال كتاب التشوّف لابن الزيات التادلي ـ نماذج مختارة ـ

ط.د/ حمزة سليمان، إشراف: **د/ أحمد عامر باي**
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي
Hamza-slimane@univ-eloued.dz

مقدمة

يعتبر كثير من الباحثين أنّه لا يمكننا معرفة البداية الحقيقية للتّصوّف بالمغرب الإسلامي؛ وذلك بسبب نقص الأدلة والبراهين الدّالة على ذلك، كما أنّنا إذا نظرنا إلى التّصوّف في صورته الزّهدية فإن ظهوره مرتبط بظهور الإسلام، كما كان للرّحلات التّجارية وبعض المؤلّفات المعروفة في التصوف كإحياء علوم الدين للغزالي ورسالة القشيري دور في انتشار التّصوّف في المغرب الأوسط (الجزائر)، وقد كانت لكثير من العلماء أيضا مساهمات وآثار وجهود مثمرة من خلال مؤلفاتهم ودروسهم لمختلف العلوم بصفة عامة وللتصوّف في صورته السّنية النّقية بصفة خاصة[1].

وقد تناولت كتب التّراجم سير هؤلاء الأعلام وخلّدت لنا ذكرهم، ومن بين هذه الكتب: "كتاب التشوف إلى أعلام التصوّف" لابن الزّيّات التّادلي، فمن هم أبرز أعلام التصوّف الّذين أسهموا في نشر التصوّف من خلال كتاب التّادلي؟

ومن هو ابن الزيات التادلي؟ وما مضمون كتابه؟ وما قيمته المعرفية في التأريخ للحياة الرّوحية بالمغرب الإسلامي عموما والجزائر خُصوصا؟

وفي سعينا للإجابة عن الإشكالية المطروحة نقسّم البحث إلى الخطة التالية:

المطلب الأول: ابن زيات التادلي وكتابه التشوف إلى أعلام التصوف
1- لمحة عن حياة ابن زيات التادلي.
2- كتاب التشوف إلى أعلام التصوف دواعي التأليف والمضمون.
3- القيمة المعرفية لكتاب التشوف إلى أعلام التصوف.

---

[1] انظر: عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، دار الخليل القاسمي، مسيلة، ط1، 1427هـ، ص24.

المطلب الثاني: بعض أعلام التصوف الذين ساهموا في نشر التصوف في الجزائر

1- أبو مدين الغوث.

2- أبو الفضل ابن النحوي.

3- أبو زكرياء الزواوي.

منهج البحث:

لكل بحث منهج يتبعه الباحث في دراسته، وفي هذا البحث اعتمدنا على المنهج الاستقرائي التحليلي.

أهداف البحث:

1. يهدف البحث إلى التّعرف على أحد أهم المصادر لدراسة التصوّف بالمغرب، والتعريف بمؤلفه ابن الزيات.

2. بيان المضمون والمحتوى المعرفي والرّوحي لكتاب التشوف إلى أعلام التصوف.

3. إبراز القيمة المعرفية لكتاب التّشوف إلى أعلام التصوف، ودوره في التعريف بعلماء المغرب.

4. التعريف ببعض الشخصيات التي كان لها دور كبير في نشر التصوف في الجزائر، والإشارة إلى إسهاماتهم وآثارهم.

المطلب الأول: ابن زيات التّادلي وكتابه التّشوّف

1-ابن الزّيّات التّادلي لمحة عن حياته:

لم نجد في حدود بحثنا معلومات كثيرة حول حياة الرّجل وسيرته. والمادة العلمية حول شخصيته نادرة.

هو أبو يعقوب يوسف بن يحي بن عيسى بن عبد الرّحمن التّادلي: عرف بابن الزيات، العلاَّمة المؤرخ، الأريب، الفقيه الأديب صحب أبا العباس السبتي ولقي ابن حوط الله، وحدث بكتابه التّشوّف: الأستاذان الفاضلان أبو القاسم بن الشاط، وابن رشيد عن قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن علي الشريف عنه إذنا، ألف التشوف إلى رجال التصوف، وله تأليف في صلحاء المغرب، وشرح مقامات الحريري شرحا نبيلا.

وهو لغوي، من قضاة المالكية. من أهل تادلة[1] بالمغرب، بين تلمسان وفاس[2].

---

[1] تادلة، مدينة بالمغرب مهمة ترتفع عن سطح الأرض بنحوس 500م على الضفة اليمنى لوادي نهر أم الربيع.

[2] الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م، ج8، ص257.

بعد أن تضلع ابن الزيات في العلوم الشرعية انغمر في الحياة الصوفية، كغيره من صوفية المغرب، وقد أسس زاوية في الصومعة[1]، ومن تلاميذه الذين أخذوا عنه التصوف: محمد الحفناوي الإشبيلي[2].

توفيَ التادلي برقراقة سنة 627هـ أو سنة 628هـ حسبما نقل عن الحضرمي. وليس هناك ما يؤكد ظن أودلف فور الذي كتب في دائرة المعارف الإسلامية أن جثمان التادلي نقل إلى مراكش وأن التادلي الذي تنسب إليه القبة القائمة خارج الخميس بمراكش[3]، ويؤكد ابن الموقت هذا الرأي حيث يقول عن التادلي: "ارتحل من مراكش إلى بلد رقراقة، وكان بها قاضيا، وتوفي بها سنة سبع أو ثمان وعشرون وستمائة"[4].

2-كتاب التشوف، دواعي التأليف والمضمون:

كتاب التشوف للتادلي هو ترجمة لجمع من الصالحين ممن كان بحضرة مراكش ومن قدمها من أكابر الفضلاء، جمع فيه طائفة من أخبارهم وأعمالهم، وتحرى في نقله عنهم أهل الثقة والأمانة والخير والصلاح، وذكر بإسناده ما نقله عن ذلك كما يقول في مقدمة الكتاب[5]، وعن تسمية الكتاب يقول: "سميت هذا الكتاب بالتشوف إلى رجال التصوف وإن كان مشتملا على أضراب من أفاضل العلماء والفقهاء والعبّاد والزّهاد والورعين وغير ذلك من ضروب أهل الفضل، فإن الصوفي يصدق على جميعهم بوضع هذا الاسم عند المحققين"[6]، والصّوفي عنده هو: "المنقطع بهمته إلى الله تعالى، المنصرف في طاعته"[7].

وتضمن الكتاب ترجمة لمجهولين، وهذا يدّل على أنَّ غرض التّادلي من تأليف الكتاب هو الانتفاع بآثار وأخبار هؤلاء الصّالحين بالدرجة الأولى وليس تخليدا لأسمائهم.

وقد اختصر الكتاب أبو العباس أحمد بن عبد الله بن يعقوب السملالي ت1093هـ، وكذلك اختصره الشهاب أبو العباس أحمد بن محمد بن علون المصري المالكي المتوفى

---

[1] انظر: عبد العزيز بنعبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، دار نشر المعرفة، ط1، 2001م، ج1، ص59.

[2] المرجع نفسه، ص60.

[3] انظر: الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ص24.

[4] ابن الموقت، السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1341هـ، ص105.

[5] انظر: ابن زيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تح: أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط2، 1997م، ص33.

[6] التادلي، التشوف، مرجع سابق، ص34.

[7] المرجع نفسه.

سنة 787هـ موافق 1384م[1].

وصدّر التادلي هذا المجموع بسبعة أبواب هي كالمدخل إليه.

الباب الأول: في صفة الأولياء.

الباب الثاني: في حفظ قلوبهم وترك النكير عليهم.

الباب الثالث: في محبتهم.

الباب الرابع: في زيارتهم ومجالستهم.

الباب الخامس: في حسن الثناء عليهم ووضع القبول لهم في الأرض.

الباب السادس: في إثبات أحوالهم.

الباب السابع: في إثبات كراماتهم ويشتمل على جملة فصول[2].

3-القيمة المعرفية لكتاب التّشوّف إلى أعلام التّصوّف:

اكتسب كتاب التشوف قيمة كبيرة في الأوساط العلمية، فكثرت الدّراسات التي تناولت الكتاب من مختلف الجوانب الفلسفية، الروحية، الاجتماعية، الأخلاقية وكذلك التّاريخية، فهو إذن عبارة عن ثروة معرفية تناول فيه التادلي سيرة وأخبار جمع من الصّالحين وكراماتهم، وقد لقي الكتاب عناية في حياة المؤلف، وبعد مماته، تجلّت هذه العناية في عدة أوجه منها:

1- روايته بالسند في فهارس كبار الأعلام.

2- اختصاره كما فعل أحمد ابن علوان المصري وغيره.

3- كثرة النقل عنه من طرف الذين كتبوا في التراجم والمناقب.

4- التأليف على غراره في أخبار الصلحاء أفرادا وجماعات.

5- التأثير الكبير للكتاب في نفوس قرائه[3].

وقد عدَّ عبد العزيز بن عبد الله كتاب التشوف إلى أعلام التصوف: المصدر الثاني في باب الحديث عن متصوفة المغرب بعد كتاب المدارك للقاضي عياض، والكتاب ترجم لعدد من الصّالحين والفضلاء ممن كان بخضرة مراكش، واعتبر التّادلي الكل من رجال التصوف، فالكتاب وإن كان مشتملا على أصناف من العلماء والفقهاء، فاسم التصوف -

---

[1] انظر: عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، المطبعة الحسنية: تطوان، ط1، 1369هـ-1950م، ص297.

[2] انظر: التادلي، التشوف، مرجع سابق، ص43.

[3] التادلي، التشوف إلى أعلام التصوف، مرجع سابق، ص24-25.

كما يقول في المقدمة- يصدق على جميعهم عند المحققين[1]، والكتاب أرّخ للحياة الرّوحية في بلاد المغرب، وضمّ أخبار الصالحين وآثارهم ورحلاتهم، ومن يقرأ الكتاب يلمس كثيرًا من الجوانب الإنسانية والروحية في سيرهم.

ويُستخلص من قراءة الكتاب المكانة الرفيعة التي كان يحتلها المتصوفة بين النّاس، وكثرة أعلام التصوف في المغرب وتأثيرهم الملحوظ في الحياة الرّوحية والأخلاقية لأهله، ولا تكاد تجد دراسة أكاديمية تناولت أعلام المغرب إلا وكان كتاب التّشوّف من أهم مصادرها.

المطلب الثاني: أعلام التصوف الذين أسهموا في دخول التصوف إلى الجزائر

لا شك أن انتشار التصوف في الجزائر كان بفضل جهود عدد كبير من العلماء وطلبة العلم، وقد احتوى كتاب التشوف على تراجم وسير كثير منهم، وفي هذه الدّراسة اقتصرنا على ذكر ثلاثة احتفى بهم المؤلف وتوسع في ترجمتهم.

1-أبو مدين شعيب الغوث:

يعدّ الشّيخ أبو مدين من رواد التّصوّف السّني السّلوكي في المغرب الإسلامي، ومثالا للتصوف الزّهدي الخالص الذي منبعه القرآن والسّنة، ومن أهمّ رموز وعلماء الإسلام الذين خلفوا إرثا علميا وأثرًا حسنا في المسلمين عامة وفي مسلمي المغرب خاصة، عرف باسم سيدي بومدين وأبو مدين التّلمساني ويلقب بشيخ الشّيوخ له ديوان شعري ضم أهم قصائده في التصوف.

1-1- مولد الشيخ أبي مدين ونشأته:

هو أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي الأنصاري، في "عنوان الدراية" وصفه الغبريني بأنه: "الشيخ الفقيه، المحقق، الواصل القطب، شيخ مشايخ الإسلام في عصره، إمام العباد والزهاد وخاصة الخلصاء من فضلاء العباد، من ناحية إشبيليا ومن حصين يقال له: "منتوجب"[2]، "فتح الله عليه بمواهب قلبية وأسرار ربانية استفادها بالتوجه والعمل وارتقى إلى غاية ما يؤمل"[3]، نزل ببجاية وأقام بها إلى أن أمر بإشخاصه إلى حاضرة مراكش[4].

---

[1] انظر: عبد العزيز بنعبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، مرجع سابق، ص58.

[2] في التشوف ص319، من حصن قطنيانة.

[3] أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية، تح: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979م، ص22.

[4] انظر: التشوف، مرجع سابق، ص322.

ولد الشيخ أبو مدين عام 520هـ (1126م) وعاش حياة بسيطة في صباه، ونشأ بالأندلس يتيما، وجعله إخوته راعيا لمواشيهم، وكانت نفسه منذ نعومة أظافره تميل إلى القراءة والصلاة، ورغم سعي إخوته الحثيث لصدّه عن ذلك، إلا أن همّته كانت أقوى من ذلك، فأخذ بنصيحةٍ تدعوه للسفر لفاس لتلقي العلم فيها، فسار إليها ولازم جامعها وجلس إلى مجالس العلماء، فتعلم الوضوء والصّلاة، ولم يكن يثبت في قلبه شيء مما يسمعه إلى أن جلس إلى شيخ ثبت كلامه في حافظته، فلما سأل عن هوية هذا الشّيخ، قيل له: أبو الحسن بن حرزهم، فلما دنا منه وأخبره بالذي كان، قال له:" هم يتكلمون بأطراف ألسنتهم فلا يجاوز كلامهم الآذان وأنا قصدت الله بكلامي فخرج من القلب، فلازمته"[1].

1-2-أهم مؤلفاته الشيخ أبو مدين:

اتسمت الحياة العلمية للشّيخ بطابع تربوي تدريسي، فرغم علمه الغزير في شتى العلوم بشهادة كل العلماء، إلا أن مؤلفاته معدودة، وهذا يدل على أن جهد الشيخ كان لإعداد وتأليف الرّجال أكبر منه في تأليف الكتب، وهذا لا ينقص من قدر الشيخ بل يزيده قدرا ورفعة.

ومما ألفه نذكر:

1- أنس الوحيد ونزهة المريد في علم التّوحيد.

2- تحفة الأريب ونزهة اللبيب.

3- أنس التّوحيد ومفاتيح الغيب لإزالة الريب وشر العيب.

4- رسالة في آداب المريد وتوجيهه مع بعض الحكم.

1-3-أهم شيوخ الشيخ أبي مدين وتلاميذه:

أخذ الشيخ أبو مدين علوم التصوف عن الشيخ الصالح أبي علي الدقاق، وهو من كبار مشايخ الصوفية، وكان إماما في ذلك، وكان يقول:" أنا أول من أخذ منه الشيخ أبو مدين علم التصوف"[2]، وساهم كل من الشيخ الزاهد المتصوف أبي يعزى يلنورين ميمون التلمساني والإمام أبو حامد الغزالي في تكوين الشّخصية الصوفية للشيخ أبي مدين، حيث يقول عنهم: "طالعت أخبار الصالحين من زمن أويس القرني، إلى زمننا هذا، فما رأيت

---

[1] انظر: ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، نشر وتصحيح: محمد الفاسي و أودلف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط. ص 11-12.

[2] عبد الحليم محمود، شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث حياته ومعراجه إلى الله، دار المعارف، القاهرة، 1119هـ، ص38.

أعجب من أبي يعزى، وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للغزالي"[1]، ويُورد التادلي في التشوف الكثير من الأخبار والحوادث التي حدثت لأبي مدين مع أبي يعزى لكنّ أبا مدين استطاع أن يجتاز تلك الاختبارات، وفي رحلته إلى المشرق لأداء فريضة الحج التقى بالشيخ أبي صالح عبد القادر الجيلاني بجبل عرفات، وبعد أن لازمه ودرس على يديه مختلف العلوم، تحصل منه على خرقة الصوفية، وقد كان يعتبره من أفضل وأعظم مشايخه[2].

كان الشيخ أثناء تعلمه لعلوم القرآن والحديث لا يتجاوز الآية أو الحديث حتى يعمل بهما، فيخرج إلى موضع بعيد منقطع عن الناس، فإذا فتح الله له العمل بالآية والحديث عاد إلى فاس ليعمل على حديث وآية أخرى[3].

أما تلاميذه، فإن من بركة الشّيخ أبي مدين أنه تخرج ألف شيخ على يده، وظهرت لكل واحد منهم الكرامة والبركة، وهذا سبب تسميته شيخ المشايخ، وإمام العبّاد والزّهاد[4]. ومن أبرز تلاميذه: عبد الرحيم القنائي أو القناوي المتوفى سنة 592هـ، وأبو الحسن الششتري الذي كان يحضر حلقاته المدينية، ولهذا سمي بالمديني، ومن شدة تأثره به تم نسب بعض موشحات أبي مدين إليه خطأ[5]، ومنهم جعفر بن عبد الله بن بونة الخزاعي الولي المشهور، المتوفى سنة 642هـ، ويعد من أخص أصحاب الشيخ، وهو مؤسس الطريقة البونية التي لاقت صدى كبيرا في الأندلس، وهي متفرعة عن المدرسة المدينية[6].

ويعد الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، أشهر تلاميذه، وقد تأثر به تأثرا بالغا، وتشهد على ذلك مؤلفاته التي تحدثت عن فضله وكراماته في مواضع كثيرة، كالفتوحات المكية، ومواقع النجوم، وغيرها، فحفظ لنا الكثير من أقواله فلا تجد سِفرًا من أسفار الفتوحات المكية يخلو من ذكر الشّيخ أبي مدين بشكل أو بآخر[7].

لقد كان الشّيخ أبو مدين سراجا منيرا، يهتدي به كل سالك للحقيقة، وينير سبيل

---

[1] يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995م، ج2، ص15.

[2] المرجع نفسه، ص16.

[3] انظر: التادلي، التشوف، مرجع سابق، ص322.

[4] انظرابن قنفد، أنس الفقير وعز الحقير، مرجع سابق، ص16.

[5] انظر: نور الهدى الكتاني، الأدب الصوفي في المغرب والأندلس، ص 46.

[6] انظر: لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، دار المعارف، القاهرة،1978م، ج1، ص469.

[7] انظر: محمد الطاهر علاوي، العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب، مرجع سابق، ص54.

أصحابه وتلاميذه، وكل من يقرأ له أو عنه.

1-4-تصوفه ونشره للعلم بالجزائر:

ساهمت الرحلات الكثيرة للشيخ، وجلوسه وملازمته الطويلة للعلماء، مع ما كان منه من صدق التوجه وصلاح العمل، في تكوين شخصية الشيخ أبي مدين العالم الرباني، والمصلح المؤثر بحق، والمربي المدرس، كما ساهمت في تخليد اسمه كأبرز علماء الصوفية الذين تركوا أثرا في هذه البلاد الطاهرة.

توجه الشيخ نحو الشرق، "وأخذ العلم من كبار العلماء، واستفاد من الزهاد والأولياء، وتعرف في عرفة على الشيخ عبد القادر الجيلاني، فقرأ عليه في الحرم كثيرا من الحديث، وألبسه الخرقة، وأودعه كثيرا من أسراره، وحلاه بملابس أنواره، وكان يفتخر بصحبته، ويعده أفضل مشايخه الأكابر"[1]، وقد استفاد أبو مدين الغوث كثيرا من هذه الرحلة.

اهتم أبو مدين اهتماما بالغا بالزّهد، وكان يرى أنه أحد الأسس الرئيسية في التصوف، وبدونه لا يكون تصوف، والزهد مسألة قلبية معناه ترك التعلق بالدنيا[2].

كان للشيخ دور كبير في نشر التصوف في صورته السنية الزهدية في الجزائر سواء بمؤلفاته في ذلك، أو بالدروس التي كان يلقيها على طلبته، فقد كان يدرس المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للغزالي، وذلك بزاوية أبي زكرياء الزواوي ببجاية [3].

يروي الغبريني عن أحد العلماء أنه رأى ذا القرنين في المنام فسأله عن قوله تعالى: (**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغرِبَ الشَّمسِ وَجَدَهَا تَغرُبُ فِي عَينٍ حَمِئَةٍ**)[4]، فسأله عن العين الحمئة التي تغرب فيها الشمس والشمس أكبر من الدنيا نيفا وستين مرة، وقال له: أين تغيب السماوات والنجوم والقمر حين يعدم الخلق؟ فقال هذا العالم: لا أدري، فقال له: عظمة الله وقدرته، والعين هي العظمة والقدرة، فقال: ما عندي غير هذا، فقال: ولا عند جبريل، ثم قال لي: قل للشيخ أبي مدين أنت قطب والدراري دائرة بك، وأنت ستر لبجاية الناجية

---

[1] التنكبي، نبيل الإبتهاج، أحمد بابا التنكبي، نيل الابتهاج، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1398هـ-1989م، ج1-2، ص195.

[2] انظر: عبد الحليم محمود، شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث حياته ومعراجه إلى الله، مرجع سابق، ص83-84.

[3] انظر:عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر، مرجع سابق، ص27-28.

[4] سورة الكهف، الآية 86.

فبثك العلم في بجاية رحمة لهم وعناية[1]، وهذه الرّواية وإن كانت مجرد منام إلا أن فيها دلالة لفضل الشيخ أبي مدين على بجاية لما بثه فيها من العلم ونشر الفضيلة.

ولما عاد أبو مدين من المشرق انصرف إلى تعليم الصّوفية في بجاية واستقر بها ناسكا نسكا شديدا، وسرعان ما اشتهر بولايته وعلمه، وهرع إليه الناس من أقصى البلاد يسألونه ويأخذون عنه، وكان له وهو بفاس كرامات وأظهر مثلها أثناء رحلته في بلاد المشرق وبعد عودته إلى بجاية [2].

وقد نفع الله بالشّيخ ووضع له القبول في الأرض، ولا يزال النّاس يجلّونه ويقرون بفضله على أهل الجزائر.

2-ابن النحوي:

يعدّ أبو الفضل يوسف بن النحوي من أهم الشخصيات البارزة التي جمعت بين علوم الظاهر وعلوم الباطن في الجزائر، فتعددت الدراسات التي تناولت شخصيته في جوانبها العلمية المتعددة، وله أشعار خالدة أشهرها "المنفرجة" التي لاقت قبولًا كبيرًا عند العامة والخاصة، ونالت اهتماما كبيرا لدى الباحثين.

2-1-مولد ابن النحوي وتعلّمه

هو أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي، من قلعة بني حماد وأصله من توزر، دخل سجلماسة وفاس، ثم عاد إلى القلعة وبها مات سنة 513هـ، استوطن قلعة بني حماد قرب المسيلة في الجزائر، وهناك قضى معظم حياته إلى أن توفي بها، ودفن في تربتها، عن عمر ناهز الثمانين سنة، وظل قبره معروفا بها، مقصودا بالزّيارة.

تلقى ابن النحوي العلم على كبار العلماء في عصره، ومن شيوخه عبد الله بن محمد الشقراطسي الذي كان إماما في الحديث، والعربية، والفقه وكان أديبا شاعرا، ومنهم الشيخ أبو الحسن اللخمي الذي قرأ عليه كتاب "التبصرة"، وروى عنه صحيح البخاري، كما أخذ عن الإمام المازري أصول الفقه وعلم الكلام، وقد ساهم اختلاطه بهؤلاء العلماء في تمكنه من أصول الدّين والفقه، وكان من العلماء العاملين وعلى سنن الصّالحين مجاب الدعوة، حاضرا مع الله في غالب أمره، له اعتقاد تام بإحياء الغزالي[3]. استوطن "القلعة

---

[1] انظر: الغربيني، عنوان الدراية، مرجع سابق، ص29-30.

[2] انظر:عبد الحليم محمود، أبو مدين الغوث، مرجع سابق، ص53.

[3] انظر: د.سوسن محمد عبد الجواد بلتاجي، القصيدة المنفرجة للإمام ابن النحوي ومعارضة الإمام الغزالي

بعد عودته من فاس لازدهارها بالعلوم والآداب، ووجد بها طلاب علم فانتفعوا به وأخذوا عنه، منهم الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن حرزهم شيخ أبي مدين الغوث، والفقيه أبي عبد الله محمد بن الرمامة رئيس المفتين بفاس، والفقيه أبي عمران موسى بن حماد الصنهاجي وغيرهم"[1].

وقد بلغ ابن النحوي درجة الاجتهاد، وأصبح نظير حجة الإسلام أبي حامد الغزالي في علمه وعمله حتى قال عنه ابن حماد القلعي المعروف بابن كلانون (ت629هـ،1232م): "كان أبو الفضل بن النحوي في بلادنا بمنزلة أبي حامد في العراق في العلم والعمل"[2].

2-2-شعر ابن النحوي:

تعتبر قصيدته المنفرجة من أشهر إنتاجات بن النحوي، والتي نظمها لشدّة نزلت به، ولما نظمها وابتهل إلى الله متضرعا في تهجده أقشعت –فيما يروي له المترجمون متفقين- وذلك أنه بعد خروجه من بلده توزر، لاعتداء واليها عليه واغتصاب أملاكه، توجه إلى الجزائر، وأقام بمسجد في قلعة بني حماد، ونظم القصيدة وابتهل بها إلى الله –عز وجل- بعد أن دعاه متضرعا إليه في تهجده بقوله:

لبِسْتُ ثوبَ الرّجَا والناسُ قد رَقدُوا .:. فَقُمْتُ أشكو إلى مولاي ما أجِدُ
وقلتُ: يا سيدي يا مُنتهى أملي .:. يا مَنْ عليه بكشْف الضرِّ أعتمدُ
أشكو إليكَ أمورًا أنت تعلمُها .:. مَا لي على حِملها صبرٌ ولا جَلَدُ
وقد مددتُ يدي بالضرِّ مشتكيًا .:. إليكَ يا خيرَ من مُدَّتْ إليه يَدُ[3]

وتعتبر قصيدة المنفرجة من أجود ما وصل إلينا من تراث صوفي لعلماء الجزائر، وقد اعتنى بها الفضلاء شرحا وتعليقا وإنشادا في المحافل والموالد في المشرق والمغرب، يستهل ابن النحوي قصيدته بقوله:

اشْــتَدّي أزْمَــةُ تَنْفَــرِجِي قَــدْ آذَنَ لَيْلُــكِ بِالْبَلَــجِ

وطلبه من الأزمة الاشتداد ليس مقصودا على الحقيقة، وإنما المقصود طلب الفرج

لها، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، الاسكندرية، المجلد الثاني، العدد 26، ص366،367.

[1] عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، مرجع سابق، ص430.

[2] عبد القادر قهلوز، قصيدة "المنفرجة" لابن النحوي دراسة وصفية تحليلية، المركز الجامعي مرسلي عبد الله، تيبازة، مجلة المدونة، المجلد الخامس، العدد الثاني، ص521.

[3] أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، مرجع سابق، ص624.

بنزول الشدة، لما ثبت عنده بالوحي أن الفرج يأتي بعد الشدة[1]، مصداقًا لقوله تعالى: **(سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)**[2]، والليل مهما طال فنور الصبح مدركه.

وَظَـلامُ اللَّيـلِ لَـهُ سُـرُجٌ حَتّـى يَغْـشَاهُ أبُـو الـسُّـرُجِ

الظلام خلاف النور، والشمس تسمى سراجا، والغِشيان: الاتيان، والظاهر أن ابن النحوي أراد بهذه الألفاظ معانيها الحقيقية، فأبو السرج هي الشمس، فإن أنوار القمر مستفادة منها، وغلبها الشيخ على النجوم فكلامه فيه تشبيه ذكر أحد طرفيه وهو المشبه به وطوى ذكر المشبه، فكأنه يقول: المصائب وأحزانها الشديدة، لا بد في أثنائها من ألطاف يخف معها الغم، حتى يتفضل الله بالفرج التام، الذي لا يبقى معه كرب، كالليل المظلم جعل الله الكواكب فيه يقل بها ظلامه ويخف قبضه حتى يأتي النهار فيذهب ظلامه كله، وتنشرح النفس بتمام النور واستكمال الضوء[3].

وَسَـحابُ الْخَيْـرِ لَهَـا مَطَـرٌ فَـإذَا جَـاءَ الإبّـانُ تَـجِ

السحاب: الغيم ويجمع قياسا على سحب وسحائب، والخير ضد الشر، والمطر واحد الأمطار المعروفة، والإبّـانُ: الوقت، فالشيخ يبين أن السحاب لما يبتلي ذوي الشدائد بأنها وإن عظمت وتطاولت ففي أثنائها ألطاف تؤذن بأن الشدة لا بدّ أن يتكامل فرجها، أشار هنا إلى التزام الصبر في زمن الشدة؛ لأن الفرج لا يأتي إلا في زمانه المقدر له، كالسحابة التي يكون عنها الخصب بنزول المطر لها، وقت مقدر لا تحصل إلا فيه، فالعاقل إذا لا يسعه إلا الصبر، ويكون الجزع حينئذ محنة للقلب بلا فائدة، بل يورث سخط الله ومقته، فينبغي أن يكون حظه التسليم لمدبر الأمور بحكمته، وتحسين الظن بسعة رحمته[4].

وَفَوَائِـدُ مَوْلانَـا جُمَـلٌ لِـشُروحِ الأَنْفُـسِ وَالْمُهَـجِ

الفوائد جمع فائدة، وهي ما استفيد لنفع الدين والدنيا، والمولى: مفعل من الولي، بالسكون وهو القرب فالله ولي أمر عبده، أي قريب منه بالعلم، لا بالمكان لاستحالته في حقه تعالى، وواحد الجمل فعلة بمعنى مفعولة، والسروح بالمهملتين واحدة، سرح وهو في الأصل المال السائم، والمهج أراد به الروح، والمعنى: عطاء الله وافر معدّ لشرح النفوس

---

[1] انظر: محمد نوري عباس، شرح قصيدة المنفرجة للإمام أبي الحسن علي بن يوسف البصروي، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد 20، العدد7، 2013م، ص83.

[2] سورة الطلاق، الآية 7.

[3] انظر: محمد نوري عباس، شرح قصيدة المنفرجة، مرجع سابق، ص 83-84.

[4] المرجع نفسه، ص84

بإذهاب أحزانها، فكيف ييأس العاقل عند إشداد الأزمة وتطاول الكرب، مع أن في ضمن الشدائد فوائد[1].

ولها أَرَجٌ مُحْـي أبــداً فَاقْــصِدْ مَحْيــا ذَاكَ الأَرَجِ

الأرج: انتشار ريح الطيب، والإحياء: إعطاء الحياة، وهي صفة تقضي الحس والحركة الإرادية، ومكانها كالممات وجمعها محاوي وممات، والضمير المجرور عائد على الفوائد، فأخبر بأن لتلك الفوائد أمورا تدل عليها، وأسباب توصل إليها، وهي ما يمن الله به من المعاملات الدينية، آخذا من قوله تعالى: (**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**[2]).

وقال أبو العباس المرسي: (للناس أسباب وأسبابنا نحن الإيمان بالله والتقوى) [3]، ثم أمر الناظم بتلك المراعاة بقوله: فاقصد إلى آخره، أي اقصد ذلك الأرج الرائق أو زمانه أو مكانه تفز بالمقصد الأسنى.

2-3-مساهمته في نشر التصوف في الجزائر و انتصاره للغزالي:

لا شك أن الشيخ ابن النحوي كان له دور كبير في نشر التصوف في الجزائر، ويشهد لهذا استماتته في الدفاع عن الاحياء الذي يعتبر من أهم الكتب التصوف السني، كما حرص على نسخه وتوزيعه على طلبته، وتدريسه لهم.

وموقف انتصاره للغزالي يدّل على فضل الشيخ ومكانته، فبعد أن أفتى فقهاء عصره بإحراق كتب الغزالي وحرضوا السلطان علي بن يوسف بن تاشفين على ذلك، كتب ابن النحوي إلى السلطان في ذلك، واستنكر على الفقهاء فتواهم، وكان هؤلاء يلزمون الناس بالأيمان المغلظة أن الاحياء ليس عندهم، فأفتى الشيخ بأن هذه الأيمان غير ملزمة[4]، وهذه الفتوى تدل على النظرة المقاصدية للشيخ ورسوخه في العلم.

وقد كان يجل الكتاب كثيرا، وكان يقول عنه: "هذه الأسفار من كتاب الاحياء، وددت أني لم أنظر في عمري سواها"[5].

---

[1] محمد نوري عباس، شرح قصيدة المنفرجة، مرجع سابق، ص85.

[2] سورة الأعراف، الآية 96.

[3] محمد نوري عباس، شرح قصيدة المنفرجة، مرجع سابق، ص86.

[4] انظر: التشوف، مرجع سابق، ص96.

[5] المرجع السابق.

كان: "أبو الفضل قد انتسخ الإحياء في ثلاثين جزءا، فإذا دخل رمضان قرأ في كل يوم جزءا"[1]، وكان أبو الفضل ابن النحوي يلقن الطلبة الشباب فنونا عديدة في المساجد والزوايا والرابطات، في حلقات تعرف بالميعاد-ميعاد الدّرس- حيث كان يدرسهم الحديث وأصول الدين وعلم التذكير في قلعة بني حماد[2].

وكغيره من علماء وأولياء التّصوّف فإن سيرته الطاهرة وعبادته وكراماته، كانت مصباحا منيرا يُقتدى بأثره، ويقتفى بسيرته، وكان الناس يجلّونه، يروى التادلي عن ابن حرزهم أنه عندما كان صبيا أوصاه أبوه أن يقبّل يدي أبي الفضل ابن النحوي متى لقيه ولو لقيته في اليوم مائة مرة، فبعثه يوما ليدعو له، فأتاه وقت غروب الشمس فوجده يتوضأ، فلما فرغ من وضوئه نظر إلى الإناء فرأى أنه لم ينقص منه شيئا، فلما غربت الشمس أذن وأقام وصلى معه، فلما أراد أن يكبر كان الثوب الذي على كتفه يتحرك حركة شديدة، يسمع صوته من شدة الخوف، ثم قرأ قراءة مبينة يسردها حرفا حرفا، فلما سلم دعا لابن حرزهم وانصرف إلى أبيه، فحدثه وقال: رأيته يصلي عند غروب الشمس قبل الوقت الذي يصلي فيه أهل البلد، فلطمه وقال: أتتكلم في ولي من أولياء الله تعالى، وهل وقت المغرب إلا ذلك الوقت الذي صلى فيه أبو الفضل وإنما الناس ابتدعوا في التأخير عن ذلك الوقت، ثم أمره أن يحكي له فعل أبي الفضل من أوله إلى آخره، فلما فعل قال لأمه: هذا صبي نرجو من الله أن ينفعنا به فإنه وجد بركة أبي الفضل[3].

وقد استجاب الله دعوته، وأصبح ابن حرزهم من العلماء، وهو من شيوخ أبي مدين الذي سبق الحديث عنه.

2-4- وفاة ابن النحوي:

توفي بقلعة بني حماد سنة 513هـ-1119م، عن ثمانين سنة ودفن بها، وكان قبره مزارا، وصف أحدهم قبره فقال: "لا يزال قبره داخل بيت مربع الشكل تعلوه قبة خارجا من القلعة غربا، قرب باب الجنان أحد أبواب القلعة بجانيه مسجد قرية صغيرة، سميت باسمه، يقال لها (سيدي بلفضل)، تصحيفا عن أبي الفضل"[4].

ملك ابن النحوي القلوب في حياته، ولا يزال ذكره وعلمه عطرا بعد وفاته، وأشعاره لا

---

[1] التادلي، التشوف، مرجع سابق، ص96.

[2] انظر: الطاهر بوناب، التصوف في الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، ص231.

[3] انظر التشوف، مرجع سابق، ص98.

[4] عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، مرجع سابق، ص430.

يزال العامة والخاصة يرددونها، ويستأنسون بها.

3-أبو زكرياء يحي ابن علي الزواوي:

يعتبر الشيخ أبو زكرياء من العلماء البارزين في بجاية، عرف بخوفه الشديد من الله وحسن عبادته، وكان من أهل التصوف العارفين بالله، يصفه الغبريني بأنه: ''الشيخ الفقيه الصالح العابد الولي الزاهد على التحقيق، المتوجه إلى الله بكل وجهة طريق''[1]، ويقول عنه التادلي:'' كان عبدا صالحا زاهدا ورعا، شديد الخوف من الله تعالى''[2].

3-1-مولد أبو زكرياء الزواوي ونشأته:

ولد أبو زكرياء في بني عيسى من قبائل زواوة[3]، عام اثنين وستمائة على ما يروي ابن قنفد عن الفقيه القاضي أبو محمد بن كحيلا البجائي[4].

يقول الغبريني: ''كان رحمه الله، منذ ظهر بانيا على ترك الدنيا والانقطاع إلى الدار الآخرة، وما كان عيشه رضي الله عنه، إلا من المباح كالبقول المطروحة وما جرى مجراها وما اشتهى من اللحم ينزل إلى البحر، فيصيد السماك على الأحجار، وهي لحمه رضي الله عنه، وما من ناحية من النواحي إلا وله فيها مسجد ومعلم، وكلّها معروفة البركة''[5].

واشتهر الشيخ بقدرته الكبيرة على التأثير في النفوس، حيث كان ينتهج أسلوبا خاصا في الترغيب والترهيب، ويظهر من ذلك أنه كان يستخدم أسلوب البلاغة، والأساليب الشعرية المؤثرة واللغة المفهومة، وكان يدعو الناس للجهاد وافتداء الأسرى، ومساعدة الفقراء[6]، وله قصص كثيرة تدل على رحمته واحسانه للفقراء، يروي لنا التادلي إحداها؛ إذ وقعت في عصره مجاعة شديدة، فمر إلى أعيان بجاية، وكلمهم واحدا بعد واحد في معونة المساكين فيدفع له كل واحد منهم ما يطيقه، فلما اجتمع عنده مال كثير اكترى للمساكين فندقا فأبى عامله أن يقبض الثمن، فاشترى بتلك الأموال لباسا يدفع عنهم البرد، واشترى لهم طعاما، وجعل عليهم قيما يقوم بهم وأغناهم عن السؤال، إلى أن

---

(1) الغبريني، عنوان الدراية، مرجع سابق، ص127.

(2) التادلي، التشوف، مرجع سابق، ص428.

(3) الغبريني، عنوان الدراية، مرجع سابق، ص127.

(4) ابن قنفد، أنس الفقير وعز الحقير، مرجع سابق، ص27.

(5) الغبريني، عنوان الدراية، مرجع سابق، ص127، بتصرف.

(6) انظر: الطاهر بوناب، التصوف في الجزائر، مرجع سابق، ص253،252.

أخصب الناس في العام الثاني فانصرفوا إلى مواضعهم[1].

3-2-شيوخ أبو زكرياء الزواوي:

يذكر الغبريني في عنوان الدراية مجموعة من شيوخ أبي زكرياء، ومنهم: " الفقيه أبو الطاهر اسماعيل بن مكي بن عوف الزهري، روى عنه الموطأ، والقاضي أبو سعيد مخلوف ابن جاره، روى عنه المصابيح، وكتبا عدة اجازة وسماعا، والإمام أبو طالب احمد بن رجا اللخمي، قرأ عليه وأخذ عنه الأصلين حفظا واتقانا، والحافظ أبو طاهر السلفي صحبه وأخذ عنه اعجاز القرآن للخطابي، ومن شيوخه، رضي الله عنه أيضا، الإمام أبو عبد الله ابن بكرة الكركني، قرأ عليه المذهب رواية ودراية، وأبو القاسم الشاطبي الضرير، والفقيهان الأخوان أبو عبد الله وأبو العباس الحضرميان روى عنهما الشهاب للقاضي والفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن سلامة، والزاهد أبو عبد الله المغاور، والشيخ أبو عبد الله السلاوي، وغير هؤلاء"[2]، وكان للشيخ أبي زكرياء علاقة خاصة مع أبي مدين الغوث، فعندما ترجم له ابن قنفد ذكره بقوله: "ومن إخوان الشيخ أبي مدين"، كما يذكر التادلي قصة للشيخ أبي مدين مع أبي زكرياء عندما قال له:" لا تقنط الناس وذكرهم بأنعم الله، فقال له أبو زكرياء: لا أقدر إلا على هذا"[3].

3-4-مساهمة الشيخ أبو زكرياء في نشر التصوف في الجزائر:

عُرف الشيخ أبو زكرياء الزواوي بعلمه وفضله على أهل بجاية، يذكر ابن قنفد أنه: "كان له كرسي بجامع بجاية يقرئ عليه العلم"[4]، وكان من علماء التصوف الذين يغلب عليهم الخوف والخشية من الله، وقد كان منهجه يغلب عليه الترهيب، فكان يكثر من ذكر النار وأهوالها، طلب منه أحد طلبته أن يذكر لهم الجنة ونعيمها، "فصاح حتى غشي عليه وقال: متى خرجنا من النار حتى ندخل الجنة؟"[5].

بعد رحلاته في طلب العلم في المشرق، استوطن بجاية، وجلس بها لنشر العلوم الشرعية وبث منهجه في التصوف والدعاء إلى الله تعالى، فانتفع الخلق على يديه وظهرت عليهم بركته وفعلت فيهم سريرته الصالحة ونيته، ولم يكن أحد أجلد منه على القيام

---

[1] انظر: التادلي، التشوف، مرجع سابق، ص429.

[2] الغبريني، عنوان الدراية، مرجع سابق، ص131،130،129.

[3] التادلي، التشوف، مرجع سابق، ص428.

[4] ابن قنفد، أنس الفقير، مرجع سابق، ص28.

[5] المرجع نفسه.

والصيام[1].

3-5-وفاة أبو زكرياء الزواوي:

توفي الشيخ أبو زكرياء بعد صلاة العصر من يوم الجمعة، الرابع عشر من رمضان المعظم من عام أحد عشر وستمائة، وتوفي في هذا اليوم فجأة من غير تقدم مرض، وكان قد رتب ميعادا بالقراءة لسماع تفسير القرآن العظيم، وميعادا بعد صلاة الظهر لسماع حديث رسول الله "صلى الله عليه وسلم"، على جري عادة السلف الصالح في شهر رمضان، وقبضت روحه صائما صامتا معتكفا في الجامع الأعظم[2].

وكان لوفاته أثر أليم في نفوس الناس ببجاية، فرحمه الله وجميع علمائنا رضوان الله عليهم.

خاتمة

يزخر المغرب الإسلامي كمقابله في المشرق بقامة من العلماء في التصوف، وقد انبرى للتعريف بهم علماء وترجمت سيرهم مؤلفات كثيرة، وفي بحثنا تناولنا كتاب التشوف إلى أعلام التصوف للتادلي، وخلصنا إلى النتائج التالية:

1. كتاب التشوف للتادلي يعتبر من أول الكتب التي تناولت موضوع متصوفة المغرب ومن أهم المصدر في هذا، لما فيه من قيمة علمية لا يزال الباحثون يستفيدون منها، ويستخرجون كنوز المعارف في المغرب.

2. الكتاب ترجم لعلماء وأولياء المغرب، وحدثنا عن كراماتهم وسيرهم العطرة، وفي دراستنا تناولنا ثلاثة من أعلام التصوف الذين كان لهم إسهام في نشر التصوف في الجزائر: أبو مدين الغوث وابن النحوي وأبو زكرياء الزواوي.

3. كان لهؤلاء الأعلام دور كبير في نشر قيم التصوف الإنسانية في الجزائر، فأبو مدين الغوث كان يدرس كتب التصوف في الزوايا، وينشر قيم الزهد في الجزائر.

4. أما ابن النحوي، فكان من أشد المدافعين عن إحياء الغزالي، وعرف بأنه كان مجاب الدعوة، وقد بلغ درجة الاجتهاد، كانت له مجالس يدرس فيها طلبته مختلف العلوم وخاصة كتب التصوف.

---

[1] الغبريني، عنوان الدراية، مرجع سابق، ص127، بتصرف.

[2] انظر: الغبريني، عنوان الدراية، مرجع سابق، ص128-129.

5. ومن أعلام التصوف في الجزائر الذين كان لهم إسهام في نشر التصوف، الشيخ أبو زكرياء الزواوي، الذي ملأ بجاية علما وعملا، وقد كان له قدرة كبيرة على التأثير في نفوس الناس، وتاب على يديه خلق كثير.

قائمة المصادروالمراجع

- التادلي: ابن زيات، التشوف إلى رجال التصوف، تح: أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط، الطبعة الثانية، 1997.
- التنكبي: أحمد بابا، نيل الابتهاج، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1398هـ-1989م، ج1-2.
- عبد الحليم محمود: شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث حياته ومعراجه إلى الله، دار المعارف، القاهرة.
- الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م، ج8.
- سوسن محمد عبد الجواد بلتاجي: القصيدة المنفرجة للإمام ابن النحوي ومعارضة الإمام الغزالي لها، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، الاسكندرية، المجلد الثاني، العدد 26.
- الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة.
- عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، المطبعة الحسنية: تطوان، ط1، 1369هـ-1950م.
- الغبريني: أبو العباس أحمد بن أحمد، عنوان الدراية، تح: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979م.
- عبد القادر قهلوز: قصيدة "المنفرجة" لابن النحوي دراسة وصفية تحليلية، المركز الجامعي مرسلي عبد الله، تبازة، مجلة المدونة، المجلد الخامس، العدد الثاني.
- ابن قنفذ: أنس الفقير وعز الحقير، نشر وتصحيح: محمد الفاسي و أودلف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي،6 الرباط.
- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، دار المعارف، القاهرة،1978م، ج1
- محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1424هـ-2003م، ج1.
- محمد نوري عباس، شرح قصيدة المنفرجة للإمام أبي الحسن علي بن يوسف البصروي،

مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد 20، العدد7، 2013م.

- عبد المنعم القاسمي الحسني: أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الجرب العالمية الأولى، دار الخليل القاسمي، مسيلة، ط1، 1427هـ.
- ابن الموقت: السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1341هـ.
- يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995م، ج2.

انتشار التصوف بالجزائر
قراءة في كتاب "أنس الفقير وعز الحقير" لابن قنفذ القسنطيني

ط.د/ صفية فضلة، إشراف: **د/ زهير بن كتفي**
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي
fadla-safia@univ-eloued.dz

مقدمة

إن مراتب الدين كما هو معروف ثلاثة: إسلام، إيمان، وإحسان، اشتغل الفقه على أولها، وتعمّقت العقيدة في ثانيها، واهتم التصوف بثالثها وهو الإحسان، وكما في حديث جبريل عليه السلام فإن الإحسان هو: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، فهو مقام تربية وسلوك، بتربية النفس والقلب بالدعوة للتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل والترقي في مقامات المعرفة الإلهية.

وقد انتشر التصوف في العالم الإسلامي بشكل كبير كنزعات فردية داعية للزهد والتخلق بالفضائل، ثم تحولت فيما بعد إلى شكلها الجماعي بانتشار الزوايا والطرق، ولم يكن المغرب الأوسط "الجزائر" بمنأى عن العالم الإسلامي في هذا.

ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأنه لا يمكن معرفة البدايات الحقيقة للتصوف بالجزائر، إذ تنقص الأدلة والبراهين على ذلك، لكن يمكن الكلام عن وجود التصوف في صورته الأولى "الزهدية" منذ الفتوحات الإسلامية (عقبة بن نافع رضي الله عنه، ت63هـ)، ليشهد تطورات متباينة مع كل مرحلة مرّ بها العالم الإسلامي، ولينتشر بشكل واسع شاملا مناطق عديدة في الجزائر، حيث ساهمت عدة عوامل في انتشاره، وشهد القرن السادس الهجري وجود علم من أعلام التصوف ساهم بشكل كبير في انتشار التصوف في الجزائر، وهو أبو مدين الغوث. وقد وُجدت عدة مؤلفات حاولت تسليط الضوء على شخصية الشيخ أبي مدين الغوث ودوره الفعّال في نشر التعاليم الصوفية في الجزائر خاصة، ولعلّ من أهمها كتاب "أنس الفقير وعز الحقير" لابن قنفذ القسنطيني، أنموذج الدراسة.

التعريف بالموضوع: يعدّ كتاب ابن قنفذ القسنطيني "أنس الفقير وعز الحقير في رجال من أهل التصوف أبي مدين وأصحابه" من أهم الكتب التي أرّخت للحياة الروحية بالجزائر، فقد خصص فيه الحديث عن أبي مدين شعيب وإسهامه الكبير في نشر

التصوف في الجزائر.

أهمية الموضوع: وتظهر أهمية الموضوع من خلال: أهمية ناشر التصوف في الجزائر "أبو مدين الغوث"، إذ هو من أهم أقطاب التصوف الإسلامي، وما قدّمه لانتشار التعاليم الصوفية في القطر الجزائري.

إشكالية البحث: وبناءً عليه فإن الإشكالية التي نطرحها هنا هي: ما هو دور أبي مدين الغوث في انتشار التصوف بالجزائر من خلال كتاب ابن قنفذ القسنطيني "أنس الفقير وعز الحقير"؟

أهداف البحث: ويسعى هذا البحث إلى إبراز بدايات انتشار التصوف في الجزائر من خلال استقراء كتاب "أنس الفقير وعز الحقير" الذي يركز على التعريف بأبي مدين وحياته.

الدراسات السابقة: ومن بين الدراسات السابقة التي عالجت الموضوع نجد مقالا علميا بعنوان: "أبو مدين شعيب ومكانته في التصوف المغربي"، للأستاذ فرحات عبد الوهاب، المنشور في مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 18، 1، 2003/2/15، وتحدث فيه عن حياة أبي مدين الغوث ومنهجه في التصوف، وهو ما يتداخل مع أجزاء بحثنا في كلامنا عن شيخ الشيوخ أبي مدين الغوث ونشره للتعاليم الصوفية في الجزائر.

منهج البحث: وقد اعتمدت المنهج الاستقرائي في هذه الدراسة من خلال محاولة الوقوف على نصوص كتاب أنس الفقير وعز الحقير، وكذا المنهج الوصفي والتحليلي من خلال عرض حياة أبي مدين وتجميع الملاحظات حول جهده لنشر التصوف من خلال ما عرضه الكاتب ابن قنفذ القسنطيني.

خطة البحث: وجاءت خطة البحث مشتملة على العناصر الآتية:

مقدمة.

المبحث الأول: ابن قنفذ القسنطيني حياته وكتابه.

المطلب الأول: حياة ابن قنفذ القسنطيني.

المطلب الثاني: كتابه أنس الفقير وعز الحقير.

المبحث الثاني: أبو مدين الغوث ودوره في نشر التصوف بالجزائر.

المطلب الأول: حياة أبي مدين الغوث.

المطلب الثاني: السند الروحي لأبي مدين.

المطلب الثالث: دور أبي مدين في نشر التصوف بالجزائر.

خاتمة.

المبحث الأول: ابن قنفذ القسنطيني حياته وكتابه.

حاز ابن قنفذ القسنطيني على معارف وعلوم متنوعة، فضلا عن التصوف، فقد كان فقيها ومحدّثا ومشاركا في علم الفلك وغيرها من العلوم الأخرى التي كانت منتشرة في عصره، ولذلك فقد تنوعت موضوعات كتبه، ويعدّ مؤلفه "أنس الفقير وعز الحقير في رجال من أهل التصوف أبي مدين وأصحابه" من أهم المصادر المؤرّخة للقرن الثامن الهجري وما قبله، حيث جاء شاملا للحياة السياسية، والاجتماعية، والدينية وغيرها من المجالات الأخرى. وقبل التطرق إلى كتابه يقتضي سياق البحث التعرف على صاحب الكتاب نموذج الدراسة، فمن هو ابن قنفذ القسنطيني؟

المطلب الأول: حياة ابن قنفذ القسنطيني.

1-ابن قنفذ أحمد أبو العباس القسنطيني: هو أحمد أبو العباس بن حسن بن علي ابن ميمون، الشهير بابن الخطيب وبابن قنفذ القسنطيني، فقيه صوفي، أديب، مؤرخ، فلكي ومفكر، ولد سنة 740هـ، 1340م، نشأ في بيت علم وفقه وأدب وزهد وتصوف في قسنطينة[1]، فقد كان أبوه وأجداده من الجهتين من مشاهير علماء هذه الحاضرة وأعيانها على عهد الدولة الحفصية، التي كانت قائمة بتونس وقسنطينة منذ حلت في الحكم محل الموحدين أوائل المائة السابعة للهجرة، وهو من كبار أعلام الطريقة المدينية -نسبة لأبي مدين الغوث- بالشرق الجزائري.[2]

وقد ارتحل من بلاده المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى، وقضى هناك ثماني عشرة سنة، وجال فيه فحصّل علوما كثيرة، واعتنى بلقاء الصالحين والعلماء، ثم ولي قضاء دكالة، منطقة من مناطق المغرب الأقصى، وبعد ذلك رجع إلى بلده قسنطينة وأقبل على التأليف والتصنيف، وتولى منصب القضاء والفتيا والخطبة،[3] وتوفي بقسنطينة سنة

---

[1]- موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، رابح خدوسي وآخرون، ط1، 2014، منشورات الحضارة، الجزائر، ص156.

[2]- أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، عبد المنعم القاسمي الحسني، ط1، 1427هـ، دار الخليل القاسمي، ص74، 75.

[3]- طبقات الأصوليين بعدوتي المغرب والأندلس، دار الأمان، الرباط، دار الكتب العلمية، لبنان، ص320.

810هـ، 1407م.[1]

2-شيوخه: تتلمذ على يد والده وجده لأمه بداية، وبذهابه لفاس تتلمذ على يد عدة شيوخ، ومن أشهر شيوخه: الإمام أبو العباس أحمد بن قاسم القباب الفاسي، أبو عمران موسى العبدوسي الفاسي، أبو محمد عبد الله الوانغيلي الفاسي، محمد بن أحمد ابن مرزوق التلمساني، أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة التونسي، أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس القسنطيني، وغيرهم.[2]

3-مؤلفاته: أما عن مؤلفاته فقد ترك مؤلفات عديدة تعكس سعة اطلاعه واهتمامه بمختلف العلوم والمعارف، وقد قدرت الكتب المنسوبة إليه بثلاثين تأليفا، أغلبها لا يزال مجهولا، إما مخطوطا أو في حكم المفقود،[3] ومن أهم مؤلفاته الموجودة نذكر:

-شرف الطالب في أسنى المطالب، وهو شرح للمنظومة المسماة "القصيدة الغزلية في ألقاب الحديث" في مصطلح الحديث.[4]

-الوفيات وهو عبارة عن وريقات قليلة، جعلها ذيلا لكتابه شرف الطالب، ذكر فيه وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة والتابعين، والعلماء والمحدثين والمفسرين، حتى انتهى إلى ذكر شيوخه وغيرهم من علماء المغرب منهم عشرون عالما من الجزائر.[5]

-تحفة الوارد في اختصاص الشرف من قبل الوالد، قال عنه ابن قنفذ في آخر كتاب شرف الطالب "وهو غريب"، منه مخطوط بالقاهرة.[6]

-الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية سماه نسبة للأمير الحفصي أبو فارس عبد العزيز، وقد نشر على الحجر بباريس سنة 1847م، كما نشر المستشرق الفرنسي شربونو بعض النبذ من هذا التاريخ، مترجما لها بالفرنسية في الجريدة الآسيوية ما بين 1848 و

---

[1]- أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، عبد المنعم القاسمي الحسني، ص78.

[2]- أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ القسنطيني، تح: محمد الفاسي وأدولف فور، مطبعة اكدال، الرباط، ص (ت، ث، ج).

[3]- أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، عبد المنعم القاسمي الحسني، ص76.

[4]- أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ القسنطيني، ص (خ).

[5]- شرف الطالب في أسنى المطالب، أبو العباس بن الخطيب بن قنفذ القسنطيني، تح: عبد العزيز صغير دخان، ط1، 1424هـ، 2003م، مكتبة الرشد، السعودية، ص44.

[6]- أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ القسنطيني، ص (د).

.[1]1852

كما له مؤلفات أخرى تنوعت مواضيعها بين الفقه وأصوله، علوم اللغة والعروض، المنطق، الحديث، علم الفلك والحساب، وفي علوم أخرى، لا يتسع البحث لذكرها.

يضاف لكل ما سبق أيضا من كتبه في التراجم والتاريخ والسير، ككتابه أنس الفقير وعز الحقير.

المطلب الثاني: كتاب أنس الفقير وعز الحقير.

والكتاب لابن قنفذ معنون بـ"أنس الفقير وعز الحقير، في رجال من أهل التصوف أبي مدين وأصحابه"؛ وفي الإضافة المتعلقة برجال التصوف أبي مدين وأصحابه بيان لما سيعالجه في كتابه هذا.

وتظهر مكانة وفائدة هذا الكتاب من جوانب عدة تاريخيا وأنثروبولوجيا وأدبيا وفكريا؛ إذ هو شامل لسير وتراجم نماذج عديدة من الصالحين من رجال التصوف الإسلامي، كما رصد فيه المؤلف من خلال رحلاته حقيقة الحياة الصوفية في القرن الثامن للهجرة.

1-مخطوطات الكتاب: يمكن الكلام عن وجود عدة مخطوطات لهذا الكتاب، وقد تم الاعتماد عليها في التحقيق للكتاب[2]، فيذكر المحقق أنه قام بالاعتماد على خمس نسخ له: مخطوط الخزانة العامة بالرباط المسجل تحت رقم 524، مخطوط للأستاذ كولان، مخطوط الخزانة العامة المسجلة تحت عدد 1498، مخطوط خزانة القرويين، مخطوط من خزانة كاتبه الخاص، وبعد الانتهاء منه تم الوقوف على أربع نسخ أخرى، ولم يقف المحقق على فوارق بين هذه النسخ التسع.[3]

2-أسلوب المؤلف: يشار إلى أن أسلوب المؤلف هنا إن كان في الخطبة فإنه يستعمل السجع ويتأنق في كتابته، أما عند كلامه عن مشاهداته وزياراته لمختلف النواحي التي تكلم عنها فإنه يعمد إلى أسلوب حي وبسيط وإلى لغة لا تخلو أحيانا من بعض الألفاظ العامية.[4]

3-سبب تأليفه والتاريخ والمكان: أورد بن قنفذ في بداية كتابه ما دفعه لتأليف هذا الكتاب وأنه بطلب من بعض إخوانه، فقال: "رغب إليّ من يكرم علي من بعض إخواني في

---

[1]- المصدر السابق، ص (د).

[2]- والكتاب الذي وقفت عليه هو من تحقيق محمد الفاسي، وأدولف فور، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، سلسلة الرحلات (2)، زيارة (1)، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي.

[3]- أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ القسنطيني، ص (ز، ط).

[4]- المصدر نفسه، ص (ظ، ك).

الدين في تقييد شيء من كلام الشيخ أبي مدين، نفع الله به وبأمثاله المسلمين، وذلك في شهر رمضان العظيم من عام سبعة وثمانين وسبعمائة بقسنطينة المحروسة، فحركني ذلك إلى ذكر هذا الشيخ والتعريف به، وما وصل إلي من خبره ونسبه"[1].

وكما أسلفنا الذكر فإن الكتاب مخصص للكلام عن أبي مدين الغوث وتلاميذه، ويشار إلى أن الكاتب ارتأى أن يمهد لموضوعه بالكلام عن صفات الولي، والكرامات في الحياة وبعد الممات، إضافة للفرق بين مكاشفة المسلم والنصراني، ووصية شعرية اختتم بها كلامه، ليصل للكلام عن أبي مدين الغوث، وهو ما سنفصل فيه في المبحث القادم.

المبحث الثاني: أبو مدين الغوث ودوره في نشر التصوف بالجزائر.

يتجه كثير من المؤرخين إلى القول بأن التصوف بالجزائر مرّ بمراحل مختلفة، تنوعت بين زهد وتقشف خاصة في القرنين الأولين للهجرة، ثم أضحت تقليدا لما سبق، إلى أن كان التوغل في التصوف الخالص، ومنذ القرن الخامس الهجري ظهرت الطرق الصوفية وتبلورت اتجاهاتها الخاصة، في هذه المرحلة كانت الجزائر (المغرب الأوسط) مركزا ومزارا للعلماء والفقهاء والمتصوفة، ومن أبرز المتصوفة الذين ظهروا في هذه المرحلة وأسهموا بشكل بارز في نشر تعاليم التصوف هو: أبو مدين الغوث.

المطلب الأول: حياة أبي مدين الغوث.

1-أبو مدين الغوث: هو شعيب بن حسين الأنصاري الأندلسي الأصل من أحواز إشبيلية، ويحكي عنه ابن قنفذ أنه لما توفي أبوه كلفه إخوته رعي مواشيهم لأنه أصغرهم سنا، فكان يخرج بها إلى المرعى فإذا رأى مصليا أو قارئا دنا منه ووجد في نفسه غما عظيما من كونه لا يفعل مثله، إلى أن ترك الماشية وفرّ طالبا ما مالت له نفسه بتوفيق الله، فرده إخوته، وحين قوي عزمه فرّ، وأدركه أخ له، فسلّ عليه السيف وضربه، وتلقى الضربة بعود كان بيده فتكسر السيف أجزاء، فعجب أخوه من ذلك، وأمره أن يذهب حيث شاء،[2] فخرج من مكانه حتى وصل البحر فأخبر شيخا عن أمره، فنصحه أن ينصرف للحاضرة حتى يتعلم العلم، فإن الله تعالى لا يعبد إلا بالعلم، فخرج إلى العدوة ونزل بطنجة ومن هناك لسبته إلى مراكش، ليصل لفاس فلازم جامعها، وحضر مجالس العلماء، فكان يستمع للشيوخ، وقد ثبت في قلبه كلام الشيخ أو الحسن ابن حرزهم، فلازمه، وقرأ على الشيخ الفقيه أبي الحسن

[1]- أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ القسنطيني، ص1، 2.

[2]- أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ القسنطيني، بتصرف، ص11، 12.

ابن غالب، كما زار أبا يعزى[1] وشاهد كراماته، ثم انصرف مشرقا واستوطن بجاية، وكثر تلاميذه وظهرت بركاته عليهم، يقال أنّه خرج على يده ألف تلميذ وظهرت لكل واحد منهم الكرامة والبركة، لذلك يقال له شيخ شيوخ الإسلام وإمام العباد والزهاد.[2]

كما قدم أبو مدين ذراعه في الحروب الصليبية رفقة صلاح الدين الأيوبي، وله وقف كبير باسمه في حارة المغاربة بالقدس.[3] وقد قضى أغلب حياته في بجاية وكثر أتباعه هناك واشتهر أمره، وذكر عند خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش، فأمر السلطان بطلوعه من بجاية إليه، وفي طريقه مرض وتوفي في نواحي تلمسان سنة594،[4] وبنى سلاطين بني مرين بضريحه مسجداً ومدرسة.

2-بعض شيوخه، وتلاميذه:

وقد أورد ابن قنفذ أشياخ الشيخ أبي مدين الغوث، فكان مما ذكر: أبو الحسن علي ابن حرزهم (ت559)، وهو من كبار الفقهاء وكان زاهدا سالكا سبل التصوف، وكذلك أبو يعزى يلنور بن عبد الله (ت572) والذي من أشياخه أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي "أيوب السارية"، وقد ذكر أبو مدين أنه طالع أخبار الصالحين من زمن أويس القرني إلى زمانه فما وجد أعجب منه، وكذا أبو الحسن علي بن غالب (ت590) من فقهاء فاس، وقد قرأ عليه سنن الترمذي ولازمه وتفقه عليه، إضافة لأبي عبد الله الدقاق من أكابر الصوفية وكان يتردد من فاس إلى سجلماسة، وكان يقول: "أنا أول من أخذ عنه الشيخ أبو مدين علم التصوف".[5]

وبالإضافة إلى هؤلاء الأوتاد الذين غرسوا في قلب أبي مدين بذور العلم والمعرفة، فإنه عند رحيله إلى المشرق لأداء فريضة الحج، لقي الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني (ت561) وعنه أخذ كثيرا من الأحاديث الشريفة.[6]

وأضاف ابن قنفذ بعد هذا كلاما عن إخوانه وكذا أصحابه[7]، مضيفا بعض التعليقات

---

[1]- للاستزادة يرجى النظر: التشوق إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي، تح: أحمد التوفيق، ط2، 1997، منشورات كلية الآداب بالرباط، ص320، 321.

[2]- أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ القسنطيني، بتصرف، ص12- 16.

[3]- للاستزادة يرجى النظر: قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الأصول والفقه بالطريقة، أبي العباس أحمد زروق، تح وشرح: محمد إدريس طيب، كتاب، ناشرون، لبنان، ج2، ص118.

[4]- أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ، بتصرف، ص102، 103، 104.

[5]- المصدر نفسه، ص12، 21، 26، 27

[6]- ديوان أبي مدين شعيب الغوث، جمع: عبد القادر سعود، سليمان القرشي، كتاب، ناشرون، لبنان، ص6.

[7]- فرّق صاحب الكتاب بين إخوانه وأصحابه، فتكلم بداية عن إخوانه ثم سرد ما تعلق بأصحابه، ومن خلال استقراء ما ذكره فإن الكلام عن إخوانه غالبا هو فيمن اشتركوا معه في التعلم من الشيوخ، أو عاصروه في المشيخة، ومنهم حتى من قرأ عليهم، أما الأصحاب فمن لازموه أثناء تعليمه لا تعلمه، أو تعلموا منه، والله أعلم.

على كل من ذكرهم من قبيل اتصافهم بالخلق الحسن وقربهم من الله، وحدوث الكرامات لهم.

وفي الجدول أدناه مجموع من ذكرهم صاحب كتاب أنس الفقير وعزّ الحقير إما تحت خانة إخوانه، وإمّا أصحابه "تلاميذه":

إخوانه	أصحابه
أبو زكرياء يحي بن أبي علي الزواوي (ت685)	أبو علي حسن بن محمد الغافقي الصواف
أبو علي يعزى بن الشيخ أبي يعزى	أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأنصاري (وهو من كبار تلاميذه)
أبو جعفر محمد بن يوسف الصنهاجي	أبو علي عمر الصباغ
أبو عبد الله التاودي (ت580)	أبو عمران موسى الحلاج
أبو الحسن علي بن إبراهيم الصنهاجي	أبو عبد الله محمد بن علي
أبو تميم عبد الرحمان الهزميري	أبو مسعود بن عريف
أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري السبتي	أبو محمد عبد الله بن ماكسن
يحي بن صالح (خديم الشيخ أبي يعزى)	فاطمة الأندلسية
أبو محمد عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل الأنصاري (القصري)	أبو محمد عبد الله الصنهاجي
أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمان الإشبيلي (ت582)	أبو عبد الله محمد بن حمادو الصنهاجي
أبو محمد بن ينصارن الماجري وشيخه عبد الرزاق الجزولي[1]	الشيخ الصالح بلال
	أبو عبد الله البوني
	أبو عبد الله محمد بن إبراهيم
	أبو محمد بن عبد العزيز بن أبي بكر
	أبو محمد عبد الخالق التونسي
	أبو الزهر ربيع بن ربيع الأنصاري البجائي[2]

ومن خلال ما سبق يمكننا تتبع السند الروحي لأبي مدين ولتلامذته من بعده.

[1]- أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ القسنطيني، ص28..36.

[2]- المصدر نفسه، ص36-101.

المطلب الثاني: السند الروحي لأبي مدين الغوث.

تستمر التعاليم الصوفية بفضل العلاقة بين الشيخ والمريد، فكل علاقة بين الشيخ والمريد تشكل حلقة في سلسلة تربط كل الطرق الصوفية الصحيحة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد تسمى "سلسلة البيعة" أو السلسلة بشجرة النسب (الشجرة الطيبة).[1]

والسند عند أهل الطرائق، يفيد معرفة الاتصال التربوي، الذي لا بد فيه من اتصال بين شيخ وآخر، كما يحدث عند رجال سند الحديث لأجل ثبوت عدم الانقطاع، فالتربية شيء عند الصوفية، وحصول المعنى (الفتح الذي هو وهبي لا كسبي) شيء آخر.[2]

والسند لأبي مدين الغوث -الذي سنلتزم بذكره هنا هو فقط- الذي ذكره ابن قنفذ في كتابه متصل بجده لأمه يوسف بن يعقوب البويوسفي متصل بمشيخته عن والده، من طريق أحد تلامذة أبي مدين وهو أبي مسعود بن عريف،[3] على النحو التالي:

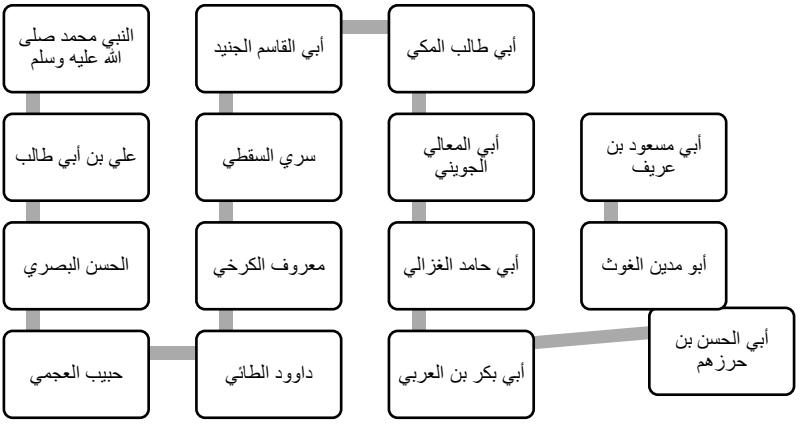

وبالبحث عن أسانيد الطرق الحالية نجد بعضها مستندا إلى أبي مدين الغوث كالشاذلية، فللإمام أبي حسن الشاذلي سندين مشهورين، أحدهما أنه تلقى عن شيخه

---

[1]- سند الطريقة، موقع School of Sufi Teaching مدرسة التربية الصوفية الطرق النقشبندية والمجددية والجشتية والقادرية والشاذلية،

://sufischool.org/ar/%D8%B3%D9%86%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B7%D8%B1%D9%8A%D9%82%D8%A9.html

تمت زيارة الموقع يوم، 2023/2/1، الساعة:11:22.

[2]- السند في الطريقة، موقع العمرية للتجديد الصوفي،

https://www.alomariya.org/choubahmotassawifa-1K ، تمت الزيارة: 2023/2/1، الساعة: 11:56.

[3]- أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ القسنطيني، ص42، 43.

محمد بن حرازم، عن محمد صالح بنصار، عن شعيب (أبى مدين الغوث)، كما يذكر لأبي مدين الغوث في هذه الطريقة سندين إضافة للسند أعلاه.[1]

المطلب الثالث: دور أبي مدين في نشر التصوف بالجزائر.

يظهر من خلال ما سبق المكانة المرموقة التي حظي بها الشيخ أبا مدين الغوث من خلال علمه وتعليمه، وكذا كراماته، وتلاميذه، فكما أسلفنا الذكر أنه قد خرج على يده ألف تلميذ وظهرت لكل واحد منهم الكرامة والبركة.

ويمكننا رصد نشر أبي مدين الغوث لتعاليم الصوفية من خلال تأثيره على تلاميذه ومن بعدهم، ومؤلفاته، وكذا من خلال رصد أسلوب ومنهج أبي مدين الغوث الجامع بين الحقيقة والشريعة، وإنزاله التصوف على المستوى الجماهيري.

أولا: من خلال تأثيره على تلاميذه ومن بعدهم:[2] المعروف أن أبا مدين رحمه الله كان منشغلا بالتربية والإفادة والتعليم والعبادة والإقبال على الله تعالى في الظاهر والباطن.[3]

ويمكننا التركيز على كل من عبد السلام بن مشيش (الامتداد للشاذلية)، وكذا محيي الدين بن عربي (سلطان العارفين)، وإلاّ فجلّ تلاميذه هم من العلماء الأكابر، ومن سادات الصوفية، فقد تخرج على يده ألف تلميذ وظهرت لكل واحد منهم الكرامة والبركة، كما أسلفنا الذكر.

وقد ذكر عبد المنعم القاسمي الحسني أن أبا مدين الغوث من أوائل من نشروا التصوف بالجزائر وأحد أوتاد الطرق الصوفية في الجزائر، وأن طريقته "المدينية" قد عرفت انتشارا واسعا وأتباعا كثيرين في مختلف أنحاء المغرب الإسلامي، وازدادت شهرة على يد تلميذه عبد السلام بن مشيش(ت665)، ثم ازدادت نشاطا وأحياها من بعده شيخ الطائفة أبو الحسن الشاذلي "تلميذ بن مشيش"، ولا يخفى الأثر الكبير للطريقة الشاذلية في التصوف الجزائري، إذ أن معظم الطرق التي ظهرت بعد القرن الثامن تتصل بصورة أو

---

[1]- للاستزادة فيما تعلق ببقية طرق الإسناد للشاذلية أو السندين لأبي مدين الغوث، يرجى النظر: سند الطريقة، موقع الصفحة الرسمية للعشيرة الموحدية،

https://alashiraalmohamadia.com/%D8%B3%D9%86%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B7%D8%B1%D9%8A%D9%82%D8%A9/

تمت الزيارة: 2023/2/1، الساعة: 15:40.

[2]- سبق ذكر أغلب تلاميذه في الجدول الخاص بإخوانه وأصحابه المستند إلى كتاب ابن قنفذ، التابع للمبحث الثاني، المطلب الأول: حياة أبي مدين الغوث.

[3]- أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ، ص17.

أخرى بها.[1]

كما كان تأثير أبي مدين في فكر وتصوف محي الدين بن عربي(ت638) جليا بالرغم من عدم اللقاء الجسدي بينهما، فمن مؤلفات ابن عربي التي يتردد فيها اسم أبي مدين لا توجد إشارة للقاء بينهما، على عكس الإشارة لأصحاب أبي مدين حين التقى بهم، ويظهر تأثره بأبي مدين في جزء هام من تصوفه "الجزء النظري والعملي" إذ فيه شرح للحكم الغوثية واقتفاء لأثر صاحبها وهو ما يفسر الاستشهاد والاستدلال الدائم لابن عربي بأقوال وسلوكات أبي مدين التي شكلت المنطلق المعرفي والعملي له.[2]

ثانيا: مؤلفاته: ويظهر انتشار فكر أبي مدين من خلال انتشار تراثه الفكري، فله كتب وأشعار.

نذكر من كتبه: أنس الوحيد ونزهة المريد في التصوف ويعرف أيضا بالحكم، وقد شرحه شهاب الدين أحمد بن عبد القادر بباعشن، وسماه "البيان والمزيد المشتمل على معاني التنزيه وحقائق التوحيد"، وطبع المتن مع هذا الشرح سنة 1300هـ. وكذا الحكم الغوثية، وقد شرحها أحمد بن إبراهيم بن علان الصديقي النقشبندي (ت1033هـ).[3]

أما من منظوماته نذكر: الجوهرة وهي منظومة رجزية في الوعظ، عدد أبياتها 103، مطلعها:

مقصورة سميتها بالجوهرة**مقْل لما شان الحجا من الصدا

توجد منها مخطوطة محفوظة في الخزانة الحسنية بالرباط، تحت رقم(6921) ضمن مجموع من ورقة 10أ، إلى13أ.[4]

كما ومن أكثر شعره انتشارا قصيدته التي قال في مطلعها:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء**هم السلاطين والسادة والأمراء

---

[1]- عن التصوف والصوفية في الجزائر مقاربة موضوعية، التصوف في الجزائر، عبد المنعم القاسمي، مدونة برج بن عزوز، https://albordj.blogspot.com/2010/02/1.html، تمت الزيارة: بتاريخ: 2023/1/2، الساعة: 20:25.

[2]- تأثير أبي مدين في فكر وتصوف محي الدين بن عربي، ساعد خميسي، مجلة العلوم الإنسانية، 13، 2000، ص144، 145.

[3]- شرح الحكم العطائية، عبد المجيد بن إبراهيم الشرنوبي، دار الكتب العلمية، 2018، ص13.

[4]- عنوان التوفيق في آداب الطريق، تاج الدين بن عطاء الله السكندري، ويليه أنس الوحيد ونزهة المريد، أبي مدين شعيب، تح خالد زهري، دار الكتب العلمية، لبنان، ص23، 24.

فاصحبهم وتأدب في مجالسهم**وخل حظك مهما خلفوك ورا

ولجمالها خمسها محيي الدين بن عربي ارشادا للسالكين.[1]

وغيرهم من الكتب والأشعار الداعية كلها إلى مسلك التصوف والاقتداء بالسنة السنية.

ثالثا: منهج وأسلوب أبي مدين: اتسم منهجه في الجمع بين الحقيقة والشريعة في تصويره لحقائق التوحيد ودقائق التفريد بحيث عقد ألسنة الطعن التي كانت تشكك في المتصوفة وما يفتحه الله على قلوبهم من معارف إلهامية، فأضفى على التصوف الطابع الذي يقره الفقهاء كي يحافظ على روحانية هذا الدين المشرقة،[2] فمن كلامه حسب ما نقله ابن قنفذ: "من رأيته يدعي مع الله تعالى حالا لا يكون على ظاهره وشاهد منه فاحذره"، كما قال: "لا يصلح سماع هذا العلم إلا لمن حصلت له أربعة: الزهد، العلم، التوكل، اليقين"[3]، وفي جمعه بين الزهد والعلم جمع بين الحقيقة والشريعة، في وجهيهما الباطني والظاهري، ومتى ما كانت تعاليم الدين الحق هي الأساس، زرع الله لمتعلمها ومعلمها القَبول على الأرض وبين الخلق، فهذه العوامل كانت مساهمة بشكل بارز في انتشار التصوف على يد أبي مدين الغوث، ومن بعده لتلاميذه.

رابعا: إنزاله التصوف على مستوى الجماهير: فبقدرته على هذا بعث في جسم الأمة الهامد روحا جديدة من النشاط والحيوية، فعمل على تقوية صلة الكثيرين بالله، وتذكيرهم بالآخرة وتوجيه هممهم للسعي إلى تهذيب أنفسهم وصولا لمقام الإحسان، وإفراد العبودية الخالصة لله عز وجل، ولم تعرف بلاد المغرب مربيا أو مرشدا حصل له من رجوع الناس إليه كما حصل لأبي مدين الغوث، فعادت بفضله نفحة من نفحات القرون الأولى، حتى إنه يستحق أن يدعى بمجدد علم السلوك والإحسان في القرن السادس الهجري، ولم يعرف مثل أصحابه في الاستقامة والصلابة في الدين واتباع السنة.[4]

---

[1]- معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1425، 2004، ج19، ص6368.

[2]- أبو مدين شعيب ومكانته في التصوف المغربي، فرحات عبد الوهاب، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 18، 1، 2003/2/15، ص88.

[3]- أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ، ص18.

[4]- أبو مدين شعيب ومكانته في التصوف الإسلامي، فرحات عبد الوهاب، ص85، 87.

خاتمة

وفي الختام توصلت من خلال هذه الورقة البحثية، ومن خلال الاطلاع على كتاب ابن قنفذ القسنطيني "أنس الفقير وعز الحقير" إلى جملة من النتائج، أجملها في نقاط رئيسية أهمها:

1-الدور الذي اضطلع به شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث في نشر التصوف في الجزائر بداية من تعلّمه وارتحاله من مكان لآخر للوصول إلى غايته المتمثلة في القرب من الله علما وعملا.

2-استقراره ببجاية ليتتلمذ على يده حوالي ألف شيخ، ليكونوا امتدادا لطريقته وتعاليمه الصوفية المستقاة من كتاب الله وسنة نبيه.

3-يظهر دوره في انتشار التصوف في الجزائر أيضا من خلال موروثه الفكري الذي خلفه نثرا كان أم شعرا، وكذا فتاويه ومجالسه التي يظهر من خلالها منهجه الجامع بين الحقيقة والشريعة، وطريقته المتمثلة في إنزال التصوف على مستوى الجماهير ليقوّي صلتهم بالله عز وجل.

قائمة المصادروالمراجع

- أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، عبد المنعم القاسمي الحسني، ط1، 1427هـ، دار الخليل القاسمي.
- أنس الفقير وعز الحقير، بن قنفذ القسنطيني، تصحيح: محمد الفاسي، أدولف فور، مطبعة اكدال، منشورات المركز الجامعي، الرباط.
- التشوق إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، أبو يعقوب يوسف بن يحيي التادلي، تحقيق: أحمد التوفيق، ط2، 1997، منشورات كلية الآداب بالرباط.
- ديوان أبي مدين شعيب الغوث، جمع: عبد القادر سعود، سليمان القرشي، كتاب، ناشرون، لبنان.
- شرح الحكم العطائية، عبد المجيد بن إبراهيم الشرنوبي، دار الكتب العلمية، 2018.
- شرف الطالب في أسنى المطالب، أبو العباس بن الخطيب بن قنفذ القسنطيني، تحقيق: عبد العزيز صغير دخان، ط1، 1424هـ، 2003م، مكتبة الرشد، السعودية.
- طبقات الأصوليين بعدوتي المغرب والأندلس، دار الأمان، الرباط، دار الكتب العلمية، لبنان.
- عنوان التوفيق في آداب الطريق، تاج الدين بن عطاء الله السكندري، ويليه أنس الوحيد ونزهة المريد، أبي مدين شعيب، تحقيق خالد زهري، دار الكتب العلمية، لبنان.
- قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الأصول والفقه بالطريقة، أبي العباس أحمد زروق، تحقيق وشرح: محمد إدريس طيب، كتاب، ناشرون، لبنان.
- معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1425هـ- 2004م، ج19.

- موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، رابح خدوسي وآخرون، ط1، 2014، منشورات الحضارة، الجزائر.

المقالات:

- تأثير أبي مدين في فكر وتصوف محيي الدين بن عربي، ساعد خميسي، مجلة العلوم الإنسانية، 13، 2000.
- أبو مدين شعيب ومكانته في التصوف المغربي، فرحات عبد الوهاب، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 18، 1، 2003/2/15.

مو اقع الانترنت:

- موقع School of Sufi Teaching مدرسة التربية الصوفية الطرق النقشبندية والمجددية والجشتية والقادرية والشاذلية،:-//sufischool.org/ar/%D8%B3%D9%86%D8%AF%D8%A7%D9%84%D8%B7%D8%B1%D9%8A%D9%82%D8%A9.html، تمت زيارة الموقع يوم، 2023/2/1، الساعة:11:22.
- موقع العمرية للتجديد الصوفي، https://www.alomariya.org/choubahmotassawifa-1K، تمت الزيارة: 2023/2/1، الساعة: 11:56.
- موقع الصفحة الرسمية للعشيرة الموحدية، https://alashiraalmohamadia.com/%D8%B3%D9%86%D8%AF%D8%A7%D9%84%D8%B7%D8%B1%D9%8A%D9%82%D8%A9/، تمت الزيارة: 2023/2/1، الساعة: 15:40.
- مدونة برج بن عزوز، https://albordj.blogspot.com/2010/02/1.html، تمت الزيارة: بتاريخ: 2023/1/2، الساعة: 20:25.

دور الزوايا والطرق الصوفية في الحفاظ على المرجعية الدينية والهوية الوطنية ومواجهة الاستعمار- منطقة وادي سوف أنموذجا -

ط.د/ مقيدش شامة، إشراف: أ. د/ عبد الرحمن تركي
كلية العلوم الإسلامية – جامعة الوادي
mekideche-chama@univ-eloued.dz

مقدمة

تعتبر وادي سوف من المحاضن القديمة للتصوف والصوفية في الجزائر، والمعاقل الكبرى للطريقة والطرقية، وذلك بفضل انتساب أكثر علمائها للتصوف والصوفية، كانت تلك المنطقة محورًا لانتشار وتمركز الفكر الصوفي بمختلف طرقه ومشاربه قبل الوجود العثماني والاحتلال الفرنسي إلى غاية القرن التاسع عشر والعشرين انتشرت فيها الزوايا التي تعنى بالتعليم وتحفيظ القرآن الكريم، وتعتبر منارات علمية وحصونًا دفاعية دينية، ومراكز إشعاع روحي لأهالي المنطقة والوافدين من تونس وليبيا ومختلف مناطق الجزائر.

وقد أسهم الشيوخ بشكل كبير في حفظ العقيدة في وادي سوف وذلك من خلال النشاط التعليمي الديني المتنوع الذي قامت عليه الزوايا التابعة للطرق الصوفية في المنطقة، فكان ترسيخ العقيدة الإسلامية ونشرها وحفظها من أهم الأهداف التي وجدت من أجلها الزوايا، وبذل لها الشيوخ جهودا جبارة داخل المنطقة، فهذا السعي للحفاظ على مقومات العقيدة مكنها لاحقا من الالتحاق بسهولة بصفوف المقاومة نتيجة للاستيعاب الدقيق للعقيدة وأبعادها، إذ يعتبر البعد الجهادي- الذي يقوم باسم الله والتوحيد- أهم ما تبنيه العقيدة الإسلامية في نفسية وفكر المسلم.

من خلال ما سبق يمكن طرح الإشكالية التالية:

كيف ساهم الفكر الصوفي في حفظ عقيدة التوحيد في منطقة وادي في القرن التاسع عشر والعشرين؟ وما هو دور شيوخ الصوفية في مواجهة السياسة الفرنسية عسكريا وثقافيا؟

من أجل الإجابة على الإشكالية، تم اتباع المنهج الوصفي الاستقرائي، ووضع الخطة البحثية التالية:

المحور الأول: الفكر الصوفي في وادي سوف.

المحور الثاني: دور التصوف في حفظ المرجعية الدينية والهوية الوطنية في وادي سوف
المحور الثالث: دور الطرق الصوفية في مواجهة الاستعمار في وادي سوف

المحور الأول: الفكر الصوفي في واد سوف

1-الواقع الثقافي في واد سوف

عرف المغرب العربي انتشارا واسعا للمراكز الثقافية بناء على الوسائل المتاحة ونوعية المربين؛ ويعود ذلك لفضل الحضارة العربية التي وصلت إلى المنطقة في قرون الهجرة الأولى. فقد شهدت المدن الكبرى للجزائر نشاطا ثقافيا داخليا، تمثل في تعريب جزء كبير من السكان في فترة حكم الدولة الحمادية، التي شجعت على الدخول الكامل للحركة الثقافية والفكرية. بالإضافة إلى النشاط الخارجي المتمثل في المواجهة بين الجو الثقافي المغربي والجو الثقافي الأندلسي. تمكنت هذه الحركة من فرض نفسها في المحيط المباشر في مناطق عديدة كانت قبل الاحتلال الفرنسي مراكز إشعاع تنطلق منها التوجيهات الخاصة بالممارسة السلمية للإسلام وأحسن الطرق للحوار والإثراء إذ يتم تدريس العلم فيها على أيدي رجال مثقفين وأتقياء مخلصين لمبادئهم.[1]

تميز الوضع الثقافي في وادي سوف بحركية علمية نشطة، نتيجة للتأثيرات الاجتماعية والثقافية التونسية من خلال الحدود المتاخمة للإقليم، وقد انعكس ذلك بشكل إيجابي على الحياة الثقافية في سوف، فكان أغلب رجال الطرق الصوفية يتوافدون على المنطقة من جهة الجريد التونسي فتشكلت روابط متنوعة بين العائلات السوفية والتونسية.

ومع ذلك، فإن الفرد في سوف لم يختلف عن أي فرد آخر في المجتمع الجزائري وسكان الجزائر بشكل عام. وذلك يرجع إلى أن بعض الطرق الصوفية أقامت صلات وروابط روحية بين سكان المنطقة وبقية الجزائر، من خلال إنشاء زوايا تابعه للزوايا الأم بسوف، مثل الطريقة القادرية والطريقة التجانية. والعلاقة القائمة بين زوايا طولقة الرحمانية مع الزاوية العزوزية الرحمانية في وادي سوف. وعلى هذا الأساس تتضح ملامح الوضع الثقافي لواد سوف المماثلة لباقي أرجاء الجزائر في مطلع القرن العشرين، ويتجلى هذا الوضع يتمثل

[1]-كمال بوشامة: **الجزائر أرض عقيدة وثقافة**، ت: محمد المعراجي، ط 1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2007، ص 58-59.

في وجود الطرق الصوفية[1]، والمساجد والمكتبات والمدارس التعليمية.[2]

والحق أن التمسك القوي بالدين ومبادئه لدى سكان وادي سوف، يعتبر من الحقائق التي يشهد بها كل من درس تاريخ المنطقة، أو عايش أهلها، فالكاتب الفرنسي "أندريه فوازان" يقول عن هذه الروح الدينية ""Les souafa sont des musulmans fervents "

وفي ذات السياق يقول ابن المنطقة الباحث أحمد نجاح

"Profondement pénetrée des principes de l'Islam la population du souf est très pratiquante

كما ذكر الدكتور نجاح في موضع آخر من كتابه بأنّ روح التدين المهيمنة على المجتمع السوفي كان لها آثار جلية ونافعة على المستوى الفكري والثقافي للسكان. ويعد التعليم أحد الروافد الأساسية المغذية للثقافة الدينية، ويتحقق التعليم الأقصى-لدى أهل سوف - عن طريق الالتحاق بجامع الزيتونة بالقطر التونسي الشقيق المجاور لوادي سوف. أما حدّه الأدنى فيتمثل في تحفيظ القرآن الكريم في المساجد والزوايا. وبالفعل لا يخلو حي من الأحياء من مدرسة قرآنية وذلك بسبب قدسية القرآن الكريم عند سكّان سوف، الذين يعدونه محور التعليم والتثقيف. فالطالب هو اللقب الذي يطلق على حافظ القرآن كما وكيفا، وقد تم تسجيل في بعض الفترات التاريخية أن واحدا من عشرة منهم يحفظون القرآن عن ظهر قلب، مقابل واحد من كل بقية مناطق الجزائر[3].ومن المعروف أيضا عن أهل سوف تعطشهم للعلم والتعلم وتحمسهم للمبادئ الإسلامية والحركات الوطنية، فلم تخل منطقتهم عبر تاريخها المديد من علماء وفقهاء ومصلحين، من بينهم عبد العزيز الشريف الذي عرف بتحديه للسلطات الفرنسية والذي ألب أهل سوف على نواب الوالي الفرنسي وأرادها ثورة في منطقة عسكرية.[4]

2-الطرق الصوفية في وادي سوف

يؤرَّخ عبد الرحمن الجيلاني لظهور الطرق الصوفية وتعددها وتفرعها إلى فروع عديدة

---

[1]- موسى بن موسى، **الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها 1900-1939**، مذكرة ماجستير، 2005-2006، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية، ص 78.

[2]- المرجع نفسه، ص 93.

[3]-كمال بن عمر، **الألغاز الشعبية في واد سوف، مذكرة ماجستير**، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2006-2007 ص 34.

[4]-إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ واد سوف**، ط1، منشورات تالة، الجزائر، 2007، ص 30.

بالجزائر ببداية القرن الثامن الهجري، وقد فاق عددها الثمانين طريقة، وتوجد في الجزائر من بين هذا العدد المذكور للطرق الصوفية؛ الرحمانية، والسنوسية، القادرية، التجانية، الطيبية، الشاذلية، العلاوية، الدرقاوية، العيساوية، العمارية، الحنصالية، الزيانية، الموساوية[1]، يقول عبد الرحمن الجيلالي نقلا عن دائرة المعارف الاسلامية أن أكثر هذه الطرق اتباعا في الجزائر هي الرحمانية التي تتفرع إلى عده فروع يمتد في نفوذها الى جميع أنحاء القطر، ثم تليها في الأهمية التجانية الذي يوجد مركزها في عين ماضي بالقرب من مدينه الأغواط ويليها القادرية وقد جاء في إحصائية 1939 أن مجموعة عدد المنخرطين في سلك الطريقة بالجزائر بلغ 400.000نسمة.[2]

ويمثل التصوف في المجتمعات الإسلامية إحدى المظاهر الراسخة منذ عهد السادة الصوفية القدامى في القرن الثاني الهجري، والذين عاشوا في بغداد وبلاد المشرق، وانتقلت أفكارهم ومعتقداتهم إلى بلاد المغرب الأوسط ومنها منطقة وادي سوف. كانت الطرق الصوفية إحدى الضرورات في المجتمع الجزائري، ولاسيما منذ العهد العثماني، واستمر ذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر، فعندما تمكنت السلطات الفرنسية من الاستقرار النهائي بوادي سوف 1882 كان المجتمع مهيكلا سياسيا، وموزعا حسب الطرق الصوفية المتواجدة يومئذ، وهي الطريقة التجانية والقادرية والرحمانية، وكلها بمثابة الأحزاب السياسية التي تتنازع البقاء والنفوذ، بينما تنتر دعوتها ونفوذها حسب مقدرة دعاتها والمعتقدين لها، وقلما تجد فردا في المجتمع بدون انتماء لتلك الطرق، لأن الشعار المرفوع آنذاك أن من لا شيخ له فالشيطان شيخه، ويستوي في ذلك الانتماء الجاهل والعالم، والمثقف والأمي، والطائع والمنحرف، وتكون صحبته لشيخ الطريقة حتى يطهر نفسه، ويصله بالله تعالى[3]، فالانتماء للطرق الصوفية والانضواء في صفوفها، يبعث على الفخر والاعتزاز لدى المجتمع ككل، لأن ممارسة الشعائر الدينية تقتضي –يومئذ-في المجتمعات المغربية عموما الاهتمام بعلم العقائد على مذهب الأشاعرة، وتعلم الفقه على مذهب مالك، والسير في طريق التصوف على منهج الجنيد.[4]

---

[1]- صلاح مؤيد العقبي، **الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر تاريخها ونشأتها**، دار البراق، بيروت، 2002، ص 132.

[2]- المرجع نفسه، ص 133-135.

[3]-علي غنابزية: **مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية**، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، 2008-2009، ص 62.

[4]- المرجع نفسه، ص 63.

لقد عرف المجتمع السوفي التصوف منذ عدة قرون من خلال الطرق الصوفية الشهيرة التي اشتهرت بكثرة أتباعها وانتشار زواياها، ومساهماتها في القضايا الاجتماعية والثقافية والسياسية،[1]وقد تجسد هذا البعد الديني منذ القرن التاسع عشر في الطرق الصوفية المتنوعة، حيث ينحصر أغلب مريديها في ثلاث طرق رئيسية وهي القادرية والتجانية، والعزوزية، وقد أقيمت لهذه الطرق عدة زوايا في مختلف أنحاء المنطقة، كما تواجدت إلى جانب هذه الطرق الرئيسية، طرقا أقل انتشارا وأقل مساهمة في مختلف القضايا الاجتماعية والثقافية والسياسية،[2] ولقد استمر مجتمع سوف يؤثر ويتأثر تبعا للعلاقات القائمة بين الزوايا بوادي سوف داخل البلاد وخارجها من خلال ارتباطهم بشيوخ الطرق خارج المنطقة. فنشاط الزوايا في منطقة سوف كان جزءا لا يتجزأ عن نشاط الزوايا في مختلف ربوع الجزائر هذا ما يعاكس قول بعض الغربيين الذين يزعمون أن نشاط الطرق الصوفية محلي[3]، وسيظهر هذا الارتباط والتواصل من خلال التعرف على دور منطقة واد سوف في إنجاح للثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي من خلال جهود الشيوخ في هذه المنطقة.

المحور الثاني: دور التصوف في حفظ العقيدة:

لشيوخ وأتباع بعض الطرق الصوفية المعروفة دور يذكر في مجال التعليم والمقاومة ضد الاستعمار مثل القادرية والسنوسية والرحمانية والدرقاوية. وهي الطرق التي قال بشأنها فقيد العروبة والاسلام الإمام عبد الحميد بن باديس نحن نريد إصلاحها لا هدمها[4]، فتاريخها يزخر بالبطولات والأمجاد، وهذا رغم انحراف بعض المنتسبين إليها أو المحسوبين عليها، الذين لم يلتزموا ولم يلزموا أنفسهم بالسير قدما في النهج القويم الذي سار عليه أسلافهم رضوان الله عليهم. بل غرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور، فحرفوا وبدلوا وغيروا فشوهوا بذلك وجه الطرق الصوفية المشرق تلك الطرق التي اعترف لها بالفضل المخلصون من المؤرخين والباحثين الذين لم يكن لهم من غرض سوى خدمه العلم والحقيقة.[5]

إن زوايا الطرق الصوفية كانت ولا تزال عاملا موحدا بين بلاد وشعوب العالم

---

[1]- المرجع السابق ص، 175

[2]-موسى بن موسى، **المرجع السابق، ص** 72.

[3]- المرجع نفسه، ص 78.

[4]- صلاح مؤيد العقبي، **المرجع السابق**، ص 138.

[5]-المرجع نفسه، ص 139.

الاسلامي عامة وشعوب البلاد المغاربية خاصة، لأن انتشارها لا يعرف حدودا إدارية، ولأنه أكسب هذه البلدان ثقافه مشتركه تسمح على الأقل بالإحساس وبالتواصل وبوحدة الانتماء، ولعبت دورا اجتماعيا وتربويا كبيرا في حياة المجتمعات وخاصة في الجزائر، و مما يعرف عنهم أنهم قوم اجتماعيون يهدفون إلى بناء حياة سعيدة للفرد في الدنيا والأخرة، فاذا نظرنا من الناحية الاجتماعية، فنجد أن زوايا الطرق الصوفية في الجزائر عملت على إزاله الخلافات بين مختلفات المجتمع و بين العشائر والقبائل، كما قدمت دورا اجتماعيا تمثل في إيواء العجزة والمساكين والغرباء وليكون بذلك الشيخ الذي يترأس أو يمثل الزاوية أو الطريقة هو بمثابه المسؤول والحاكم بين أفراد المجتمع ويفصل في جميع القضايا والخلافات الاجتماعية، بالإضافة إلى الدور التربوي الذي يقدمه كذلك من تعليم لسكان وهذا ما جلب له تأييده الطاعة المطلقة.[1]

ولقد شهدت منطقة الجنوب الجزائري هذه الأدوار الاجتماعية والتعليمية التي مثلتها زوايا الطرق المنتشرة فيها، وفي هذا الصدد، يقول أبو القاسم سعد الله: أنها مناطق غنية بتراثها العلمي والديني، وغنية بعلمائها، ومؤلفيها، وبزواياها، ونظمها وكذلك غنيه بآثارها ومكتباتها، ولكن البحث في ذلك ما يزال ضعيفا ولم يهتم بها إلا الأجانب رحاله ومستكشفين، وحكاما ودارسين، ومبشرين وجواسيس وتجار، وقد اشتهر بعضها بالدين والتصوف مثل وقمار وعميش والهامل وطولقة، والبيض، واشتهر بعضها بالكتب والعلم مثل توات.[2]

إن ما نركز عليه بقولنا دور الطرق الصوفية في حماية العقيدة هو ظاهرة الزوايا التعليمية التابعة للطرق المعتدلة التي لا تتبع مسار الشعوذة والبدع والانحراف عن العقيدة الصحيحة، والتي رحبت بالفكر الإصلاحي، وتمسكت بالحق وساهمت في نشر العقيدة ومواجهة الاستعمار الفرنسي، وقد اتخذت جمعية علماء المسلمين موقفا حازما ضد بعض الطرق وممارستها الدينية والسياسية إذ سجلت ضدها بعض المآخذ، مما جعلها تتعرض في النصف الأول من هذا القرن لانتقاد الحركة الدينية الإصلاحية التي حاول رجالها اقتلاع بعض هذه المعتقدات من أذهان الناس، أو تجريدها من كثير من مظاهرها، معتمدين على نصوص القرآن والسنة في محاربة ما أسموه "البدع والخرافات

---

[1]- علي غنابزية: **مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية**، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، 2008-2009، ص 9.

[2]-أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1998، ج 3، ص 214.

والخزعبلات"، إذ أنهم يعدونها خروجا عن العقيدة الإسلامية[1]، وكان هذا من منطلق الخوف على الأمة لأنها تشكل في نظرهم خطرا ينبغي التنبيه إليه.[2]

وبهذه الخطوة من جمعية علماء المسلمين، بدأت العلاقة بين الطرق الصوفية والفكر الإصلاحي تتكون بمساهمة من شيوخ الطرق الذين قبلوا الإصلاحات، وقد امتد الفكر الإصلاحي إلى واد سوف أيضا من عدة طرق أحدها عن طريق جمعية العلماء، والآخر تبلور عند أبنائها في رحاب جامع الزيتونة، أو أثناء الاحتكاك بالعلماء الذين يمرون بالمنطقة، في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وأغلب هؤلاء العلماء ينحدرون من أصول صوفية، ومن أتباع مؤسسي الطرق الذين أخذوا بأطراف الفكر الإصلاحي وتفتحوا على العلوم، ومما يعرف عن علماء سوف أنهم يوصون تلاميذهم بالاقتراب من شيوخ جامع الزيتونة، الذين يتوسمون فيهم البعد الروحي والتربية السلوكية، مثل الشيخ إبراهيم العوامر الذي أوصى تلميذه "حمزة بوكوشة" بملازمة "الشيخ بن يوسف" في تونس فقرأ عليه ما تعلمه عن شيخه في واد سوف جوهرة التوحيد، ومختصر البخاري لابن أبي جمرة.[3]

إن أهم ما قامت به الزوايا هو المحافظة على القرآن الكريم، وتحفيظه وحفظه في صدور أبناء المسلمين، كتابة ورسما وتلاوة وتجويدا، حتى لا تمتد إليه يد التحريف، وجعلته يتلى في الصباح والمساء في المساجد والبيوت فردا وجماعه[4]، فتعليم القرآن كان ظاهرة اشتركت فيها معظم الزوايا حتى تلك التي لا تتخذ من التعليم وسيله للعيش أو التقرب إلى الله.[5] فمن خلال التعليم استطاعت الزوايا أن تكسب ثقة الجماهير.[6]

وهذا ما كان عليه علماء واد سوف، يعلمون أبناء المنطقة المبادئ الأولية في اللغة والدين، كالشيخ "اللقاني" بالزاوية التجانية في قمار حدود 1923، والشيخ "محمد بن حمد النفطي"، في الزاوية القادرية بالوادي، والشيخ "الطاهر العبيدي" المدرس بزاوية سيدي

---

[1]-كمال بن عمر المرجع السابق، ص 36.

[2]-على غنابزية، **مجتمع وادي سوف**، ص 66

[3]- المرجع نفسه، ص 63.

[4]- الطيب جاب الله، **دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري**، مجلة معارف، المجلد 8، العدد 14، 2013/6/1، ص10

[5]-أبو القاسم سعد الله، **المرجع السابق**، ص 214.

[6]-ألفرد بل، **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم**، ت: عبد الرحمن بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي ص، 405

سالم الرحمانية بمدينة الوادي، كما بذل الشيخ "عمار بن الأزعر" جهودا قيمة في تدريس تلاميذ البلدة سنة 1924، حيث سعى في دروسه لاستخدام أسلوب لطيف ونشر أفكاره الإصلاحية بحكمة وحذر، كما ساهمت زاوية سيدي سالم العزوزية في تخريج جيل متمكن من القرآن الكريم، وكذلك الشأن لبقية الزوايا القادرية والتجانية بكل فروعها، كما كانت الرحال تشد إلى زاوية سيدي المولدي القادرية بتوزر للتمكن من حفظ القرآن قبل الدخول لجامع الزيتونة، إن هذا النشاط التعليمي لشيوخ الزوايا جعل من وادي سوف خزانا لمعلمي القرآن الذين انتشروا في شمال الجزائر وجنوبها، وتعدى نشاطهم التعليمي حدود الجزائر إلى أحياء الجالية الجزائرية في تونس.[1]

لم يكتف شيخ التصوف بتعليم القرآن والعربية فقط، فمنهم من أنشأ منتديات تناقش التعليم الفرنسي وخطورته على عقيدة المسلم، كما فعل الشيخ إبراهيم العوامر الذي درس للسكان كتاب الشيخ يوسف النبهاني "إرشاد الحيارى وتحذير المسلمين من تعليم أولادهم في مدارس النصارى"، وكان ذلك نتيجة للخوف من اضمحلال اللغة العربية بعد فتح مدارس فرنسية في وادي سوف، فضلا عن تأثيرها على القيم الدينية، وقد علق بوكوشة مدافعا عن موقفه من رفض المدرسة الفرنسية بقوله أنها من المتشابهات التي وجب تجنبها والحذر منها. [2]

كما لعبت الزاوية العزوزية دورا مهما في تعليم القرآن، وأصبحت مقصدا للطلبة من كامل وادي سوف، وتعدى تأثيرها لمناطق أوسع إذ بلغت بلاد النمامشة ووادي ريغ، وطلبة الزاب الشرقي وتقرت وتماسين، بالإضافة إلى ذلك كانت الزاوية محل استقطاب الطلبة من أقطار المغرب العربي ومصر ومن أهل العلم والصلاح فنجد الشيخ إبراهيم البختري التونسي، والشيخ محمد بن حمد النفطي، من علماء الجريد، والشيخ العروسي بن عزوز، والشيخ المكي بن عزوز، والشيخ الخضر بن الحسين.[3]

إن الوضع الثقافي الذي كانت تعيشه وادي سوف جعلها تتميز بأدوار هامة من خلال المساهمة في الإصلاح، وهذا تجاوبا مع رفع راية التعليم ومسايرة الظروف التي كانت تعيشها البلدان الإسلامية. فلم تكن هذه المنطقة بعيدة هذه الظروف مما دفع العديد من أبنائها

---

[1]-علي غنابزية، **مجتمع وادي سوف**، ص 64.

[2]-المرجع نفسه، ص 117.

[3]- الجباري عثماني، **التراث المخطوط بخزائن الطرق الصوفية في واد سوف، زاوية سيدي سالم العزوزية أنموذجا**، مجلة الذاكرة، المجلد 2، العدد 2، 2014/12/17، ص 11.

للسعي لطلب العلم، فقد لقي التعليم قبولا واسعا لدى الآباء والبنين لكونهم ذوي شغف للتعلم، وهذا كان سببا مساعدا في انتشار المدارس والكتاتيب،[1] إذ يمثل التعلم الديني أحد الروافد الأساسية المغذية للثقافة الدينية، حيث تحققت أقصى درجاته لدى سكان وادي سوف من خلال الالتحاق بجامع الزيتونة، أما حده الأدنى فهو حفظ القرآن الكريم في المساجد والزوايا، فقدسية القرآن الكريم متمركزة في فكر سكان سوف الذين يعدونه محور التعليم والتثقيف. [2]

وبالانتقال إلى جانب آخر من مساهمة الفكر الصوفي في الحفاظ على العقيدة في مدينة وادي سوف ونشرها من خلال البحث في سياسة المستعمر في الاحتلال الثقافي، نجد أن الاستعمار الفرنسي حارب الثقافة الوطنية عن طريق محاربة اللغة العربية التي تعتبر وعاء لهذه الثقافة، فالقضاء عليها يمكن من القضاء على الهوية العربية والدينية للشخصية الجزائرية، وفي إطار تنفيذ هذه السياسات قام الاحتلال بمطاردة اللغة العربية في كل المجالات والأماكن بما في ذلك مراكز الإشعاع الثقافية العربية التي تتمثل في المدارس والزوايا.[3] ومع ذلك، فإن هذه الزوايا لم تستلم للسياسة الفرنسية الجائرة وسخرت كل الوسائل المتاحة للحفاظ على اللغة العربية وتدريسها.

بناء على ما تم تناوله في أخبار منطقة واد سوف ومساهمة الفكر الصوفي-الذي يحكمه الكتاب والسنة -في حفظ عقيدة التوحيد ونشرها، يمكننا القول أن هذه المنطقة كانت رافدا علميا ومنطقة عبور واتصال للعلماء المتنقلين من الجزائر لتونس أو العكس، ونشاطها لا يختلف عن نشاط مختلف الزوايا المعتدلة في أنحاء الجزائر والعالم الإسلامي، وأبرز ما قدمته للمجتمع في حفظ الدين والعقيدة يتمثل في ما يلي:

1-تعليم القرآن وعلومه بجعله مادة رئيسية في برنامج التعليم قبل وبعد الاستعمار، وتدريس المتون المتعلقة بالعبادات والمعاملات، وفتح هياكل الزوايا لدروس العلماء، لتدريس الفقه والحديث النبوي[4].

2-تصحيح العقيدة وتوجيه الناس لممارسة الشعائر الدينية بناء على معرفة علمية

---

[1]-موسى بن موسى، **الحركة الوطنية بوادي سوف**، ص 133.

[2]-كمال بن عمر، المرجع السابق، ص 34.

[3]- الجباري عثماني، **التراث المخطوط بخزائن الطرق الصوفية في واد سوف**، زاوية سيدي سالم العزوزية أنموذجا، مجلة الذاكرة، المجلد 2، العدد 2، 2014/12/17 ص37.

[4]-علي غنابزية، **مجتمع وادي سوف**، ص 67.

متينة، والمحافظة على السنة ومحاربة البدع[1].

3-مواجهة سياسة الفرنسة المطبقة بتعليم اللغة العربية وعلومها، من نحو وبلاغة وصرف، وذلك باعتبار اللغة العربية لسان الإسلام، وانتماء ثقافي وحضاري ومقوم للشخصية الوطنية الرافضة للاستعمار. فكان هدف الزوايا عن قصد أو غير قصد المحافظة على مقومات الشخصية الوطنية، ولذلك اتجه التعليم اتجاها لغويا ودينيا بالدرجة الأولى، لأن القضية الأساسية على مستوى الوطن الوقوف ضد سياسة المستعمر، وقد نجحت الزوايا نجاحا كبيرا في تحقيق هذا المقوم الأساسي في الشخصية الجزائرية.[2]

4-الحفاظ على الدين بمواجهة سياسة التنصير، التي حاولت فرنسا تطبيقها على المجتمع الجزائري بإحلال المسيحية محل الإسلام الذي يمثل أهم مقوم من مقومات الشخصية الوطنية، فقد شكلت الزوايا حصونا للعقيدة والإيمان، وتعليم الدين ونشره، وفهم القرآن وما يتصل به من علوم التشريع والأخلاق، والعقائد والتفسير والحديث إلى غير ذلك، وبذلك حافظت الزوايا على مبادئ الشخصية العربية الإسلامية.[3]

وعليه يمكن القول أن الميدان الثقافي في واد سوف شهد محاولات مستمرة لتعزيز الثقافة العربية المتأصلة في أبناء واد سوف، حيث انطلقت هذه المحاولات من دور المساجد والطرق الصوفية والزوايا التابعة لها، خاصة الدور الذي لعبته كل من الطريقة القادرية والرحمانية في إرسال بعثات دراسية للجنوب التونسي بمنطقة الجريد على حسابها الخاص، في حين جعلت الطريقة التجانية زاويتها مقرا للعماء والمؤدبين، وخاصة العلماء الوافدين من تونس،[4] فهذه الظروف المتظافرة والمتواشجة ساهمت في إيجاد وضع ثقافي متميز في حفاظه عن التوحيد ونشر مبادئ العقيدة الصحيحة وخاصة بعد تأثر العديد من الشيوخ المحافظين بالحركة الإصلاحية، مما جعلهم يناهضون بعض الأوضاع السائدة كالخرافة والبدع والتي كانت تنتشر بشكل واسع في قاعدة المريدين.

---

[1]-عبد الله زروقي، **الطرق الصوفية ومنطلقاتها الفكرية بمنطقة توات، أطروحة دكتوراه**، 2016-2017، ص117.

[2]- عبد العزيز الشهي، المرجع السابق، ص 39.

[3]- المرجع نفسه، 41-43.

[4]-موسى بن موسى، المرجع السابق، ص 200.

المحور الثالث: دور الطرق الصوفية في واد سوف في مواجهة الاستعمار سياسيا

تعتبر منطقه وادي سوف إحدى مدن الجنوب الشرقي للجزائر التي كانت خارج نطاق الغزو أثناء الهجمة الفرنسية على الجزائر، فقد تأخرت جحافل القوات الفرنسية عنها مؤقتا ريثما تتوفر الظروف المناسبة لغزوها، ومع ذلك، حافظت منطقة وادي سوف على سلوكها الثوري في دعم المقاومة والمشاركة فيها بشتى الطرق، واستغلت موروثها القديم في إيواء المظلومين وتضامنت مع أصحاب القضايا السياسية. قدمت لهم اللجوء السياسي وأصبحت الأمن والملجأ الحصين الذي يحمي الوافدين الذين اندمجوا بعفوية في المجتمع، وصارت من عناصره الأساسية ممثلة قسما من قبائله التي ساهمت في صنع تاريخه، وحملت لواء المقاومة والجهات ووقفت مقاومة في وجه الاستعمار الزاحف نحو الجنوب، وقدمت الدعم المادي والبشري لقوى المقاومة الشعبية منذ الأمير عبد القادر وخلفائه في منطقه الزيبان، واستمر نشاطها بعد احتلال بسكرة سنه 1844، وحينها أدركت وادي سوف وجارتها واد ريغ أن الدائرة قريبا تكون قريبا من حماهم الآن وأدركوا مسعى السلطات الفرنسية في مقاطعه قسنطينة والجهود المكثفة لاستكمال الاحتلال لبقيه الفضاء الصحراوي.[1]

لقد كان للفكر الصوفي الحظ الأوفر في فترة بناء الوعي الوطني، حيث ساهم أتباع العديد من الطرق الصوفية وشيوخها في مجال التعليم والمقاومة ضد المستعمر مثل القادرية والسنوسية والرحمانية والدرقاوية،[2] في التأكيد على الثوابت الدينية والوطنية، كالعروبة والإسلام والوحدة الوطنية، فقد استطاع التيار الصوفي جمع عدد معتبر من الأنصار المتشبعين بالوطنية والقيم الجهادية، والذي سهل على الحركة الوطنية استقطابهم إلى العمل الوطني، كما وقع في تجربة الشيخ عبد العزيز الشريف مع أتباع الطريقة القادرية، فقد عمل على تسييرهم في ركاب الحركة الإصلاحية، وكذلك الشأن عندما انطلقت الثورة التحريرية، فقد تم تجنيد العديد من مريديه وتلاميذه واتباعه الذين لبوا النداء بمحض إرادتهم؛ لأن الدافع لخدمة وطنهم متأصل في نفوسهم، ونابع من عقيدة متأصلة تنتظر فرصة للانفجار بعد سكون مكث على النفوس بسبب الهدوء الذي ساد الساحة الصوفية القديمة.[3]

---

[1]-علي غنابزية، **دوروادي سوف في معركة المقارين 1854، و أثارها على المقاومة المسلحة في المنطقة الشرقية**، مجلة الباحث، العدد 1، 2010/06/30، ص 1.

[2]- صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 138.

[3]-علي غنابزية، **مجتمع وادي سوف**، ص 70.

كانت الزوايا إحدى أهم النقاط التي انشغل بها الاستعمار الفرنسي نتيجة للدور الوطني الذي مثلته هذه المؤسسة قبل وخلال الثورة التحريرية، علاوة على كونها تلقن تعاليم الدين الإسلامي فإن أئمتها آنذاك كانوا حلقه مهمه في ثورتهم ضد المستعمر، وذلك بإعداد الطلبة لخدمة القضية الوطنية حيث التحق العديد من طلبه الزوايا بصفوف الثوار، وأمام هذا الدور الكبير للزوايا لم يتردد الاستعمار في تدمير أغلبيتها وغلق عدد آخر منها وتحويل عدد آخر إلى ثكنات عسكريه تابعه للجيش الفرنسي، كما ذاق مشايخ الزوايا أقصى أنواع التعذيب ووصل الأمر إلى إعدام بعضهم، ورغم ذلك لم يستطع الحد من نشاطها مما جعل الأبواب مغلقه في وجهه، ولم يجد منفذ يتسرب منه إلى داخل الأمة المعتصمة بالقرآن والمتمسكة بالإسلام، وفكر مرة أخرى كعادته في ضرب زاوية القرآن والثقافة الإسلامية، وعمل على طمسها وتشويه سمعتها ثم القضاء عليها بطرق الحيل والدس والمكر والخداع، فاستولى أولا على أموال الأوقاف والأحباس وقطع عنها كل موارد الرزق وجميع المساعدات ظنا منه أنه بهذه الطريقة سيقضي عليها[1].

كانت هذه الزوايا المصدر الرئيسي الذي مون الثورة، بالمجاهدين فبعض الزوايا جندت جل أعضائها للجهاد بحيث كانت مركزا استراتيجيا، فالزوايا على اختلاف طرقها من الرحمانية إلى التيجانية إلى القادرية، كلها كانت تصب في وعاء واحد وهو الحفاظ على مقومات الأمة الجزائرية، عكس ما كان يعتبره بعض المؤرخين أن حركة الإخوان حرب دينية مبنية على التعصب الديني والعرق، وكان يقصد بذلك حركة الإخوان الرحمانيين آنذاك ونشاطهم، وامتداد ثورتهم إلى كل المناطق تقريبا والقبائل الشمالية من الجزائر العاصمة إلى القل وجيجل وباتنة، وحصار مراكز الفرنسيين وقلاعهم في بجاية، ودلس، وتيزي وزو من 1263 إلى 1865، الأمر الذي أصبح يشكل خطرا كبيرا على فرنسا، حيث أدركت أن ما يقوم به الإخوان الرحمانيين الذين استطاعوا خلال مدة زمنية قصيرة تكوين جيش يمثل أكثر من 120،000 مجاهد ينتمون إلى 250 قبيله تتألف من 600،000 نسمة، ليس من قبيل الشعوذة أو التعصب الديني، وإعلان شيوخ الزوايا وأتباعهم للجهاد لا يمثل حدثا دينيا فقط وإنما يتجاوز ذلك إلى غرض سياسي يستهدف خدمة مصالح الشعب المادية والمعنوية.

لقد كان وراء هذه الثورات شبكة تابعة للزوايا التي ينتشر أتباعها وخلاياها في أنحاء الجزائر،[2] فمنطقة وادي سوف هي واحدة من أكثر المناطق مقاومة للاستعمار ومحلا

---

[1]- الطيب جاب الله، **المرجع السابق**، ص 10.

[2]- **المرجع نفسه**، ص10.

لرجال المقاومة، على الرغم من أحداث الاضطهاد التي عاشتها لسنوات عديدة، فالوجود الاستعماري بالنسبة لها خطرا جسيما يهدد العقيدة والدين والوحدة الوطنية.[1]

ومن أجل الحفاظ على الوحدة الوطنية بذل التيار الصوفي دورا هاما في تجميع الحركة الوطنية في الفترة الممتدة من 1900 حتى 1945، وتعتبر تجربة عائلة إبراهيم بن أحمد الشريف مع أتباع الطريقة القادرية أفضل مثال يبين مدى تفاعل التيار الصوفي مع الاستعمار الفرنسي، بالرفض والمقاومة وتجنيد أعداد من هذا التيار في المنطقة لتلبية نداء الثورة التحريرية[2]، حيث لعبت شخصية الشيخ إبراهيم بن أحمد دورا هاما في مواجهة الاستعمار الفرنسي، بل انتقلت روح الجهاد إلى ابنه محمد الهاشمي الذي يعتبر أشهر أبنائه وهو شيخ الطريقة القادرية بسوف، فقد اعتبره الفرنسيون شخصية جذابة متعبة وذلك نظرا لأدواره السياسية، فقد جهز حملة عسكرية مؤلفة من حوالي 300 فارس بقيادة ابن أخيه محمد الأمين بن الشيخ محمد الإمام وتوجه نحو ليبيا لمواجهة الاحتلال الإيطالي، وقد استطاع تجنيد الكثير من الأتباع خلال الحرب العالمية الأولى، ومن أهم انتفاضاته "هدة عميش"[3] التي خلدها شاعر الثورة مفدي زكرياء في الإلياذة:

ويا وادي سوف العرين الأمين.....ومعقل أبطالنا الثائرين
ودرب السلاح لأوراسنا.....وقد ضاقت السبل بالسالكين
وضرغامها الهاشمي الشريف.....يذيق "بواز" العذاب المهين
وكم كان سوف لضم الصفوف.....وجمع الشتات الحريص الضمين.[4]

تعتبر عائلة إبراهيم الشريف عائلة ثورية بامتياز فقد واصل الشيخ عبد العزيز المسيرة الجهادية، وقد كانت للإدارة الفرنسية موقفا ضده بعد تمكنه يوم 1938/4/12 من جمع حوالي 12000 متظاهر، أمام مقر الحاكم العسكري وذلك للتعبير عن مطالبهم أمام مدير الشؤون الأهلية بالوادي، فكانت مطالب الشيخ تتمثل المطالبة بوقف تدخل الإدارة الفرنسية في الشؤون الدينية للأهالي، ووقف كل أنواع الاضطهاد الممارسة ضد المساجد والمدارس العربية الحرة،[5]على إثر هذا الحدث تم اعتقال الشيخ بتاريخ

---

[1]-علي غنابزية، **مجتمع وادي سوف**، ص 116.

[2]-علي غنابزية، **مجتمع وادي سوف**، ص 71.

[3]-عاشوري قمعون: **دور عائلة الشيخ إبراهيم بن احمد الشريف في الحركة الوطنية**، مجلة البحوث والدراسات، العدد الثالث، جوان 2006، ص79.

[4]-مفدي زكرياء، **إلياذة الجزائر**، طبعة الجزائر 1998، ص 76.

[5]عاشوري قمعون، **المرجع السابق**، ص 80

1938/4/18، وقد وصف ابن باديس الحدث بالكارثة في جريدة البصائر عدد 121 بتاريخ 1938/07/08، كانت رحلة الاعتقال والسجن والنفي ممتدة بين 1938 إلى غاية 1965 أين وافته المنية بتونس.[1]

وهذا عكس العديد من الطرق الصوفية التي تعاملت مع الاستعمار من منطلق المصالح المشتركة، والمنافع المتبادلة وخصوصا في نهاية القرن التاسع عشر، فالمستعمر كان يبحث عن وسيلة تساعده على بسط نفوذه في منطقة الجنوب، فوجدت الطريقة التيجانية والقادرية خير معين والمقابل هو تذليل الصعاب للطرق الصوفية، وتمكينها من المحافظة على مصالحها المادية والسماح لها بالتدريس وتوسيع مجالها، مما دفع إلى التغاضي عن السياسة الاستعمارية التي تضر بعموم الأمة، فالتحليل المنطقي لهذه المواقف يجعل تلك المواقف نوعا من الخنوع والاستكانة، والدعم الظاهر للسياسة التوسعية الاستعمارية، إلا أن الشيخ ابن باديس يصنف التيار الصوفي إلى فئتين، فيدين الشيوخ لأنهم مصدر المواقف، ويبرئ العامة المستقلين.[2]

خاتمة

من خلال ما تم تبيينه سابقا نصل إلى النتائج التالية:

1-تعتبر وادي سوف من أهم المناطق الجنوبية الجزائرية التي شهدت انتشارا واسعا للفكر الصوفي والطرقية والزوايا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، مشكّلة بذلك منارات ومراكز تعليم ديني، كما احتفظت بريادتها في استقطاب رجال العلم من المتصوفة من مختلف المناطق الجزائرية، فما انتشر فيها من تصوف هو امتداد للفكر الصوفي في المغرب العربي والعالم الإسلامي، فتميز شيوخها وعلمائها جعل المنطقة مركزا تشد إليه الرحلات العلمية وتعقد فيها المناظرات والمنتديات التي تناقش القضايا الدينية الراهنة آنذاك وما تعلق بها من قضايا اجتماعية وسياسية تخص المنطقة والجزائر خصوصا والعالم الإسلامي عموما.

2-ساهمت الطرق الصوفية والفكر الصوفي عموما في وادي سوف في الحفاظ على الهوية الوطنية المتمثلة في الإسلام واللغة العربية والوحدة. ولقد لعب هذا الفكر دورًا بارزًا في مواجهة الاستعمار من خلال نشاط شيوخ الزوايا في المجال الديني والسياسي والتعليمي. وقد اعتمدوا في ذلك على نفس المنهج المتبع من قِبَل الطرق الصوفية في الجزائر، وهو

[1]-عاشوري قمعون، **المرجع السابق**، ص 84.

[2]-علي غنابزية، **المرجع السابق**، ص 67.

المنهج المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فقد كان التعليم إحدى الوظائف الأساسية للزوايا، إضافة إلى صناعة الوعي الثوري والجهادي بين صفوف الأهالي والمتعلمين.

3- على الرغم من الدور الذي لعبته منطقة وادي سوف في نشر العقيدة والحفاظ عليها ضد المستعمر ومقاومته، وعلى الرغم من ثقلها الثقافي ومساهماتها في نشر العلم واستقبال المتعلمين خاصة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، إلا أن المنطقة لم تحظ بالاهتمام الكافي من طرف الباحثين والمؤرخين، فالجهود المبذولة لحد اللحظة لا تغطي كل المساهمات وخاصة فيما تعلق بدور الفكر الصوفي- المتمثل في الزوايا والشيوخ والطرقية -في الحفاظ على الهوية الوطنية، فلم يقتصر تأثيرها على الصعيد المحلي بل كانت مدينة وادي سوف على اتصال دائم بالقضايا الأساسية التي تهم الجزائر والأمة الإسلامية والعالمية وهذا بفضل حرص شيوخها وعلمائها على صناعة الوعي، وهذا ما يدفعنا للتوصية بالتعمق في الفكر الصوفي في المنطقة ومختلف مساهماته، وتقييمه ونقده نظريا وعمليا، من خلال الوصول إلى تراثه المكتوب الذي لا يزال يقبع في الزوايا دون تحقيق ونشر.

قائمة المصادروالمراجع

- كمال بوشامة، الجزائر أرض عقيدة وثقافة، ت: محمد المعراجي، ط 1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2007.
- موسى بن موسى، الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها 1900 1939، مذكرة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية. 2005-2006.
- كمال بن عمر، الألغاز الشعبية في واد سوف، مذكرة ماجستير، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2006-2007.
- إبراهيم العوامر، الصروف في تاريخ واد سوف، ط1، منشورات تالة، الجزائر، 4،2007
- صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر تاريخها ونشأتها، دار البراق، بيروت، 2002.
- علي غنابزية، مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، 2008-2009.
- الطيب جاب الله، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائر، مجلة معارف، المجلد 8، العدد 14، 2013/6/1.
- ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ت: عبد الرحمن بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي.

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، دار الغرب الإسلامي،1998، ج3.
- الجباري عثماني، التراث المخطوط بخزائن الطرق الصوفية في واد سوف، زاوية سيدي سالم العزوزية أنموذجا، مجلة الذاكرة، المجلد 2، العدد 2، 2014/12/17
- عبد الله زروقي، الطرق الصوفية ومنطلقاتها الفكرية بمنطقة توات، أطروحة دكتوراه، 2016-2017.
- علي غنابزية، دور وادي سوف في معركة المقارين 1854، وأثارها على المقاومة المسلحة في المنطقة الشرقية، مجلة الباحث، العدد 1، 2010/06/30.
- عاشوري قمعون، دور عائلة الشيخ إبراهيم بن احمد الشريف في الحركة الوطنية، مجلة البحوث والدراسات، العدد الثالث، جوان 2006.
- مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، طبعة الجزائر 1998.

جهود الشيخ محمد العيد التجاني في خدمة الطريقة التجانية

ط.د/ سمية بن بردي ، إشراف: د/ أحمد عامر باي
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي
Soumaia-benbordi@univ-eloued.dz

مقدمة

لقد أسهمت الزاوية التجانية طيلة الحقبة الاستعمارية في الحفاظ على الهوية الدينية واللغوية، وكذا الحضارية للشعب الجزائري؛ حيث كانت منبعا تربويا وروحيا استقت منه الأسرة الجزائرية آنذاك مقوماتها في التعامل مع ثقافة المستعمر كغيرها من الزاويا العلمية.

أما اليوم وفي ظل التغيرات التي طرأت على المجتمع الجزائري، وما تشهده الأسرة من تصدعات وأزمات خاصة مع التطورات الحاصلة على التواصل الاجتماعي، تحاول الزاوية التماسينية بصفتها مؤسسة دينية روحية واجتماعية أن تقرأ الراهن الاجتماعي قراءة واعية دقيقة، وذلك بفضل مشيختها المتمثلة في الأستاذ الدكتور محمد العيد التجاني الذي سعى منذ توليه زمام الزاوية سنة 2000م إلى تجديد خطابها التربوي بما يتوافق مع متطلبات العصر، وأن يسهم في توجيه الأسرة وإرشادها بما يمكنها من مجابهة التحديات، والحفاظ على قيمها الأصيلة، والمعطيات التي تفرضها العولمة والتكنولوجيا المعاصرة.

من خلال ما سبق، نحاول في هذه المداخلة الإجابة عن الإشكالية الآتية: ما جهود الشيخ محمد العيد التجاني التي قام بها في خدمة الطريقة التجانية؟ وبصيغة أخرى: كيف استطاع محمد العيد التجاني أن يجعل الشرق الجزائري صمام أمان وحاضرة علمية؟ وتوسعة للموضوع، نضيف التساؤلات الفرعية الآتية:

- كيف تأسست الزاوية التجانية بتماسين؟ ومن هو مؤسسها؟
- من هو الشيخ محمد العيد التجاني؟
- ما المجالات التي تمثلت فيها جهود الشيخ محمد العيد لخدمة الطريقة التجانية؟

1- التعريف بزاوية تماسين:

تعد الزاوية الجوهرة التي تشع نورا وعطاء على المجتمع، ويشمل ذلك العطاء جميع الناهلين على اختلافهم وتنوعهم، وبحسب احتياجهم لها. وهي مكان للتبادل الفكري والثقافي والحضاري، كونها ملتقى ومزارا يقصده الجميع.

وتماسين* كمنطقة، هي من دوائر ولاية تقرت. وتبعد عن مقر الولاية بحوالي 10 كلم، وعن الجزائر العاصمة 650 كلم. وهي في الجنوب الشرقي من الوطن في شمال الصحراء، يحدها من الشمال بلدية النزلة (تقرت)، ومن الجنوب بلدية بلدة عمر (دائرة تماسين)، ومن الشرق بلدية الطيبات (دائرة الطيبات)، ومن الغرب بلدية العلية (دائرة الحجيرة).

أما موقعها الفلكي، فهي محصورة بين خطي طول 15و16، وخطي عرض 47 و44 شمالا. وتتربع تماسين على مساحة إجمالية قدرها 53111 كلم مربع. وتتألف من مجموعة من الأحياء هي حي القصر في تماسين، وهو من أقدم القصور على مستوى المنطقة، حي تملاحت الموجود في الجنوب، حي سيدي عامر، حي البحور في الشمال، وحي المنار في الوسط.

والزاوية التجانية بتماسين من أهم وأكبر فروع الزوايا التجانية في العالم، وذلك راجع لدورها التربوي والتعليمي الذي تقوم به منذ تأسيسها سنة 1803م على يدّ الشيخ سيدي الحاج علي التماسيني بإذن من الشيخ أحمد التجاني. ومنذ ذلك الزمان، والزاوية تتطور يوما بعد يوم نظرا لمتطلبات الظرفية والتاريخية، سواء من حيث الخدمات التي تقدمها للمجتمع، أو من حيث مادة البناء والشكل المعماري لمواكبة العصر وتحدياته[1].

2- التعريف بشخصية محمد العيد التجاني:

يعود نسب الشيخ محمد العيد إلى الشيخ الإمام التماسيني؛ فهو محمد العيد نجل الشيخ محمد البشير بن سيدي محمد العيد نجل الشيخ محمد البشير نجل الشيخ محمد حمه نجل الشيخ محمد العيد نجل الإمام التماسيني. ولد 07 ماي 1954م بتماسين الموافق لـ 1373هـ.

حفظ الشيخ القرآن الكريم، ثم تدرج في مسالك السلوك على يدّ والده بالزاوية، لينتقل بعدها إلى طالب العلوم العلمية العقلية، حيث تحصل على شهادة الباكالوريا تخصص رياضيات في 1974م، وبعدها حصل على شهادة DES في الفيزياء الصلبة بقسنطينة سنة 1978م، وماجستير 1981م.

كما حصل على درجة الدكتوراه بجامعة باريس، مركز أورساني 1996م، إضافة إلى حصوله على مناصب علمية بجامعة قسنطينة بين سنة 1978 إلى 1999م.

عاش الشيخ العيد في أسرة محافظة، وهذا ما جعله يصبو إلى طلب العلم وخدمة

---

* تماسين: كلمة بربرية كان ينطقها السكان الرواغة، ومنهم من قال بأنهم قوم مسالمين قدموا إلى المشرق، (محمد لبسيس، ومضات تاريخية من تماسين، مجلة النسيم الثقافي التماسيني (صدر عن الجمعية الثقافية سيدي الحاج علي التماسيني، مطبعة تقرت) ورقلة1998 م، العدد التجريبي، ص3.

[1]- محمد نسيب، تاريخ الجزائر الوسيط، دط، دت، الجزائر، الفكر، ص125.

القرآن الكريم. وبالرغم من انشغاله بالجانب العلمي والعملي في الجامعة وارتباطاته، إلا أنه لم يتأخر ولا يوم في خدمة الزاوية وطلباتها؛ فهو المرافق الشخصي لوالده في ترحاله.

2-1- خلافته للزاوية: بعد انتقال والده للرفيق الأعلى، بويع الشيخ محمد العيد للخلافة يوم الجمعة 01 شوال 1420هـ، الموافق لـ 08 جانفي 2000، وذلك في جو روحاني مهيب، حضره الخليفة العام للتجانية الشيخ عبد الجبار التجاني[1].

2-2- جهوده في خدمة الطريقة التجانية:

يعد الشيخ محمد العيد التجاني من أبرز الأعلام التجانيين الذين اهتموا بتطوير وخدمة الزاوية التجانية بتماسين علما وعملا. وتمثلت أهم جهوده فيما يأتي:

3- **الجهود العلمية والروحية بزاوية تماسين:**

كانت الزوايا العلمية بالجزائر ولا تزال أرضا طيبة لغراسة الآداب والعلوم وصناعة الرجال، فحافظت بذلك على المرجعية الدينية والعقدية الفقهية، وكذلك على الهوية الوطنية من خلال تبنيها المرجعية العقدية الأشعرية والفقه المالكي، والتصوف على طريقة الجنيد السالك.

والزاوية التماسينية كغيرها من الزوايا العلمية التي كان لها السبق منذ نشأتها الأولى على يد الولي الصالح أبي الحسن علي بن عيسى التماسيني، حاملة به لواء العلم وإكرام أهله، مهيئة ومذللة لهم سبل تحصيله.

ولقد رسم الشيخ علي التماسيني منهجه وفق ثلاثية عرفانية نصح بها مريديه قائلا: "عليكم باللويحة والمسيحة والسبيحة حتى تخرج الرويحة"[2]. وهي إشارة منه إلى العلم والعمل والعبادة. وقد ركز في منهجه أيضا على بناء الإنسان لا تشييد البنيان، وهو المنهج الذي سار عليه خلفاؤه من بعده مع التطوير في المسار العلمي[3].

اهتم الأستاذ "محمد العيد التجاني" بالعلم كأساس أولي للنهوض بالمجتمع التماسيني خاصة والسوفي عامة، وذلك من خلال تدريس القرآن الكريم لأبناء المنطقة، مع الإجازة والأحكام من طرف أساتذة مجازين في الحفظ وأحكام التجويد. فكانت المدرسة القرآنية بالزاوية تقوم بعمل جبار في التحفيظ والتكوين القرآني حتى أنّ عدد طلابها كان يصل إلى 310 طالبا من مختلف الأعمار من الجنسين، مع تقدم العشرات من الحفاظ سنويا. إلى

---

[1]- علي بن محمد غريسي، أعلام وأختام، ج1، ط1، مطبعة كوينين- الوادي، الجزائر، جانفي2013م، ص15.

[2]- الصادق بن أحمد العروسي التجاني التماسيني، العرف الرياحيني في ترجمة سيدي الحاج علي التماسيني، ط2015، المطبوعات الجميلة، ص7.

[3]- محمد العيد التجاني، آفاق المعرفة، مجلة معرفية ثقافية دورية، ع2، جانفي2016، 1437هـ، ص52.

جانب ذلك، فهي تنوع نشاطاتها نحو تدريس الفقه والتفسير، وحفظ المتون ومجالس السيرة النبوية[1].

اهتمت الزاوية أيضا بالحديث النبوي الشريف وكل ما يرتبط بحياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فكانت تقام مجالس للحديث ويقرأ فيها صحيح البخاري، ويتم ختمه كل سنة في احتفالية ليلة القدر بما في ذلك حرصهم على جلب علماء من الزيتونة لتقديمهم دروسا تعليمية وتنويرية بالزاوية والمناطق المجاورة لها.

أما احتفالهم بليلة القدر، فكان يعدّ تعظيما في هاته الليلة المباركة؛ إذ تقام صلاة التراويح بالزاوية في أماكن مختلفة، ويختم فيها القرآن الكريم، ويكرم حفظته وأئمتهم والمتفوقون في مسابقات دينية، مع إلقاء القصائد الدينية، ثمّ يختم المجلس بالدعاء.

كما ركز الشيخ من جهة أخرى على توسيع المكتبة، وهي من ضمن مشاريعه (مكتبة الزاوية التماسينية)، والتي تضم أكثر من مليون كتاب بمختلف العناوين والتخصصات، وما تحويه أيضا من سلاسل علمية وموسوعات ودوريات صنفت وفق التنظيم العشري العالمي، وقد أقام بها قاعات إنترنيت وأخرى للمطالعة، يقصدها الباحثون من جميع الأنحاء، هذا وتعدّ الزاوية التماسينية من أغنى المكتبات بالمخطوطات والوثائق النادرة.

كما أقام العديد من المراكز الثقافية التي تنشر أغلبها في ولاية الوادي كزاوية قمار، الرقيبة، مركزين بحاسي خليفة، المقرن، أولاد تواتي... وتحاكي هذه المراكز الثقافية الزاوية الأم "تماسين" في نشاطها العلمي والثقافي، وهو ما جعلها وجهة لجميع فئات المجتمع.

أولى الشيخ محمد العيد التجاني أيضا عناية كبيرة بالعلم والمعرفة، والتي هي أساس الفرد الراقي، وقد كان مرجعه في ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وقد حثّ على تعليمهم للنشء، موجها وصاياه إلى ضرورة التسلح بالعلم والأخلاق؛ لأن الإنسان معرض دائما للأفكار، مع عدم تخليه عن الاستعانة بأهل الاختصاص وأهل الاستشارات لصناعة العقول وإيجاد الحلول الناجعة للتحديات التي تجابهه. زيادة على ذلك، أكد على إتقان اللغات الأجنبية لفهم الآخر والتواصل معه[2].

3-1- الدور الاجتماعي للشيخ محمد العيد التجاني:

سعت المشيخة التجانية بتماسين" الشيخ محمد العيد التجاني من خلال محاضراته ولقاءاته ونشاطه الاجتماعي وسط أبناء البلد الواحد إلى الدعوة لربط العباد برب العباد،

---

[1]- المصدر السابق،ع2، ص25.

[2]- الزاوية التجانية بتماسين بين الأمس واليوم، منشورات الزاوية التجانية بتماسين، ط3، مطبعة كوبنين-الوادي، الجزائر، 2008م، ص40.

وإقامة علاقة دائمة وجدية مع الخالق. وهو ما يستدعي ربط العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، لذا نجده في معظم خطاباته يدعو إلى الوحدة وعدم التفرقة؛ بل يعد التصوف في نظره مذهب إنساني وليس حكرا على طريقة دون أخرى أو مجتمع دون آخر، ومن هنا يتضح لنا مساهماته في الدعوة إلى الوحدة والتوحيد بين الناس. وعدم التفرقة بينهم عملا بقوله تعالى: "**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر**"[1].

كما أن الطريقة التجانية لم تخرج الممرات في المجتمع الجزائري، فقد سعت جهدها إلى لم شمل وتوحيد الصف، وتوطيد جهود الدولة الجزائرية في الحفاظ على الوحدة الوطنية، وتعزيز الهوية الوطنية والحضارية، وتكريس للمرجعية الدينية الأصيلة الثابتة سنية أشعرية مالكية، وذلك من خلال النشاطات العلمية التي تقوم بها.

3-2- التوحيد بين الريف والحضر:

إن معظم أتباع الزاوية التماسينية ينتمون إلى سكان الريف بتماسين، لكن هذا لا يمنع من وجود أبناء المدينة من واد سوف وقمار؛ فقد استطاع شيخها أن يجمع بين التصوف في الريف والمدينة بآليات عصرية، فكان المريدون حوله من كل الطبقات ومختلف الأعمار والأجناس. والذي جعلها صمام أمان للمجتمع التماسيني هي الخدمات الجليلة التي تقدمها. وبفضل حنكة مشيختها، استطاعت توحيد القبائل والشعوب في الجنوب، وفك الخصومات والنعرات المتواجدة بينهم[2].

كما ساهمت أيضا في التوحيد بين أفراد المجتمع المسلم الواحد، بين الغني والفقير، السيد والعبد، والرئيس والمرؤوس.

لقد عملت المشيخة التماسينية على إرساء قواعد العلم، وبثّه في صدور الرجال، فبفضل جهوده وجهود من سبقوه على خلافة الزاوية التماسينية، جعلوا من تماسين حاضرة علمية، تعج بالعلماء والفقهاء والباحثين من مختلف الأمصار والبقاع[3].

3-3- إنشاؤه للجامعة الشتوية:

أشرف الشيخ محمد العيد التجاني سنة 2018م على رعاية افتتاح الجامعة الشتوية

---

[1]- سورة الإسراء، الآية، ص70.

[2]- وردة جاب الله، دور الطريقة في إصلاح ذات البين، الفرد الواعي ضمان لبناء المجتمع واستقرار الوطن (محاضرات الجامعة الصيفية)، 2016م.

[3]- عقبه السعيد، الزاوية التجانية بتماسين ودورها الاجتماعي، الملتقى الوطني الثاني الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين 18-19م، (من خلال المصادر المحلية جانفي2012، المركز الجامعي بالوادي، مطبعة منصور، الجزائر،2012م، ص13.

في التصوف بزاوية تماسين، وذلك بالشراكة مع جامعات ومخابر بحثية عالمية، حيث حضر هاته الجامعة دكاترة وباحثون أجانب من سبعة دول أوربية: الولايات المتحدة الأمريكية- بريطانيا- إيطاليا- فرنسا- صربيا- ألمانيا- نيجيريا، ويتقدمهم أحد أعلام التصوف في أوروبا البروفيسور يونس أريك جوفروي.

3-4- أكاديمية "سر" للتأهيل القيادي:

أشرف الشيخ محمد العيد التجاني على إنشاء هذه الأكاديمية الوطنية العلمية، وأطلق عليها اسم "سر"، وكان من ضمن ما تعنى به هو بناء جيل قيادي يعمل على رفع مستوى الوعي الاجتماعي بمرجعية دينية ووطنية للوصول إلى العالمية، ولترافق من جهة أبناء المجتمع رجالا ونساء، شبابا وبنات، للعلم والتطور في جميع المجالات، وليكونوا روادا للخير في مجتمعهم ووطنهم.

3-5- الأنشطة الثقافية المكملة (الموسيقى- الإنشاد- الشطرنج-الرياضة-المسرح):

سعى الشيخ محمد العيد التجاني بأن تكون الزاوية مطلب كل قاصد، بحيث يجد فيها كل إنسان ضالته، فأنشأ بذلك فرقة موسيقية نسوية (فرقة لآلئ تماسين)، وفرقة للأطفال (الفرقة العباسية للإنشاد والمديح). يهتم كلاهما بنشر التراث الصوفي وحبّ النبي صلى الله عليه وسلم. كما تحتوي الزاوية على جانب من الترفيه من لعبة الشطرنج، والتي خصص لها مسابقات تنافسية بين الشباب، بل وقد وجدت الشطرنج لما لها من أهمية في تنشيط الدماغ، وإيجاد حلول للتحديات. كما اهتمت الزاوية أيضا بالرياضات بمختلف أنواعها، وبمختلف الفنون كالمسرح وعرض الأوبريت والرسم والشعر...

3-6- إنشاء منصة "رسل المحبة والسلام والإحسان":

راعت الزاوية في جانب آخر مضيئ من الإعلام، إنشاء هاته المنصة عبر تطبيق الزووم، والذي يجمع مجموعة من النخب الثقافية والعلمية من جميع أقطار الوطن العربي. وقد كان صاحب هذه الفكرة وراعيها الشيخ محمد العيد التجاني بصفتها مكانا للالتقاء العملي والحوار الراقي. كما تعكس المنصة هذا الواقع الافتراضي لإبراز قيم التراحم والوحدة، وأدب الخلاف وحسن الظن بالمخالفين، فهذا ما من شأنه أن يقدم الزاوية على شكل واحة تتلاقى فيها جميع مكونات المجتمع، وتتعاون نحو المصلحة المشتركة، ونحو تجسيد الاستخلاف الإلهي للإنسان[1].

[1]- محمد العيد التجاني، آفاق، المصدر السابق، ص23.

4- جهوده الاقتصادية:

لقد كانت الزاوية التماسينية التجانية تشرف على الاقتصاد المحلي للمنطقة والإقليمي، بل حتى على الحركات التجارية الحساسة. وقد تجسد ذلك في امتلاك الأراضي، وجمع النفقات والزكاة، واهتمام المشيخة أيضا بخرص النخيل، وسياسة خدمة الأرض وغرسها.

فالشيخ محمد العيد اهتم بالفلاحة وخدمة الأرض التي تعدّ بالنسبة له وللزاوية ركيزة التقدم والتطور؛ فكانت له مشاريع فلاحية كثيرة في المنطقة، هذا إلى جانب اهتمامه بالجانب البيئي والتنمية المستدامة، حيث بدأ اهتمامه بالمورد المائي، وعمل على تصفية المياه المستعملة لإعادة استخدامها في الري، ومحاولة توفير مياه صالحة للاستعمال. أيضا ركز على ضرورة المحافظة على البيئة والتخلص من مياه الصرف الصحي بطريقة بيولوجية، فكانت مبادرة راقية وضرورة مستقبلية خاصة للأجيال.

وعموما، حرص الشيخ محمد العيد التجاني[1] على جلب الاستثمار للمنطقة، فقام بتفعيل الطاقات المتجددة. وتمثل ذلك من خلال عقد شراكة مع رجال الأعمال من أجل النهوض باقتصادها. وعليه، يمكن القول أنّ اهتمام الأستاذ محمد العيد التجاني بالتجارة خاصة هو موقع الزاوية الحساس الذي تلتقي عنده جميع الطرق التجارية بين الجنوب والشرق والشمال من الجزائر وتونس وإفريقيا.

كما نشهد اهتمام الشيخ محمد العيد التجاني بتجارة التمور وسوق النسيج والطرز خاصة؛ لأن الزاوية كانت تحرص على الاهتمام بالجانب التقليدي الحرفي من خلال جمعية التراث للرقي بالمرأة التماسينية، حتى أنه بادر إلى جلب سيدات من الخارج لتعليم المرأة الحياكة وصنع الصوف، وكانت تشرف على هذه الجمعية الثقافية كل من الأستاذة نجاة وكوثر تجاني.

4-1- ورشة الصناعات التقليدية:

قام الشيخ محمد العيد التجاني سنة 2006م بإنشاء ورشة للفتيات، ووفر لهن تأطيرا عاليا من جمعية شمس الأوربية، وبمساعدة الفنان العالمي رشيد قريشي، حيث كان من أهدافها السمو والرقي بالمرأة خاصة الماكثة بالبيت ودمجها في الحياة المهنية[2].

الخاتمة

بعد الوقوف على جانب من الجهود العلمية والعملية الجادة للشيخ محمد العيد التجاني في خدمة الطريقة التجانية بتماسين، وكيف جعل منها ملتقى ومزارا للتبادل

---

[1]- مقابلة مع الشيخ محمد العيد التجاني، الزاوية التجانية بتماسين- الوادي، الجزائر، الخميس، 14:20 مساء.

[2]- محمد العيد التجاني، آفاق، المصدر السابق، ص19.

الفكري والثقافي والحضاري، وبؤرة للعطاء تلبي مقصد واحتياجات المجتمع التماسيني خاصة والمجتمع الجزائري عامة، تبين لنا بوضوح أن جهوده الحثيثة كان لها دور فاعل في المجتمع ككل. ونوجز ما قدمته فيما يلي:

✓ تميز الزاوية التجانية بتماسين كونها من أكبر الزوايا بطابعها العصري والثقافي والحضاري الذي يواكب هذا الجيل.

✓ حرص الشيخ محمد العيد التجاني على إنشاء مدارس لتعليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة للأجيال، سعيا منه لنشر القيم الإيمانية.

✓ تفعيل الشيخ محمد العيد التجاني أسلوب الحوار مع الآخر، والمعاملة الحسنة، ونشر قيم المحبة وتقوية روابط الأخوة انطلاقا من تكوين شراكات وإقامة ملتقيات وندوات، وتقوية العلاقات في إطار خدمة الإنسان والنهوض به في شتى مجالات الحياة.

✓ جهود الشيخ محمد العيد التجاني في المجال الاقتصادي وإقامته العديد من المشاريع القيمة، تبرز مدى نشاطه واهتمامه في الحث والدعوة للعمل، وخدمة الأرض لبناء مستقبل وغد أفضل للأجيال القادمة.

✓ تأكيد الشيخ محمد العيد التجاني أنّ الزاوية التجانية بتماسين زاوية ذات منهج يجمع بين العلم والعمل والعبادة.

قائمة المصادروالمراجع

- القرآن الكريم

1- الزاوية التجانية بتماسين بين الأمس واليوم، منشورات الزاوية التجانية بتماسين، ط3، مطبعةsib كوبنين-الوادي، الجزائر، 2008م.

2- الصادق بن أحمد العروسي التجاني التماسيني، العرف الرياحيني في ترجمة سيدي الحاج علي التماسيني، طبعة2015، المطبوعات الجميلة.

3- عقبه السعيد، الزاوية التجانية بتماسين ودورها الاجتماعي، الملتقى الوطني الثاني الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين 18-19م، (من خلال المصادر المحلية جانفي2012، المركز الجامعي بالوادي، مطبعة منصور، الجزائر،2012م.

4- علي بن محمد غريسي، أعلام وأختام، ج1، ط1، مطبعة sib كوبنين- الوادي، الجزائر، جانفي2013م.

5- محمد العيد التجاني، آفاق المعرفة، مجلة معرفية ثقافية دورية، ع2، جانفي2016، 1437هـ.

6- محمد لبسيس، ومضات تاريخية من تماسين، مجلة النسيم الثقافي التماسيني (صدر عن الجمعية الثقافية سيدي الحاج علي التماسيني، مطبعة تقرت)، ورقلة، 1998م، العدد التجريبي.

7- محمد نسيب، تاريخ الجزائر الوسيط، دط، دت، دار الفكر، الجزائر.

8- وردة جاب الله، دور الطريقة في إصلاح ذات البين، الفرد الواعي ضمان لبناء المجتمع واستقرار الوطن (محاضرات الجامعة الصيفية)، 2016م.

المقابلات:

1- مقابلة مع الشيخ محمد العيد التجاني، الزاوية التجانية بتماسين، الجزائر، الخميس، 14:20 مساء.

الشيخ عبد العزيز الشريف ونشاطه الإصلاحي والتعليمي بسوف

د/ محمد عمارة
كلية العلوم الإسلامية – جامعة الوادي
amaralazhar@gmail.com

مقدمة

تعتبر الطريقة الصوفية المرجع الروحي للمجتمع الجزائري، حيث ظهرت مع دخول الفتح الاسلامي للجزائر إلى المغرب العربي والغرب الاسلامي ومنها إلى الجزائر، وقد انخرط في صفوفها أعلام من الجزائر وذلك عن طريق حجاج المغاربة منهم سيدي بومدين[1] في القرن السادس الهجري، حيث التقى بعبد القادر الجيلاني في مكة عند أداء فريضة الحج وأخذ عنه الطريقة[2]، وعند رجوعه إلى الجزائر مر بتونس والتقى بعلمائها وصلحائها وأخذوا عنه الطريقة القادرية، ومن روادها بتونس أبو علي النفطي في حدود القرن 6 ه الموافق لـ القرن 13م وبقيت الطريقة القادرية محصورة عند عدد من الأفراد دون تشييد زوايا لمدة ستة قرون.

وفي الجزائر ظهرت القادرية في حدود القرن التاسع الهجري الموافق للقرن 14م، أي قبل العهد العثماني[3]، وبزرت معالمها في عهده.

وأما في الجنوب التونسي فأول من شيد زاوية للطريقة القادرية بتونس في القرن 12ه هو أبو الحسن علي بن عمر الشايب في منطقة منزل بوزلفة[4]، ومن العائلات التي تبنت الطريقة القادرية عائلة الشريف[5]، ومن ذريتها إبراهيم الشريف وابنه الهاشمي وحفيده الشيخ عبد العزيز الشريف شيخ الطريقة القادرية بسوف، حيث كان لهم الدور في تأسيس الزاوية القادرية في القرن19م، حيث لعبت دورا هاما في الحفاظ على الهوية الوطنية على عهد الاستعمار والقيام بالمقاومة الثقافية ضده وذلك بإبراز الفكر الإصلاحي

---

[1] - هو شعيب بن حسين دفين تلمسان (ت594ه). مزوق العمري، الفكر العقدي في الجزائر، محاضرات ألقيت على طلبة ماستر 2، عقيدة 2019، جامعة باتنة، ص37.

[2] - المصدر نفسه، ص38.

[3] - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر الجزائر ط، 2007، 513/1.

[4] - غنابزية علي، الشيخ العدواني حياته وآثاره، مطبعة الرمال- الوادي، ط1، 2015.ص54.

[5] - غنابزية علي، مجتمع وادي سوف من الاحتلال إلى الثورة، دار هومه الجزائر، ط1، 2017، ص191.

عند ظهور جمعية العلماء المسلمين، والقيام بتوعية المجتمع وذلك عن طريق التربية والتعليم على عهد عبد العزيز الشريف وهو شخصية الموضوع، ومن هنا نطرح الإشكال الآتي:

فيما يتمثل نشاط الزاوية القادرية بسوف على يد شيخها عبد العزيز الشريف في مجال التعليم والإصلاح في القرن العشرين؟

ويمكننا الإجابة على هذا الإشكال وفق العناصر الآتية متخذين المنهج الوصفي بالاستعانة بالمنهجيين الاستقرائي والتاريخي:

أولا: دخول القادرية إلى سوف.

ثانيا: التعريف بشخصية الموضوع.

ثالثا: النشاط التعليمي والإصلاحي بالزاوية القادرية.

أولا: دخول القادرية إلى سوف

سنتطرق في هذا العنصر إلى الجانب التاريخي التسلسلي من ظهور القادرية بالعراق إلى وصولها إلى تونس ثم سوف وأهم أعلامها ومناطق وجودها.

تنسب الطريقة القادرية إلى سيدي عبد القادر الجيلاني[1]، حيث انتشرت على عهده بالمشرق ثم المغرب منها الجنوب التونسي ومن أعلامها إبراهيم الشريف حيث أسس زاوية بنفطة، وأنجب عدة أبناء وأرسل ثلاثة منهم إلى سوف (الهاشمي، الإمام، الحسين)[2]، ورابعهم إلى ورقلة (محمد الطيب)[3] وذلك في أواخر القرن 19م وأما السنة التي دخل فيها مؤسسة الزاوية القادرية بسوف هي 1886م[4]، وهو أبو شخصية الموضوع (الهاشمي الشريف) حيث استقر عند أخواله بالبياضة، وتزوج وأنجب أبناء وبنات وأسس زاويته في سنة 1892[5]، حيث تقام فيها الأذكار والأوراد وتعلم فيها القرآن ومبادئ علوم الدين، ثم بدأ بتشييد فروعها داخل وخارج سوف.[6]

---

[1] - وهو صاحب الطريقة القادرية دفين بغداد(ت561هـ) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر، ط4، 2007، 42/2007.

[2] - الهاشمي أسسها بالبياضة، والإمام بالرباح، والحسين بقمار.

[3] - أسسها برويسات بورقلة.

[4] - عادل محلو، العلامة المصلح الطاهر تليلي، مطبعة مزوار الوادي، طبعة 01، 2005، ص30.

[5] - سعد العمامرة، أعلام من سوف، مطبعة مزوار الوادي، ط1، 2006، ص19.

[6] - المصدر نفسه، ص20.

ثانيا: التعريف بالشيخ عبد العزيز الشريف

هو عبد العزيز بن الهاشمي الشريف مؤسس الزاوية القادرية بسوف، وهو الابن الأوسط من أبنائه[1]، ولد سنة 1899م بمقر الزاوية بالبياضة بسوف[2]، حيث تربى وترعرع بها ونشأ وشبّ وحفظ القرآن بها وتعلم مبادئ اللغة وعلوم الدين، ولما بلغ سنه 14 بعثه والده إلى جامع الزيتونة بتونس وذلك سنة 1913هـ لمواصلة الدراسة هناك والحصول على الشهادة العلمية تطبيقا لشرط والده بأنّ من يتولى شؤون الزاوية لا بد أن يكون صاحب شهادة علمية، فدرس بجامع الزيتونة مدة 10 سنوات وتتلمذ على شيوخها منهم محمد الطاهر ابن عاشور[3]، وتحصل على شهادة التطويع في جوان 1923م[4]، وذلك قبل وفاة والده بثلاثة أشهر، وبعد رجوعه إلى سوف حضر لمرض والده إلى أن توفي في 23 سبتمبر 1923م. وبعد وفاة والده تولى مشيخة الزاوية أخوه الأكبر عبد الرزاق لمدة ثلاثة أشهر فمرض وتوفي في نفس السنة التي توفي فيها أبوه، وفي بداية سنة 1924م[5] تولى الشيخ عبد العزيز مشيخة الزاوية وعمره 25 سنة فاهتم بشؤونها وبجانب ذلك استثمر أموال عائلته وأوقافها وذلك لتنميتها وتكون مصدرا ماديا للزاوية، فقد مارس النخيل، وتجارة التمور حتى لقب بملك التمور فجمع بين الجانب الاقتصادي، والجانب الروحي وفي سنة 1936م قام عبد العزيز بأداء فريضة الحج وعمره 37 سنة ومكث بالحجاز عدة أشهر.

وفي المشرق أطلع على أحوال والعالم الاسلامي وذلك بالاتصال بالعلماء من كل أنحاء العالم الإسلامي[6]، وفي نفس السنة زار مصر والتقى بعدد من الشخصيات الفاعلة في العالم العربي والإسلامي مما زاده اطلاعا وعلما وثقافة بأحوال العالم العربي والإسلامي[7]، وبعد هذه الجولات رجع إلى وطنه الجزائر، واستقر بسوف وباشر نشاطه إلا أنه أبعد عن وطنه إلى منفاه بتونس، وبقي متصلا بوطنه إلى أن وافته المنية بتونس بعد الاستقلال وذلك سنة 1965م[8]، بعد مرض عانى منه وأقعده الفراش فرحم الله الرجل.

---

[1] - حسان الجيلاني، جهاد الشيخين، مطبعة سامي الوادي، ط1، 2017، ص97.

[2] - المصدر نفسه، ص97

[3] - المصدر نفسه، ص97

[4] - المصدر نفسه، ص97

[5] - المصدر نفسه، ص97

[6] - المصدر نفسه ص 100

[7] - المصدر نفسه، ص101.

[8] - المصدر نفسه، ص166.

ثالثا: النشاط الاصلاحي والتعليمي عند عبد العزيز الشريف

يتمثل نشاط عبد العزيز الشريف في جانبين الأول إصلاحي، والثاني تعليمي[1]، وسنذكر كلا على حدة:

أ- النشاط الإصلاحي:

ويتجسد نشاطه الإصلاحي في انضمامه إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتأييد أفكارها والسير على نهجها وتدعيمها ماديا ومعنويا، وكانت بداية نشاطه الإصلاحي بعد عودته من أداء فريضة الحج سنة 1936م، وزيارته لمصر في نفس السنة حيث مكث بالحجاز والمشرق عدة أشهر والتقى بأعلامها واطلع على أحوال العالم العربي والإسلامي وسأل وحاور أهل المشرق والمغرب وخلص بنتيجة إلزامية التغيير وتوعية الشعب والثورة على الاستعمار فاقتنع بفكرة الإصلاح الاجتماعي والديني والسياسي. وعند رجوعه إلى أرض الوطن أبدى استعداده للانضمام إلى جمعية العلماء المسلمين والاقتناع بأفكارها ومنهجها فقام بما يلي:

- بعث برسالة إلى رئيس الجمعية عبد الحميد بن باديس يبدي فيها انضمامه للجمعية[2].

- حضوره المؤتمر السنوي للجمعية سنة 1938م بنادي الترقي بالعاصمة[3].

- تبرعه بمبلغ معتبر آنذاك يقدر بـ(25000 فرنك فرنسي)[4].

- تخصيصه مبلغ معتبر آنذاك يقدر بـ(300.000 فرنك فرنسي) نقدا للجمعية عند حضوره مؤتمرها سنة 1938م، للمساهمة في بناء معهد إسلامي بالجنوب[5].

- دعوته لوفد الجمعية لزيارة سوف لتأسيس فروعها وتنصيب شعبها، وهو ما تحقق في سنة 1937م[6].

---

[1] - له نشاطات عدة منها السياسية والاجتماعية (كهدة عميش2)1938م.

[2] -حسان الجيلاني، جهاد الشيخين، مرجع سابق، ص105، غمام عمارة مداخلة بعنوان –جهود الشيخ عبد العزيز الشريف في المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي - الملتقى الدولي السابع – المقاومة الثقافية لأعلام الفكر الاصلاحي في الجنوب الشرقي الجزائري -1900-1962- جامعة الوادي - 6جوان 2022م

[3] - حسان الجيلاني، جهاد الشيخين، مرجع سابق، ص105،

[4] - المصدر نفسه، ص106.

[5] - حسان الجيلاني، جهاد الشيخين، مرجع سابق، ص106،

[6] - المصدر نفسه، ص109.

-استقباله لوفد الجمعية برئاسة عبد الحميد بن باديس عند زيارة سوف في ديسمبر 1937[1].

- مرافقته لوفد الجمعية في الزيارات الداخلية لمناطق سوف، وتأسيس فروعها، وتنصيب شعبها منها (الوادي، قمار، الزقم)[2].

- تنظيمه لزيارة خاصة للفضيل الورتيلاني لسوف بعد زيارة ابن باديس، وذلك في جانفي1938 دامت يومين، واستضافته له[3].

- قيامه بتنصيب عدة شعب للجمعية في مناطق سوف منها (تكسبت، كوينين، البياضة، الطريفاوي، حاسي خليفة، برفقة العضوين في الجمعية عبد القادر الياجوري[4]، ولخضر الشريف[5]، وكان ذلك في مارس 1938م بعد زيارة الورتيلاني لسوف[6].

- فتح مدارس وجلب مدرسين بالزاوية القادرية بسوف وفروعها داخل وخارج سوف[7]، وهذا ما سنفصل فيه فيما يأتي في الحديث عن نشاطه التعليمي.

- زيارة ابن باديس والورتيلاني لسوف:

قام عبد الحميد بن باديس مع وفد من جمعية العلماء المسلمين بزيارة تاريخية لسوف تلبية لدعوة عبد العزيز الشريف وكان ذلك في شهر ديسمبر 1937م حيث استقبلهم عبد العزيز الشريف، ورافقهم في التنقل إلى قرى سوف حيث أسسوا فيها الفروع ونصبوا الشعب، يقول محمد خير الدين: « زرنا في هذه الجولة عدة مناطق أسسنا بها الشعب وألقينا فيها دروس الوعظ والإرشاد منها بلدة قمار....»[8]، ويقول أيضا عن استقبال عبد العزيز لهم: « وقد دعانا الشيخ عبد العزيز الشريف واستقبلنا استقبالا حافلا فألقينا الدروس وعقدنا الاجتماعات، ونظمنا الشعبة ومضينا»[9].

---

[1] - المصدر السابق، ص109-119.

[2] - موسى بن موسى، الحركة الاصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1939)، رسالة ماجستير، نوقشت جوان 2006، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ والآثار، ص185.

[3] -- المصدر نفسه، ص186.

[4] - أحد علماء قمار.

[5] - هو ابن الامام الشريف مؤسس زاوية الرباح، وابن عم عبد العزيز الشريف، وزج أخته زهور.

[6] - عبد الحميد بسر، الأمجاد من أبناء سوف، مطبعة سامي الوادي، ط1،2019، ص21-22.

[7] -حسان الجيلاني، جهاد الشيخين، مرجع سابق، ص121.

[8] -حسان الجيلاني، جهاد الشيخين، مرجع سابق، ص109.

[9] - موسى بن موسى، مرجع سابق، ص181.

وبعد زيارة ابن باديس دعا عبد العزيز الفضيل الورتيلاني لزيارة سوف، حيث لبى الدعوة وقدم سوف في 1938/01/25م، حيث استقبله عبد العزيز الشريف واستضافه عنده لمدة يومين[1].

ب- النشاط التعليمي عند عبد العزيز الشريف:

بعد زيارة ابن باديس، والورتيلاني لسوف شرع عبد العزيز الشريف في تأسيس المدارس الحرة في الزاوية القادرية وفروعها داخل وخارج سوف، ففي شهر مارس من سنة 1938م، فتح عبد العزيز الشريف مدرسة بالزاوية القادرية بوسط سوف واستقدم لها مدرسين منهم عبد القادر الياجوري مدرسا للفقه، وعلي بن سعد وكليهما من قمار، وجعل فيها النظام الداخلي، فكانت النواة الأولى للمعهد الاسلامي فيما بعد[2]، وسعى لفتح مدراس أخرى منها مدرسة الزاوية القادرية بالبياضة وعين لها محمد لقماري معلما للقرآن، ومحمد بن حمد النفطي مدرسا[3]، وخارج سوف فتح مدرسة بزاوية الأغواط وعين فيها كل من مبارك الميلي، ومحمد السعيد الزاهري مدرسا، وبزاوية بسكرة كذلك فتح بها مدرسة وعين فيها محمد الشريف المدكالي التونسي مدرسا بها، وزاوية توقرت فتح بها مدرسة وعين فيها بو عريوة التونسي مدرسا بها[4]، وغيرها من الزوايا التابعة للطريقة القادرية.

ج- مؤلفاته:

لم يذكر مترجموه أنه صنف في علم ما، حيث سخر حياته في مقاومة الاستعمار الفرنسي ثقافيا، وتعليميا وسياسيا رغم أنه عالم زيتوني قال عنه ابن باديس: « حضرة العالم الفاضل سيدي عبد العزيز»[5]، فاهتم بتكوين الرجال وتأسيس المدراس، وأما جانب الشعر والقصيد فقد ألف أنشودة ثورية سياسية تذكر دائما في مدارس الزاوية القادرية مطلعها:

يا شباب القطر نادي**** الجزائر البيضاء بلادي

---

[1] - موسى بن موسى، مرجع سابق،ص181.

[2] - حسان الجيلاني، جهاد الشيخين، مرجع سابق،ص121.

[3] - المرجع نفسه.ص123، محمد قدع، الروابط الاجتماعية والثقافية بين إقليمي سوف والجنوب التونسي، أطروحة دكتوراه جامعة الوادي، قسم التاريخ 2020م.

[4]- حسان الجيلاني، جهاد الشيخين، مرجع سابق. ص123.

[5]- المرجع نفسه.ص93، (رسالة ابن باديس لتعزية عبد العزيز في وفاة أبيه الهاشمي).

فلنصد عنها الأعادي**** أو نمت موت الكرام[1].

خاتمة

يعد عرضنا لمسيرة المجاهد عبد العزيز الشريف شيخ الطريقة القادرية بسوف، والوقوف على أهم أعماله وأفكاره ونضاله يمكن استنتاج ما يلي:

1-يعتبر عالم من علماء الطرق الصوفية.

2-اقتناعه بأفكار جمعية العلماء، واستغلال مكانته وزواياه لخدمة مبادئ الجمعية، وذلك بفتح عدة مدارس بها وتأسيس نواة المعهد الاسلامي بسوف.

4-وقوفه ضد المستعمر بعدة طرق المادية منها والمعنوية كالمواجهة المباشرة (هدة عميش2)، والمقاومة الثقافية عن طريق التعليم.

5-متابعة أحوال الوطن عامة وسوف خاصة من منفاه بتونس حتى الاستقلال.

6-دعمه المادي نقدا وعقارا لخدمة الفكر الإصلاحي، ومساندة الثورة خارج الوطن وذلك بالتنازل على عقارات لمقرات جبهة التحرير بتونس.

قائمة المصادروالمراجع

- حسان الجيلاني، جهاد الشيخين، مطبعة سامي الوادي، ط1، 2017.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر الجزائر ط، 2007
- العمامرة سعد، أعلام من سوف، مطبعة مزوار الوادي،ط1 2006.
- عادل محلو، العلامة المصلح الطاهر تليلي، مطبعة مزوار الوادي
- عبد الحميد بسر، الأمجاد من أبناء سوف، مطبعة سامي الوادي، ط2019،1.
- غنابزية علي، الشيخ العدواني حياته وآثاره، مطبعة الرمال- الوادي، ط1، 2015.
- غنابزية علي، مجتمع وادي سوف من الاحتلال إلى الثورة، دار هومه الجزائر،ط1، 2017.
- غمام عماره أحمد –جهود الشيخ عبد العزيز الشريف في المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي - مداخلة في الملتقى الدولي السابع – المقاومة الثقافية لأعلام الفكر الاصلاحي في الجنوب الشرقي الجزائري -1900-1962- جامعة الوادي – 6 جوان 2022م
- محمد قدع، الروابط الاجتماعية والثقافية بين إقليمي سوف والجنوب التونسي،

[1] - المرجع السابق، ص124.

أطروحة دكتوراه جامعة الوادي، قسم التاريخ، 2020م

- مرزوق العمري، الفكر العقدي في الجزائر، محاضرات ألقيت على طلبة ماستر 2، عقيدة 2019، جامعة باتنة. طبعة 01، 2005.
- موسى بن موسى، الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1939)، رسالة ماجستير، نوقشت جوان 2006، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ والآثار.

الشيخ الحبيب حنيش بن عثمان: السيرة والآثار

د/ أحمد عامر باي
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي
bey-ahmedameur@univ-eloued.dz

ملخص

يتضمن هذا البحث الموسوم بـ: "الشيخ الحبيب حنيش بن عثمان السيرة والآثار"؛ الوقوف على سيرة علم من أعلام التصوف في منطقة وادي سوف، وهو أحد العلماء الربانيين الذين جمعوا في سيرتهم بين العلم والعمل، وبين التصوف علما وذوقا، وجهاد القلم وجهاد السنان، فكان نموذجا في العطاء في الحل والترحال.

كما يتضمن البحث الوقوف على أهم الآثار العلمية والعملية التي تركها الشيخ الجليل، بين مريدين كثر استفادوا من علم الشيخ وتربيته، وبين مؤلفات ورسائل ومخطوطات، تضمنت في طياتها اهتماماته وتلاخيصه وقراءاته، وإجابات عن تساؤلات مرسلة، ومراسلات بين الشيخ الحبيب وشيخه سيدي المداني وغيره من أتباع الزاوية المدنية بتونس.

الكلمات المفتاحية: الحبيب حنيش، الزاوية المدنية، أعلام التصوف، أعلام منطقة الوادي.

1. مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وآله وصحبه وبعد:

لقد كان لجهود العلماء الربانيين من أهل التصوف في القديم والحديث، الدور البارز والمساهمة الواسعة في تربية النشء وحفظ الدين، وترسيخ مقومات الهوية الإسلامية في نفوس الشعوب المسلمة عموما، وفي جزائرنا ومنطقتنا وادي سوف خصوصا.

ولأن ولايتنا تقع في الجنوب الشرقي للبلاد، فقد كانت نقطة تواصل، ومنطلقا لحركية اجتماعية وثقافية امتدت إلى الشمال التونسي، حيث كان جامع الزيتونة والزوايا العديدة في الولايات التونسية مقصدا لطلبة العلم الشرعي، للنهل من العلم والمعرفة، وسلوك طريق التربية في ظل رعاية مشايخها، مما جعل ذلك الزاد يؤدي دوره في الاستنارة الروحية

والتزكية الممتدة في آثارها إلى السلوك الفردي والاجتماعي، مما شكلت فاعلا كبيرا في تعريف الناس بدينهم وحفظ لغتهم، واستقامة أمرهم، وتذكيرهم بربهم، سيما في زمن الاستعمار الفرنسي وما انتهجه من سياسة تجهيل وطمس لمقومات الهوية الإسلامية في نفوس الناشئة وأفراد المجتمع.

ومن أبرز أعلام التصوف الربانيين الذين سلكوا هذا الطريق سيدي الحبيب بن عثمان حنيش المداني، في رحلة إلى تونس امتدت من سنة 1933م إلى استقلال الجزائر سنة 1962م، ليعود من تلك الرحلة بزاد وافر، مكنه من مواصلة دوره الديني والتربوي بصور ومظاهر متعددة.

- **إشكالية البحث:**

وفي هذه المداخلة نحاول التعريف بشخصية الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش المداني، والاستفادة من تجربته العلمية والاجتماعية والتربوية، مع الوقوف على أهم آثاره وإسهاماته العملية والعلمية.

- **منهج البحث:**

طبيعة البحث تقتضي اختيار المنهج التاريخي الوصفي، من خلال القيام بالعديد من المقابلات الشخصية مع أبنائه وأصدقائه ومريديه، والوقوف على مختلف المحطات التي تضمنتها سيرته الذاتية، والعلمية والعملية، في مدينتي قمار ووادي سوف ورحلاته وسكنه في تونس، ثم تنقلاته المختلفة، وما تضمنته من جهد علمي وتربوي نافع.

- **خطة البحث:**

تناول هذا المقال مقدمة وخمسة عناصر، وهي مفصلة كالآتي:

1- سيرة الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش المداني وشمائله.
2- رحلات الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش المداني وإسهامه في الثورة الجزائرية.
3- السيرة العلمية للشيخ الحبيب بن عثمان حنيش المداني.
4- إسهامات الشيخ الحبيب بن عثمان العملية وبعض مواقفه السياسية.
5- إسهامات الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش العلمية وآثاره.

1. سيرة الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش المداني وشمائله[1]:

1-1- اسم ونسب الشيخ الحبيب بن عثمان المداني:

هو الحبيب بن عثمان -حنيش المداني- بن الحبيب بن علي، ويمتد نسبه إلى عزوز؛ جد الشرفاء العزوزيين الودغيريين[2]، وعرف بسي الحبيب بن البنية، نسبة إلى أمه.

وكان اسمه الحبيب؛ على اسم جده، الحبيب بن علي حنيش وهو من الأوائل الذين كان لهم فضل إدخال الطريقة التجانية لمدينة قمار، هو وإخوته: المشري الذين يعود إليهم نسب عائلة مشارى، وأخوه محمود الذين تنتسب إليهم عائلة مود[3].

1-2- مولده ونشأته:

ولد الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش المداني خلال سنة 1923م، بمدينة قمار في أسرة محبة للعلم والعلماء، تميزت بتوسط المعيشة، وتشتغل في ميدان الفلاحة، أبوه: عثمان بن الحبيب بن علي بن محمد، وأمه: مبروكة بنت حسن غرنوق الملقبة بـ: لَبْنَيَّة نسبة إلى أمه.

تزوج بفاطمة الزهراء، وخلف أربعة أولاد سماهم جميعا على أسماء أجداد النبي ﷺ كتعبير عن حبه وارتباطه الروحي بالنبي الكريم، منهم: إلياس، وخزيمة، وكنانة؛ وثلاث بنات هن: نزارة نسبة إلى نزار، ومضرية نسبة إلى مضر، وعدنانة نسبة إلى عدنان، وهي لفتة نادرة الحدوث في التعبير الجمالي عن محبة الرسول محمد ﷺ.

عاشت أسرته في بداياتها بالمدينة القديمة بقمار، سمي بعد ذلك الشارع المحاذي لسكناه باسمه: "شارع سيدي الحبيب" تقديرا لمكانته في الحي ضمن سور مدينة قمار من جهة البوابة الشمالية، وهو بيت جده، وهو منزل لا زالت أثار بنائه القديم قائمة حتى الآن[4]، إذ يقع أمام مسجد سيدي عبد الرحمن الخطابي (المسجد القديم) بني سنة 1356م-757هـ، ومحاذيا للمسجد الذي بني حديثا وسمي مسجد العلامة أحمد دغمان.

---

1 - انظر: صورة الشيخ الحبيب حنيش بن عثمان المداني، المرفق: رقم:01.

2 - انظر مخطط النسب لشجرة عائلة عزوز الودغيري، من إعداد محمد بن القاسم العرائشي، انظر: المرفق رقم:02.

3 - كنانة حنيش؛ المقابلة الأولى: بين الباحث باي أحمد عامر وأبنائه الثلاثة: كنانة؛ وإلياس؛ وخزيمة؛ حنيش، المكان: بيت الشيخ الحبيب حنيش بحي الفاتح ماي ببلدية الوادي، بتاريخ: 10 مارس 2023م.

4 - انظر: صورة البيت القديم، المرفق رقم:05.

وانتقل الشيخ مع أسرته إلى تونس بحثا عن العمل ملتحقا بأبيه، وشاء الله تعالى له مسارا آخر جمع فيه بين التفرغ للعلم حينا، والجمع بين العلم والعمل حينا آخر[1].

1-3- شمائل الشيخ الحبيب بن عثمان المدني:

عرف عن الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش سمته وأخلاقه العالية، وطيبته وبساطته، وصلاحه وخشيته لله، ونبله وكرمه العالي، وصدحه بالحق والدفاع عن المظلوم، والنصح للمسلمين، وكان لا يرضى بالظلم من أي كان.

وقد شهد له مقربوه ومن يتعامل معه في حياته العملية؛ دقة وقوفه عند حدود الله تعالى، في حياته المهنية وفي مواقفه المختلفة، سيما أنه عمل لزمن طويل في ميدان القضاء، وما يتوجبه من دقة وحفظ للحقوق، حيث أثر عليه النصح والتوجيه إلى مرضاة الله في العديد من النزاعات التي يقف عليها[2].

وكان بين الناس متواضعا، قال في وصفه لهذه الخصلة صديقه وتلميذه محمد بن المبارك غرنوق: "الشيخ الحبيب: عاش وذاب في تواضعه"، وهو نابع عن حبه الخير لجميع الناس دون استثناء، وكان محبوبا من الناس لما يلمسونه منه من جودة وإتقان في عمله، وما يلحظونه من ورع في سلوكه. وصمته الطويل، وكلامه القليل، وفكره وتفكره الواسع، وقال عنه ابنه الأستاذ كنانة في شهادة نابعة من تربية على يديه، ومرافقة طويلة: " كان إرثا وعطرا نبويا في سلوكه وحياته اليومية".[3]

تميز في الجانب العلمي بكثرة المطالعة وطول آمادها حتى أنه يفتقد من أهل بيته من كثرة مكثه في مكتبته، حيث لا يضجر من الجلوس في المكان الواحد الساعات الطوال، كما تميزت مطالعاته بالتنوع، فكان بذلك موسوعيا[4].

ونختم بشهادة موجزة جامعة من أحد أصحابه؛ وهو الشيخ إبراهيم خنفور إمام مسجد بلال بن رباح بالشقايق ببلدية الوادي، حيث قال في وصف الشيخ الحبيب: "رجل

---

1 - مقابلة كنانة حنيش (01).

2 - العيد بن عمر، مقابلة بين الباحث باي أحمد عامر وصديق الشيخ الحبيب حنيش: العيد بن عمر، بتاريخ: مارس 2023م

3 - نقلا: عن ابنه كنانة حنيش؛ المقابلة الثانية: بين الباحث باي أحمد عامر والأستاذ كنانة حنيش، المكان: بيت الشيخ الحبيب حنيش بحي الفاتح ماي ببلدية الوادي، ثم التنقل لقمار ومعاينة ميدانية في البلدة القديمة، بتاريخ: 17مارس 2023م.

4 - المصدر نفسه.

صمت وسمت، رجل قليل الكلام، كله بركة وعلم وخير"[1].

فجمع الله تعالى بفضله للشيخ الحبيب رقي الأدب وعمومه مع جميع الناس.

1-4- وفاة الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش المداني:

توفي الشيخ الحبيب يوم السبت 13 صفر سنة 1416هـ، الموافق لـ: 01 جويلية 1995م، ودفن بمسقط رأسه ببلدة قمار بولاية الوادي بالجزائر، تغمده الله بواسع رحمته. وهو نفس اليوم الذي صدر فيه قرار إحالته للتقاعد من عمله، في كتابة الضبط بمحكمة الوادي، حيث جاءه صديقه السعيد زلاسي مبشرا بوصول: قرار الإحالة عن طريق "التلقرام"، حيث قدم لبيته ليتفاجأ بخبر وفاته[2].

2- رحلات الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش المداني وإسهامه في الثورة الجزائرية:

2-1- هجرته مع عائلته إلى تونس:

نظرا لحاجة أبيه للعمل-كحال الكثيرين في تلك الفترة من الاستعمار- توجه أبوه إلى تونس، ثم لحقت به زوجته وابنهما الحبيب وعمره حينها عشر سنوات فقط، وذلك سنة 1933م، حيث استقر في تونس العاصمة، ورغب في الالتحاق بجامع الزيتونة، إلا أن شيخه عبد الجواد البنغازي القطراني أمره بالتفرغ للطلب عنده بالزاوية.

وبعد وفاة والده سنة 1944م، خلفه ابنه الحبيب في عمله في مصلحة النظافة "التطهير"، وكان يزاوج بين العلم والعمل حتى استقلال الجزائر سنة 1962م.

2-2- رحلته إلى فرنسا:

توجه الشيخ الحبيب إلى فرنسا قبل استقلال الجزائر، وبقي هناك مدة 09 أشهر، وحين عرضت عليه الجنسية الفرنسية؛ رفض التجنيس وفضل الرجوع إلى الجزائر بعد الاستقلال للمساهمة في بناء وطنه. وهو ما تبينه الرسالة التي كتبها الشيخ لصديقه عبد الله زهو؛ عن الحالة الاجتماعية في فرنسا وأوضاعها في تلك الفترة[3].

---

1 - إبراهيم خنفور؛ مقابلة بين الباحث باي أحمد عامر، مع الإمام إبراهيم خنفور، المكان: بيت الشيخ الحبيب حنيش بحي الفاتح ماي ببلدية الوادي، بتاريخ: 10 مارس 2023م.

2 - خزيمة حنيش؛ المقابلة الأولى: بين الباحث باي أحمد عامر وأبنائه الثلاثة: كنانة؛ وإلياس؛ وخزيمة؛ حنيش، المكان: بيت الشيخ الحبيب حنيش بحي الفاتح ماي ببلدية الوادي، بتاريخ: 10 مارس 2023م.

3- صالح فالح، حصة حول حياة الشيخ الحبيب، حصة إعلان ومعالم الإذاعية، بإذاعة الجزائر بوادي سوف، استضاف فيها ابنيه: كنانة حنيش، وخزيمة حنيش.

2-3- عودته إلى الجزائر:

عاد الشيخ الحبيب بعد المكث الطويل (1933-1962م) في تونس إلى مسقط رأسه بقمار، وعاش ببيت والده القديم، الموجود بالشارع الذي سمي باسمه فيما بعد: شارع الحبيب[1].

وفيه بنى بيتا جديدا[2]، ولكنه ما لبث إن انتقل إلى مدينة الوادي، حيث وظف في أول محكمة في مدينة الوادي.

2-4- مساهمته في الجهاد ضد المستعمر الفرنسي:

عند اندلاع الثورة التحريرية في الجزائر، انظم الشيخ إليها في المراحل الأولى، وكان تابعا لخلية الجبل الأحمر بتونس بقيادة السعيد عبد الحي، والمجاهدين علي شكيري، وزين العابدين، وكانت مهمته جمع التبرعات بالهيئة المسيرة لشؤون الجزائريين اللاجئين وشراء اللوازم وغيرها، واستمر عمله فيها حتى الاستقلال سنة 1962م[3].

3- السيرة العلمية للشيخ الحبيب بن عثمان حنيش المداني:

3-1- تحصيله العلمي والتربوي:

اهتم في صغره (وعمره 08 سنوات)[4] بحفظ القرآن الكريم في مسجد سيدي مسعود بقمار[5]، على يد معلم القرآن سي محمد أحمد بن لخضر، وهناك بعض الروايات تذكر حفظه القرآن ومراجعته أيضا على يد الشيخ العيد حوري، حتى أجاد حفظ القرآن ورسمه في سن العاشرة من عمره[6].

ثم انتقل إلى مدينة تونس ملتحقا بوالده، فتردد على كتاتيبها ودخل مدرسة الزاوية البكرية، حيث أمره شيخه عبد الجواد البنغازي القطراني -وهو عالم جليل وشيخ القراءات بالجامع الأعظم- بالتفرغ للطلب عنده، فلزمه الشيخ الحبيب مدة تزيد عن عشرين سنة، فكان له نعم المعلم والمربي، وبلغ في الطلب عنده حتى نال الإجازة في

1- انظر: صورة البيت القديم، المرفق رقم:05.

2- انظر: بيته الجديد في قمار ثم في ولاية الوادي في المرفق رقم:05+06.

3 - التجاني العقون، أعلام من قمار بوادي سوف (دط؛ مطبعة صخري،2013م)، ص91.

4 - المرجع نفسه.

5 - انظر المصورة المرفقة لمسجد سيدي مسعود بقمار؛ الصورة المرفقة رقم: 08.

6 - مقابلة كنانة حنيش (01).

القراءات العشر. وتعلم فيها مبادئ اللغة والنحو والصرف وغيرها من العلوم، وحصل على عديد الإجازات (كالإجازة في صحيح البخاري، والإجازة في الفقه في متن سيدي خليل...) [1].

وقد التقى بشيوخ وعلماء الزيتونة وأخذ عنهم، واستفاد منهم علم الفقه والحديث، ومن هؤلاء الشيخ المربي محمد المداني القصيبي الذي كان من أعيان الطبقة المالكية في الجامع الأعظم الزيتوني [2]، الذي انتسب إليه الشيخ الحبيب سنة 1949م، وأصبح اسمه مرتبطا به؛ تشرفا وودا وحبا له.

وقد كانت ملازمته للشيخ المداني بتوصية من الشيخ عبد الجواد البنغازي، الذي كان كثيرا ما ينبههم إلى علمه، ورسوخ قدمه في الطريق، كما كان يزكيه لهم باعتباره مربيا مأذونا، وأن على المريد السالك أن ينقاد إلى شيخ مربي حي، يرشدهم وييسر لهم سبيل التربية والتزكية.

وكانت بدايات الشيخ الحبيب مع شيخه المداني بلقاءات، وجه فيها العديد من الأسئلة حول مسائل التوحيد والشريعة، وكانت إجابات الشيخ المداني للشيخ الحبيب محل استحسان وأنس وإعجاب بما استفاده من بيان وعلم، فارتبط به الشيخ وتزود منه بكل حاجته في مساره الروحي من تلقين الاسم الأعظم وغيرها من الأذكار، فنالهم ما نال عباد الله السائرين [3].

وكان للشيخ الحبيب وزملائه نشاطا بارزا في عدد من زوايا الطريقة المدنية في تونس العاصمة وضواحيها، بتوجيه من الشيخ المداني بزاوية الجبل الأحمر، وكانت نشاطاتهم تتمحور حول المذاكرة بمختلف صنوفها، سواء منها الدورية أو المناسباتية، "فكانت أرواحهم ترتشف بالذكر والشكر من مياه الحكمة؛ ناطقين بها، وترتسم في سلوكهم آثار النعمة التي خصوا بأرجائها" [4].

3-2- شيوخ وأساتذة الحبيب بن عثمان حنيش المداني:

كما سبق الذكر فقد كان للشيخ الحبيب العديد من الشيوخ، ومن أبرزهم شيخه عبد الجواد البنغازي وشيخه محمد المداني، وفيما يلي تعريف بهم، وإشارة إلى اعتزازه بتلقيه

---

1 - التجاني العقون، أعلام من قمار بوادي سوف (مرجع سابق)، ص90. (بتصرف)؛ وانظر: مقابلة كنانة حنيش (01).

2 - المرجع نفسه.

3 - مقابلة كنانة حنيش (01) و(02).

4 - قول: كنانة حنيش؛ مقابلة كنانة حنيش (02).

عنهم والتربية على أيديهم:

أ- عبد الجواد البنغازي القطراني[1]: ولد يوم 10مارس 1897م بمدينة بنغازي الليبية، عالم القراءات واللغة وعلوم القرآن بالبلاد التونسية، قدم من ليبيا واستوطن بالمدينة العتيقة بباب سيدي عبد السلام. يعتبر إمام القراء بجامع الزيتونة من سنة 1920 إلى سنة 1959 ومصحّح المصاحف بالجامع الأعظم[2].

أخذ عنه الشيخ الحبيب الإجازة في القراءات العشر، وتعلم على يديه جملة من العلوم الشرعية، والذي قال عنه الشيخ الحبيب في إهداء مخطوطه رسالة الحج هو: "والدي الروحي أستاذي سيدي عبد الجواد بن بلقاسم البنغازي الخضري القطراني، الذي أرشدني إلى أن الحياء والعفاف والمثابرة على الجد، وحب الخير مع النصح، دعائم في نشر الفضيلة"[3].

ب- الشيخ المربي محمد المداني: وهو محمد المداني بن خليفة بن حسين، المولود بقصيبة المديوني بمعتمدية المنستير بولاية سوسة بتونس، وهو من مريدي وتلاميذ الشيخ أحمد العلوي المستغانمي المعروف ببن عليوة، الذي صاحبه لمدة ثلاث سنوات، وأخذ عنه الطريق وتلقى منه معارف التصوف، وأذن له بالرجوع إلى تونس ونشر طريق التصوف بها[4].

وقد سلك عنده الشيخ الحبيب حنيش طريق التصوف والتربية في زاوية الطريقة المدنية بقصيبة المديوني بولاية سوسة بتونس، والذي قال عنه في إهداء مخطوطه رسالة الحج هو: "والدي الروحي وملاذي الشيخ سيدي محمد بن خليفة المداني المديوني القصيبي العلاوي، الذي أيقنني أن حسن الخلق، أي الأدب المحمدي عاما وبالأخص رفع الهمة عن الخلق مع التواضع، ومراقبة الحق في الذات والصفات والأفعال، منتهى مطمح الخاصة العليا من الخلق"[5].

---

1 - انظر: صورة الشيخ عبد الجواد البنغازي، المرفق رقم: 03.

2- الهادي روشو، طبقات القراء والمقرئين بإفريقية وتونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2018م، ص440.

3 - الحبيب حنيش، مقدمة مخطوط رحلة الحج، مكتبة الحبيب حنيش، الموجودة ببيته في الفاتح ماي بالوادي.

4 - محمد بن مبارك غرنوق، مخطوط: الرسائل الواردة علي من قبل الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش (شهادة تالية للمقدمة، لمطبوعة مكتوبة لم تنشر بعد، ومن جميل وصى فيها الشيخ الحبيب حنيش عدم تقديم رسائله على رسائل شيخه)، ص3.

5 - الحبيب حنيش، مقدمة مخطوط رحلة الحج. مكتبة الشيخ الحبيب حنيش.

ج- **الشيخ رشيد النيفر**[1]: من شيوخ الطريقة المدنية، ومن علماء منطقة قرطاج بالعاصمة التونسية، ولد يوم 27 أكتوبر 1924، وتوفي يوم 02 جويلية 1998م. أخَذَ العهد على يد الشيخ سيدي محمد المداني سنة 1952، كما أكرمه الله بمرافقة شَيخه محمد المداني إلى بَيت الله الحرام لأداء الحَجَّة الثانية سنة 1955، وقد عايش الشيخ رشيد سيدي الحبيب أحنيش، وتعلم منه علوم الكيمياء وصناعة المعادن، وخلط العناصر، وبعد عودة الشيخ الحبيب حنيش للجزائر خلفه الشيخ رشيد النيفر؛ التَقْدِيمَ في الطريقة في مدينة تونس الكبرى.

3-3- أصدقاء الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش ومريديه:

كانت حياة الشيخ ومسيرته الطويلة ثرية بعدد من الأصدقاء والشيوخ الذين جمعهم السير في طريق الإحسان، من أبرزهم:

أ- **محمد بن المبارك غرنوق**[2]: وهو صديقه الحبيب ورفيق دربه، يقطن الآن بنهج العقيد لطفي بباب الوادي بالجزائر العاصمة. وهو من أصدقائه ومريديه، حيث قال في وصفه، واعترافا بجميل فضله:"العارف بالله سيدي الحبيب بن عثمان، الذي لم يزل يرعانا بأحواله وينير طريقنا بحكمه، وينمي معارفنا برسائله، جزاه الله على ذلك كل خير"[3]، "كان بالنسبة لي الأستاذ المطبق للأعمال الميدانية في الظاهر والباطن، حيث كان مستغرقا في أسرار التوحيد والقرآن ومعانيهما، ومعرفة مقاصد الشرع دراية ورواية "[4].

وقال في موضع آخر: "الأخ الكريم والصديق الحميم والأستاذ المطبق لما ورد في الشريعة الإلهية والعالم بأسرارها الآخذ بناصية علومها، والمربي العارف بمقامات السلوك، والمطلع على رعونة النفس البشرية، وميلها للمعاصي والفضول، والمتخصص في علوم القرآن، والموهوب في فهم معانيه، والعارف بالله حق المعرفة، وأعني بها المعرفة الذوقية التي كانت تنطوي عليها بواطن علماء الصحابة وعلماء التابعين ومن نسج على منوالهم من علماء الأمة إلى يوم الدين"[5].

---

1 - انظر: صورة الشيخ رشيد النيفر، المرفق رقم: 04

2 - انظر: صورة الشيخ محمد بن مبارك غرنوق، المرفق رقم: 04

3 - محمد بن مبارك غرنوق، مخطوط: المخلاة (مقدمة مجموعة رسائل ضمن مطبوعة للمؤلف لم تنشر بعد)، كتبها بتاريخ: 05 أوت 2001م، ص3.

4 - المرجع نفسه، ص6.

5 - محمد بن مبارك غرنوق، مخطوط: الرسائل الواردة علي من قبل الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش (شهادة تالية للمقدمة، لمطبوعة مكتوبة لم تنشر بعد، ومن جميل وصى فيها الشيخ الحبيب حنيش عدم تقديم رسائله على رسائل شيخه)، ص3.

ب- **عبد القادر شريط:** وهو من أصدقاء الشيخ المقربين الذين تربوا على يديه، وقد امتدت صداقتهما منذ سنة 1967م إلى يوم وفاة الشيخ الحبيب، وقد نهل من علمه وأخذ عنه الطريق، ومن جميل ما يذكره عن شيخه أنه كان كتوما ولم يصارحهم بمسائل السير والتربية، وأنه مأذون بتلقين الذكر، إلا قبل عامين من وفاته، وكان يقول معلقا عن قوله تعالى: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ**﴾ [سورة البقرة: 233]؛ أننا استفدنا من شيخنا حولين كاملين[1]، ويعني بذلك أنه قد تحقق بقصر المدة تمام المقصود من بيان الطريق وثماره.

ج- **علي بيكي:** وهو أحد أصدقاء الشيخ، زيتوني التكوين، متخصص في علم القراءات من مدينة قمار، وهو من الذين تتلمذوا مع الحبيب على يدي الشيخ عبد الجواد البنغازي.

وقد تعدد مريدو الشيخ الحبيب بن حنيش؛ وأصدقاؤه بين القدامى الذين كان لهم امتداد وجود بين تونس والجزائر، وبين من تواصل معهم بعد استقراره في قمار والوادي.

فمن أبرز القدامى نذكر: **عبد الله زهو، وبلقاسم ورخ** من قمار، وهم من الثلة الأولى الذين تتلمذوا على يديه في المنطقة.

ومن أصدقائه ورفقائه نذكر أيضا: **ميلود عثماني؛ والعيد بكيني؛ والعيد بن عمر: محمد براهمي؛ وعبد القادر شريط؛ وعبد الرزاق حرزولي؛ وأحمد براهمي؛ وأحمد النعاس؛ وجبالي محمد؛ وصالح عبيدي؛ والعيد بالي.**

وهم ثلة من المشايخ والأساتذة الفضلاء، الذين جمعتهم بالشيخ مجالس ذكر وعلم ومذاكرة.

4- إسهامات الشيخ الحبيب بن عثمان العملية وبعض مو اقفه السياسية:

تميز الشيخ الحبيب بسعة الاطلاع، والصبر على الطلب من صباه إلى آخر حياته، حتى تحصل لديه زاد علمي، وتربية عملية، وخبرة ميدانية في جوانب عدة، لذا وجدنا من وصفه: بالرجل الموسوعي، وصاحب الحكمة، والاستقامة على السلوك الرباني، وقد كان ذلك الزاد منطلقا لإسهامات عملية متنوعة نذكر منها:

4-1- إسهامه العملي في التعريف بالعلوم الشرعية وخدمة التصوف:

لقد بدأ نشاط الشيخ في مرحلة مبكرة في أيام طلبه للعلم في الزاوية البكرية في تونس،

1 - مقابلة كنانة حنيش (02).

حيث كان يزاوج بين تلقيه العلوم الشرعية وبين اهتمامه بالطلبة الوافدين من مدينة قمار والوادي عموما، تيسيرا لهم في شؤون إقامتهم، وتوجيها لهم إلى مواطن الاستفادة والاستزادة العلمية.

وبعد رجوعه واستقراره بالوطن، استمر عطاؤه العلمي والتربوي، فكان مرجعا لأهل بلدته في الفقه المالكي، والفتيا في مسائله، وعلم الفرائض، وأحكام القضاء، وكان إضافة إلى ذلك من الراسخين في معرفة رقائق التصوف مع فهم دقيق وراق للمعاني وغيرها[1].

ولم يقتصر النشاط الدعوي والتربوي للشيخ الحبيب على ما كان عليه في تونس، بل امتدت لقاءاته ومجالس الذكر والتذكير في مختلف المناسبات الدينية المعهودة بالعناية من المريدين، في مدينة قمار، وهي مجالس تشكلت من معارف الشيخ وتلاميذه الذين كان لهم سابق تواصل وتعارف في تونس أثناء نشاطهم في الزاوية المدنية، وتشكلت أيضا من عدد من أصدقائه ومريديه بالمنطقة، ومن ذلك: مجالس الذكر والصلاة على النبي الكريم والمدارسة والتفكر في أمور الدين، في بيت عم أمه: مبارك غرنوق، وأحيانا أخرى في بيت: عبد الله زهو، وهو أحد المريدين المنتمين للطريقة المدنية، الذين كان لهم سابق اتصال بالشيخ في تونس، كحال كثير من الطلبة الذين لقيهم بتونس فترة إقامته وتعلمه ونشاطه فيها[2].

فكانت "مذاكراته ترقية لأحوال المريدين ونقلا لهم من دياجير الغفلة والخذلان إلى أنوار اليقين والعرفان"[3].

4-2- النشاط الدعوي في المساجد:

لقد كان للشيخ الحبيب إسهام في القيام بجملة من الأدوار الدعوية في المسجد، وقد كان إسهامه شاملا لعدد من المساجد في مدينة قمار، **كمسجد العلامة أحمد دغمان، ومسجد عبد الرحمن خطابي** -757هـ[4]-: حيث كان يصلي بهم التراويح، ويقدم بعض الدروس، ويجيب على أسئلة الناس المختلفة.

وحين تنقل لمدينة الوادي، ساهم أيضا في النشاط العلمي في عدد من مساجدها، نذكر منها:

---

[1] - مقابلة كنانة حنيش (01).

[2] - مقابلة كنانة حنيش (02).

[3] - المصدر نفسه.

4 - انظر: صورة المسجدين، المرفق رقم:07.

أ – نشاطه بمسجد سيدي سالم: والذي كان محل اهتمام الشيخ، فاحتضن جملة من نشاطاته مع مجموعة من الطلبة والمهتمين بالعلوم الشرعية، ومن تلك النشاطات؛ تدريسه كتاب: جوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني، وتدريسه علم الفرائض، وقراءته وشرحه لكتاب: النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع، وكتاب: دليل الحيران على مورد الظمآن في الرسم القرآني، وهما كتابان لمؤلفهم التونسي إبراهيم بن أحمد مارغني[1].

ب- نشاطه بمسجد الفتح "الظهارة": حيث تم تكليفه في بعض المناسبات من طرف مديرية الشؤون الدينية بالقيام ببعض الإسهامات الدعوية والعلمية، من ذلك تكليفه بإمامة الناس وصلاة التراويح في رمضان بمسجد الفتح[2].

ج- النشاط شبه الدائم بمسجد العزازلة[3]: حيث كان يتعهده كل جمعة بعد الصلاة إلى صلاة العصر، مع إمام المسجد الطالب حمزة، من خلال قراءة بعض الكتب المختارة، وتقديم دروس في التوحيد والفقه وغيرها من المسائل الفقهية، ويحصل فيها من التذاكر والمدارسة والإجابة عن أسئلة من حضر، وغالبا ما كان يتبع تلك الجلسة بزيارات لبعض المشايخ والزوايا، كتعهده زيارة الشيخ غمام بحاسي خليفة والشيخ عبد الباقي مفتاح وغيرهم من العلماء الربانيين[4].

4-3- عمله في القضاء بمدينة الوادي:

بعد انتقال الشيخ الحبيب والعمل في أول محكمة في مدينة الوادي، حيث كان له إسهام كبير في مساعدة الناس وبيان الحقوق والواجبات والإجراءات، والإفادة للمتربصين الجدد من القضاة وكتاب الضبط، فقد تدرج فيها من كاتب إلى رئيس كُتَابْ الضبط، وكان مكتبه مقصد الكثيرين، حيث كان يُسَبِلُ جانبا كبيرا من جهده؛ لرقن عرائضهم وطلباتهم بالآلة الراقنة مجانا في سبيل الله تعالى[5].

وبعد خدمة طويلة في ميدان القضاء رغب الشيخ الحبيب في الالتحاق بسلك الإمامة التي ستتيح له التفرغ للدعوة والتوجيه، وتجسيدا لذلك شارك في مسابقة توظيف الأئمة،

---

1 - مقابلة كنانة حنيش (02).

2 - المصدر نفسه.

3 - انظر: صورة مسجد العزازلة، المرفق رقم: 09

4 - مقابلة كنانة حنيش (02).

5 - المصدر نفسه.

فكان الأول في رأس قائمة الناجحين، وتم تعيينه إماما بمسجد سيدي مسعود بسوق الوادي، غير أن ارتباطه بالمسجد لم يدم إلا شهورا قليلة؛ لأن وزارة العدل لم توافق على هذا الانتقال، رغبة في الاستفادة من خبرته الطويلة في ميدان القضاء[1].

4-4- بعض مو اقفه وإسهاماته السياسية:

رغم اهتمامات الشيخ الحبيب الصوفية والعلمية إلا أنه كان يتميز بالإيجابية والنصح، ويحوز على روح المبادرة التي تتمثل فيما يتخذه من مواقف فردية وجماعية أحيانا، بغرض تحقيق الصالح العام، وأبرز ما يميز هذه المبادرات انطلاقها من القيم الإيمانية والأخلاقية الراسخة في تربيته.

ومن هذه المواقف المشرفة، توجيهه رسالة إلى الأعضاء الستة عشر لمجلس الشيوخ الأمريكي -في عهد الرئيس كندي- يدعوهم فيها إلى التصويت في مجلس الأمن لصالح الجزائر، والضغط على فرنسا، آملا بأن تضم الولايات المتحدة صوتها لصوت الدول المؤيدة لاستقلال الجزائر، وقد تضمنت الرسالة تذكيرا بالمبادئ الإنسانية المشتركة، وبفضل الجزائر على أمريكا وكونها من الدول الأولى التي اعترفت باستقلالها، وقد كتب هذه الرسالة وهو ما يزال مهاجرا في الأرض التونسية[2].

ومن مواقفه الداخلية التي حصلت بعد الاستقلال، احتجاجه في عهد الرئيس الراحل بومدين رحمه الله، واعتراضه على صدور عملة نقدية تحوي صليبا في صورة خريطة جنوب الجزائر، فانبرى الشيخ الحبيب مع ثلة من الزملاء، وراسلوا الرئيس، وكان خلاصة مضمون رسالتهم: "متى كان للجنوب صليبا"، وقد أدت تلك المراسلة إلى الانتباه للخطأ، وتم التخلي عن تلك العملة التي أرادت التعبير عن وجود مسيحي في الجنوب تسببت فيه البعثات الكنسية الطارئة على المنطقة.

5- إسهامات الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش العلمية و آثاره:

لقد كان الجهد العلمي للشيخ الحبيب بارزا منذ كان في الديار التونسية، واستمر إلى آخر أيام حياته، بين تأليف ودراسة ومراسلة وغيرها، ومن أبرز ما يشار إليه من جهد:

5-1- المساهمة الواسعة في تصحيح المصحف التونسي (مصحف مطبعة المنار):

سلم الشيخ الخطاط التجاني المحمدي -كاتب المصحف- الشيخ عبد الجواد بن

1 - مقابلة كنانة حنيش (02)؛ وانظر: صورة مسجد سيدي مسعود، المرفق رقم: 10

2 - ينظر: نسخة من الرسالة في مكتبته بحي 01 ماي ببلدية الوادي، ولاية الوادي.

الغازي نسخة للقيام بتصحيحها، ولما كان الشيخ حينها مقبلا على سفر إلى مسقط رأسه ببن غازي في ليبيا؛ عهد بتصحيحها للشيخ الحبيب حنيش كلون من الثقة في كفاءته ومكانته، فلما رجع الشيخ عبد الجواد أقر عمله، وكان هذا بمثابة شهادة علمية عالية، وحصل بعد ذلك أن طباعة هذا المصحف حملت في بعض نسخها الإشارة إلى اسمه، ثم حذفت في الطبعات الحديثة.

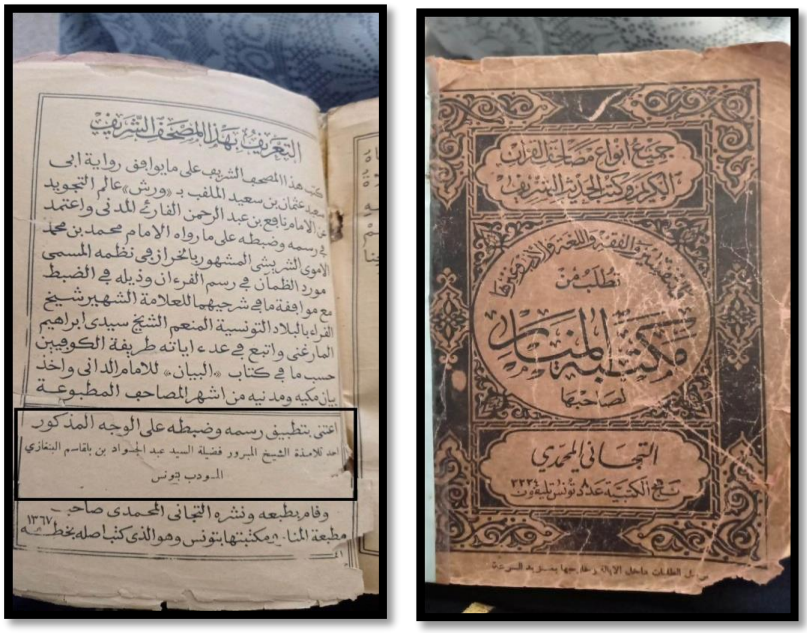

نسخة من واجهة مصحف المنار: التي تضمنت الإشارة لعناية ومراجعة الشيخ الحبيب

1- تأليف كتاب بعنوان: تلخيص في الإسلام والإيمان والإحسان (مخطوط):

وهو مخطوط تكلم فيه الشيخ عن الإسلام وأركانه، وعن الإيمان وبعض مباحثه بشكل دقيق ومفصل، وأحيانا بشكل مركز في مخططات وجداول، ثم تكلم فيه عن الإحسان ومسالك التربية والتخلق عند المسلم[1].

وقد أوقفني الأستاذ كنانة ابن الشيخ الحبيب على المخطوط، وهو كراسة تقع في قرابة مئتي صفحة(200ص)، كتبه المؤلف بخط يده بالمداد وبطريقة بعض القدماء، حيث تميز المخطوط في مضامينه بالتركيز والتلخيص في العبارة.

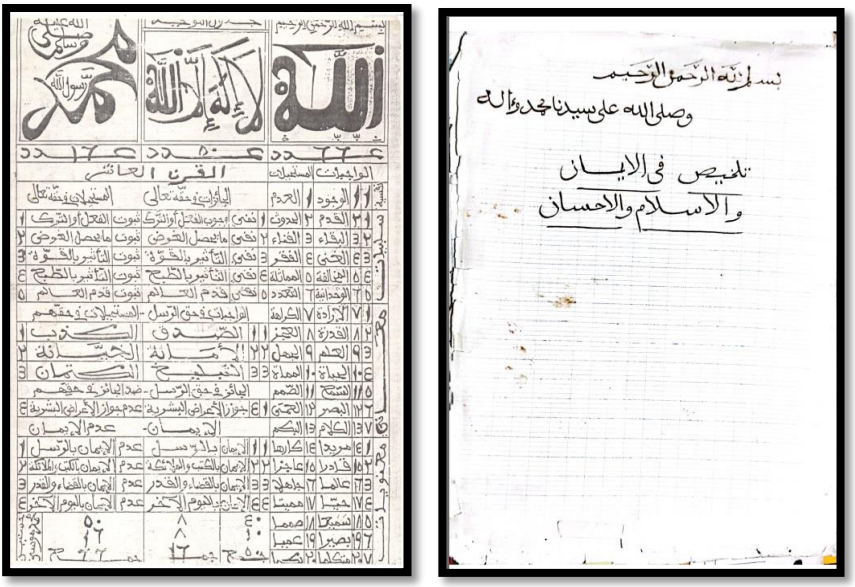

صورتان: واجهة المخطوط وأحد الجداول المتضمنة فيه

2- تأليفه كتاب: رحلة الحج(مخطوط):

والذي ألفه في رحلته للحج مع شيخه سيدي محمد المداني وعدد من المريدين، منهم: رشيد النيفر، ومحمد النيفر، وإسماعيل الهادفي شيخ قراء الزيتونة وغيرهم من الفضلاء، وكان ذلك بتاريخ: 1955/08/07م، حيث قام فيه بتفصيل أحداث الرحلة ومناطقها،

1 - ينظر: الحبيب حنيش، مخطوط: "تلخيص في الإسلام والإيمان والإحسان"، المخطوط موجود بمكتبه.

ومختلف الأحداث الجزئية التي حصلت خلال تنقلاتهم في رحلة الذهاب[1].

وقد بين في مقدمة مخطوطه أن للشيخ المداني الدور البارز في تحفيزه بعد التراخي عن الأداء والاستعداد لفريضة الحج، قائلا في حقه: " كنا غير مجدين بل غير باذلين قصارى جهدنا ومتسلين في ذلك بعذر العوام: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾ [آل عمران:97].. فمن الله علينا بأستاذنا الصوفي الكامل والمرشد الديني العامل سيدنا الحاج المداني المديوني عازما علي الحج ولم يزل.. فنهضت من أوحال التراخي والهزل إلى الجد والحزم، فتيسرت أسبابنا بدون تحرج مع ضيق ذات اليد وهي كرامة شاهدناها لأستاذنا"[2].

وقد تشرف الشيخ الحبيب في هذه الرحلة بدخول الكعبة وصلاة ركعتين فيها، حيث صادف اليوم الوحيد الذي تفتح فيه سنويا، ورغم الزحام الشديد لدخولها، فقد وجد في تلك الفرصة سبيلا لدخولها والصعود إلى سطحها، ومنعه خلقه وحياؤه من الصلاة فوقها لوجود الناس وصلاتهم في صحنها[3].

ولم يكن تدوين الكتاب ذا طابع أدبي صرف، حيث تنوع بين مذاكرات، ووصف دقيق لبعض المناطق المزارة، وجوانب تاريخية، وحوارات متعددة في بعض العلوم كالفلك والرياضيات وغيرها، ومناظرات بينه وبين بعض العلماء والمشايخ[4].

ومن جملة ما تضمنه المخطوط لقاؤه وحواره العلمي مع الشيخ عمار الأزعر القماري السوفي سنة 1955م، الذي كان مقيما في المدينة المنورة، حيث استقبلهم وأكرمهم غاية الإكرام، كما يحصل مع عديد الحجيج القادمين من منطقة قمار، حيث يحرص الشيخ شخصيا على رعايتهم، فحصل بينهما حوار علمي عميق[5].

ويذكر الشيخ ندمه لابنه الأستاذ كنانة عن عدم تفصيل رحلة العودة، التي تميزت بالاختصار والإجمال.

1- مقابلة كنانة حنيش (01).

2 - الحبيب حنيش، مقدمة كتاب رحلة الحج، المخطوط موجود بمكتبته.

3 - صالح فالح، حصة حول حياة الشيخ الحبيب، حصة إعلان ومعالم الإذاعية، بإذاعة الجزائر بوادي سوف، استضاف فيها ابنيه: كنانة حنيش، وخزيمة حنيش.

4 - المصدر نفسه.

5 - مقابلة كنانة حنيش (01).

3- كراستان في شرح كتاب المصباح في علم القراءات والرسم القرآني، أملاهما عليه شيخه عبد الجواد البنغازي الليبي **(مخطوطتان).**

4- عدد من الكراريس المخطوطة في علم الرسم القرآني.

5- بحث في أصول الخط العربي: وهو مخطوط قام سيدي الحبيب بكتابته ردا على تشكيك أحد المستشرقين في أصول اللغة العربية وردها إلى اللغة العبرية، فانبرى للرد عليه في بحث دقيق مفصل، موجود في مكتبه إلى اليوم ولم ينشر بعد[1].

6- مراسلات الشيخ الحبيب لصاحبه محمد بن مبارك غرنوق: (مخطوط)

وهي مراسلات تمت بين الشيخ الحبيب حنيش وبين صديقه المقرب إلى قلبه الشيخ محمد بن مبارك غرنوق المقيم في العاصمة الجزائرية، وقد حملت في مضامينها الكثير من الود والمحبة والذوق، كما حملت في طياتها عديد الفتاوى والنصائح التربوية، والأحكام والقواعد السلوكية، واللطائف الربانية في فهم النصوص الشرعية، وقد جمع الشيخ محمد غرنوق تلك الرسائل في مطبوعة منظمة، ضمنها سيرة مختصرة عن الشيخ الحبيب وبعض صوره، ووضع فيها لكل رسالة عنوانا مناسبا[2].

كما ضمن الشيخ محمد بن مبارك غرنوق بعض رسائله في مخطوط لم ينشر بعد، سماه: "المخلاة؛ رسائل في الطريق لأهل العلم والتحقيق"، حيث جمع فيه عديد الرسائل التي تلقاها ووجهها لأصدقائه ومشايخ الطريق، وقال في سبب تسميتها المخلاة أنها حقيبة يجمع صاحبها ما يحتاجه في طريقه الطويل والشاق، ومن لطيف ما ذكر فيها أنه حين عرض على الشيخ الحبيب المطبوعة للمراجعة والإثراء –الذي لم يتم للأسف- أكد له على ضرورة تأخير رسائله عن رسائل شيخه المداني، تأدبا معه واعترافا له بجميل سبقه وفضله[3].

7- المكتبة العلمية الموقوفة للشيخ الحبيب بن عثمان حنيش:

كان الشيخ محبا للعلم ومستديما في طلبه إلى آخر أيام حياته، شغوفا بجمع ما استطاع من أمهات المصادر والمراجع، فأولى جهدا وعناية خاصة بمطالعتها ودراستها،

---

1 - مقابلة كنانة حنيش (01).

2 - محمد بن مبارك غرنوق، مخطوط: مذكرة الرسائل الواردة علي من قبل الشيخ الحبيب عثمان أحنيش، موجودة نسخة منها في مكتبة الشيخ الحبيب حنيش، ونسخة أخرى في مكتبة الزاوية الهبرية.

3 - محمد بن مبارك غرنوق، فاتحة المخطوط: المخلاة؛ رسائل في الطريق لأهل العلم والتحقيق، موجودة نسخة منها في مكتبة الشيخ الحبيب حنيش، ونسخة أخرى في مكتبة الزاوية الهبرية.

وترك للباحثين مكتبةً غنيةً بأمهات الكتب، وبعض المخطوطات الخاصة به، سيما كتب التصوف القديمة والحديثة.

ومازالت المكتبة إلى اليوم محل عناية من أبنائه، حيث بوبها وقسمها ابناه: الأستاذان خزيمة وكنانة؛ على أربعة أقسام: الفقه، التفسير، التصوف، الأدب[1].

وهي مكتبة مازالت موقوفة إلى اليوم في بيته بحي الفاتح ماي بالوادي، وحسب ما أكد أبناؤه، أنهم يعتزمون تخصيص مقر خاص بها في الجانب المحاذي للطريق، كي تكون وقفا متاحا لطلبة العلم وكل المهتمين بطلب العلم الشرعي بمختلف تخصصاته[2].

الخاتمة

ومن أبرز نتائج البحث ما يلي:

- من خلال الوقوف على سيرته العلمية والعملية، يتأكد لكل دارس أن الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش يعتبر من أبرز شيوخ وأعلام التصوف في منطقة قمار والوادي، فقد كانت حياته كلها استمداد وإمداد علمي وعملي، منذ بدايتها في مرحلة الطلب بقمار ثم تونس، إلى نشاطه الدؤوب بمدرسة الزاوية البكرية، ثم الزاوية المدنية بتونس، وصولا إلى العطاء الممتدة بعد عودته إلى مدينة الوادي.

- جمع الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش في سيرته بين العلم والعمل، والشريعة والحقيقة، وبين جهاد القلم وجهاد المستعمر، وبين حياته العلمية وتجربته الروحية، وبين مبادراته وأدواره الاجتماعية والسياسية، وهو تكامل في الأدوار يعز عند كثير من نظرائه.

- كان الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش أحد جسور التربية والطريق الصوفي، فقد حظي بزاد علمي وافر على يد شيخه عبد الجواد البنغازي، وبزاد تربوية وروحي على يد شيخه محمد المداني، فاكتمل بناءه المعرفي، وأجازوه في نشر العلم والدعوة إلى طريق الإحسان، وهو المسلك الذي كان له ثماره في عديد المريدين في الديار التونسية، ومدينة الوادي.

- كان الشيخ الحبيب بن عثمان حنيش لا يتردد في المساهمة في خدمة بيوت الله ونشر العلم متى ما دعي، وهو الأمر الذي جعله حاضر العطاء في عدد من المساجد بمدينة قمار

---

[1] - صالح فالح، حصة حول حياة الشيخ الحبيب، حصة إعلان ومعالم الإذاعية، بإذاعة الجزائر بوادي سوف، استضاف فيها ابنيه: كنانة حنيش، وخزيمة حنيش.

[2] - المصدر نفسه.

ومدينة الوادي.

■ لقد كان طلب العلم واستمراره أسلوب حياة عند الشيخ الحبيب بن عثمان، الأمر الذي جعله يسهم بإرث علمي متنوع بين تأليفه لعدد من الكتب والكراريس والرسائل المخطوطة، ومساعدته العملية للناس في الاستشارات الشرعية والعلمية، وبين وقفه لمكتبة عامرة بالكتب للمريدين والباحثين في مختلف التخصصات.

ومن أبرز التوصيات:

■ التوصية للباحثين في الهيئات والمؤسسات العلمية بتحقيق مخطوطاته وكتبه وسائله المختلفة، وحفظها بوسائل الحفظ المتخصصة، ويبقى المجال مفتوحا لكل المهتمين بتراث المنطقة وأعلامها.

■ التوصية بتوجيه عدد من المختصين لخدمة مكتبته بشكل علمي، وتصنيفها وتبويبها ووضع الفهارس لها، وفق التصنيف العلمي المتخصص في علم المكتبات، ونشر تلك المعطيات في المواقع الإلكترونية المتخصصة، حتى يتسنى للباحثين الاستفادة منها على مستوى وطني.

■ توصية لوزارة الثقافة بالعناية بتراث الشيخ، وسعي مديرية الثقافة بالوادي إلى تبني مشروع بناء المكتبة الوقفية للشيخ الحبيب حنيش.

■ توصية بتكريم هذه الشخصية، وتسمية بعض المؤسسات التربوية أو المساجد خاصة في منطقنا باسم الشيخ الحبيب حنيش المداني، كعربون شكر وإرشاد من الأجيال الحالية لمن سبقهم من العلماء، مع ما يحصل من تعريف بشيوخنا وعلمائنا.

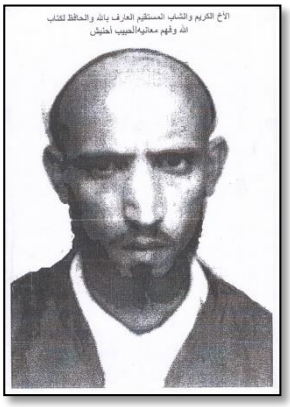

المرفق01: صورة لسيدي الحبيب بن عثمان حنيش المداني

المرفق02: صورة لشجرة النسب للشيخ الحبيب المداني.

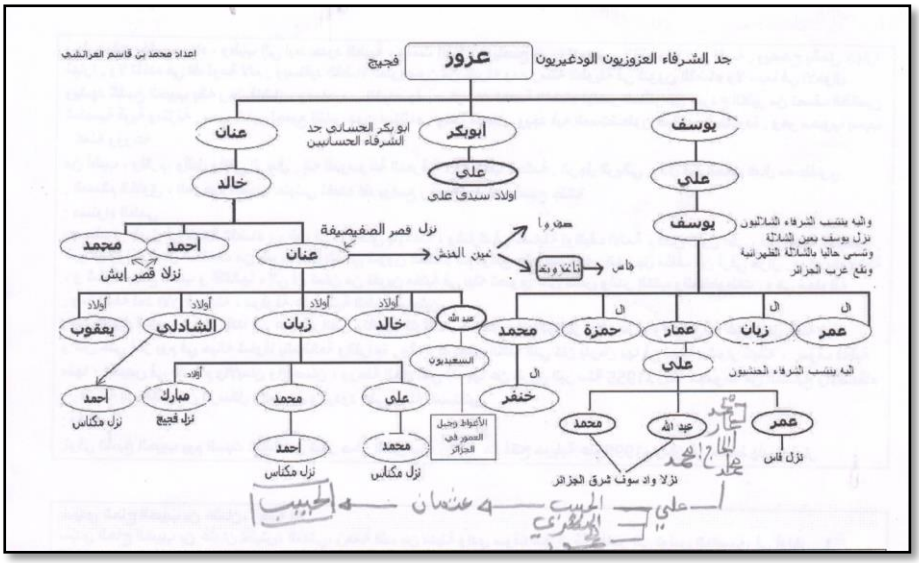

المرفق03: صورة للشيخ محمد المداني القصيبي (في اليمين)

وشيخه عبد الجواد البنغازي (في اليسار)

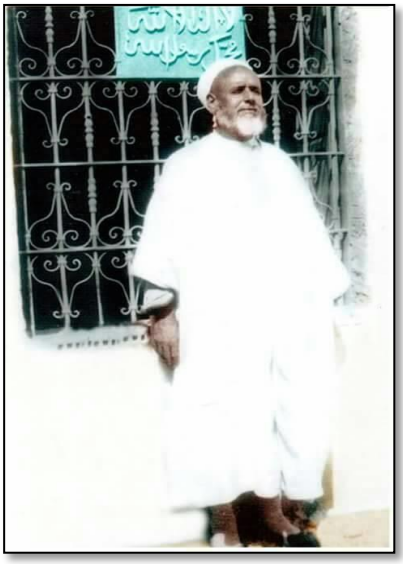

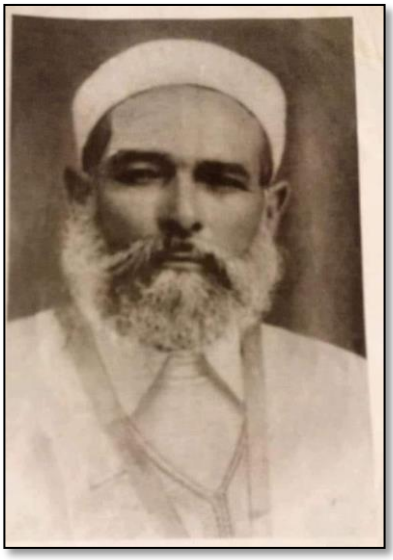

المرفق04: صورة للشيخ رشيد النيفري (في اليمين)

وصورة للحبيب مع صديقه المقرب محمد بن المبارك غرنوق (في اليسار)

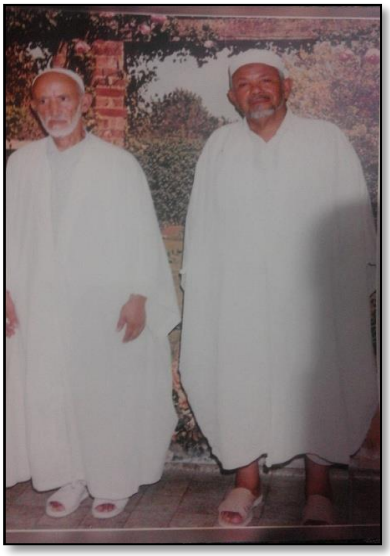

المرفق05: بيت سيدي الحبيب حنيش القديم والجديد

بمدينة قمار- بولاية الوادي

المرفق06: بيت سيدي الحبيب حنيش الجديد، حيث توجد مكتبه الخاصة بحي 01 ماي، بمدينة الوادي - بولاية الوادي

المرفق07: مسجد سيدي عبد الرحمن الخطابي ومسجد العلامة أحمد دغمان بمدينة قمار- بولاية الوادي

المرفق08: مسجد العتيق سيدي مسعود – بقمار

المرفق9: مسجد زاوية سيدي سالم (في اليمين)
ومسجد العزازلة (في اليسار)- ببلدية الوادي

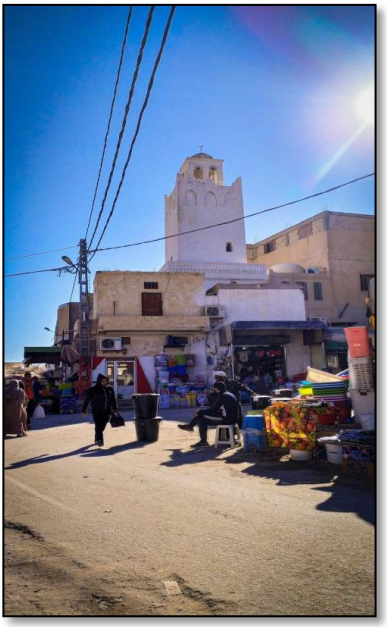

المرفق10: مسجد العتيق سيدي مسعود الشابي – ببلدية الوادي

(الصورة القديمة للمسجد)

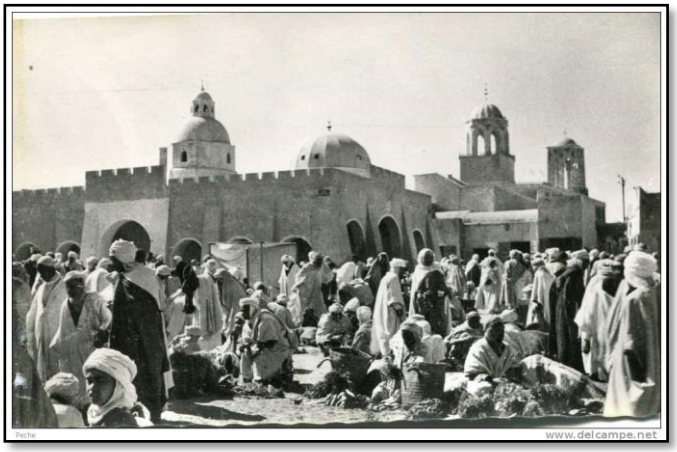

الشيخ عبد الباقي مفتاح وجهوده في خدمة التصوف

ط.د/ الزازية خذيري، إشراف: **د/ زهير بن كتفي**

كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي

zazia-khediri@univ-eloued.dz

مقدمة

عُرفت منطقة وادي سوف عبر تاريخها بتبنيها للتّصوف وحب أهلها للعرفان وأنصاره وخاصّته، ولا أدلّ على ذلك من وجود أقدم زاوية تجانية على أرضها تعود لقرنين وأربعين عاما خلت. فانتشر التصوف بزواياه في ربوعها فكان له شيوخ ومريدون جيلا عن جيلٍ. ومن هؤلاء الشيخ عبد الباقي مفتاح المتخصص في تفسير وشرح ما خفي من مقالات ومفاهيم الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي وعرض سيرته، بالإضافة إلى كتاباته الكثيرة في التصوف والطرق الصوفية، إلى جانب العمل الكبير الذي قدمه للقارئ العربي وللمكتبة العربية الإسلامية وهو ترجمته إلى العربية لمؤلفات شيخ التصوف الغربي "رينيه جينو"، الشيخ "عبد الواحد يحي" كما سمى نفسه.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في إرادتها الإسهام في إبراز الرصيد المعرفي الصوفي الضخم للشيخ عبد الباقي مفتاح، وطرحها لطلاب التّخصص بغرض مساعدتهم على تكوين فكرة ينطلقون منها لمزيد من الحقائق المعرفية. بينما هدفها الرئيسي يتمثل في محاولة إلقاء الضوء على هذه الشخصية التي خدمت التصوف من كل جوانبه تعريفا وتحليلا، شرحا وإيضاحا. مع إبراز إسهاماته العلمية من تأليف وترجمة.

من خلال ما سبق يتبن لنا الإشكال الرئيسي لهذه الدراسة: من هو الشيخ عبد الباقي مفتاح؟ وما هي أبرز أعماله في التصوف؟ ومن بين الأسئلة الفرعية التي قد تساعدنا وتسعفنا على الإحاطة بالموضوع:

- ماهي أبرز العوامل التي ساعدت في تكوين شخصية الشيخ عبد الباقي مفتاح؟

- وما سرّ الرابط الذي جمعه بالشيخ محي الدين العربي ورنيه جينو؟

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي؛ لأنه يناسب طبيعة الموضوع والغاية المتوخاة منه.

وتم عرض المادة العلمية لهذا البحث وفق خطة تضمنت مقدمة ومطلبين وخاتمة، عرضت في المطلب الأول سيرة الشيخ عبد الباقي مفتاح وإسهاماته العلمية، أما المطلب الثاني فتكلمت فيه عن رؤية الشيخ للتصوف وعلاقته بمحي الدين ابن العربي ورينيه جينو.

المطلب الأول: سيرة الشيخ عبد الباقي مفتاح وإسهاماته العلمية

عادة عندما نريد أن نكتب عن شخصية ما، نستحضر آثارها ومنجزاتها ومع بدء التصفح والقراءة تتشكل لنا رابطة أو علاقة ما، بطريقة أو بأخرى مع هذه الشخصية، غير أني عندما أردت الكتابة أول مرة عن الشيخ عبد الباقي مفتاح، أطال الله عمره على هدى وصلاح، اندهشت لمدى ثقل رصيده العلمي الصوفي، وكثافة كتاباته المحبّرة بالفهم الواسع ودقة الشرح وسعة الأفق لديه، لكن عندما تواصلت معه وجلست بين يديه أيقنت أن ما يزين العلم ويرفع الإنسان هو التواضع، وكما قيل أشد العلماء تواضعا أكثرهم علما كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء، وسيدي الشيخ عبد الباقي مفتاح هو بحر لمن أراد الولوج في محيط الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي.

1-مولده ونشأته:

إنه الشيخ عبد الباقي مفتاح، الأقماري مولدا، الجزائري جنسية، الهبري طريقة والأكبري مشربا. ولد يوم 9 أفريل 1952 بمدينة "أقْمَار" كما يسميها باسمها الأصلي (قمار) وهي مدينة صغيرة تقع في ولاية وادي سوف في صحراء الجهة الشرقية الجنوبية من قطرنا الجزائري، وفيها كان تعلّمه القرآني والابتدائي والمتوسط. أمّا تعلّمه الثانوي فكان في معهد تكوين المعلمين بقسنطينة، ودراسته الجامعية كانت في الجزائر العاصمة في مادة العلوم الفيزيائية، حيث تخرّج سنة 1975. بعدها انخرط في الخدمة العسكرية الوطنية مدة عامين. ثم عمل مدرّسا للفيزياء والكيمياء والرّياضيات في المعهد الجزائري للبترول بمدينة حاسي مسعود مدة ست سنوات. ثم مدرّسا في ثانوية بلدته "أقْمَار" مدة عشرين سنة. بعدها تقاعد التقاعد المسبق.[1]

أسلافه القدامى كانوا ينتسبون إلى الطريقة القادرية. ثمّ إنّ جدّ جدّه أخذ الطريقة عن الشيخ سيدي أحمد التجاني سنة 1201 هـ وكان من أوائل أصحابه مع تسعة آخرين

[1] ينظر: الحوار الذي أجراه الشيخ عبد الباقي مفتاح مع: محمد رستم وهاني طلعت، أوت 2021.(باللغة الإنجليزية). ومحمد صالح الضاوي: "الشيخ الأكبر "الصغير: عبد الباقي مفتاح أحد أقمار وادي سوف ومفتاح العرفان الإسلامي المعاصر، حفل تكريم الشيخ عبد الباقي مفتاح من قبل مجمع الشروق، في 09 مارس 2022.

من بلدة "أقمار"، وأرشدهم إلى بناء زاوية هناك، فشيّدوها سنة 1204 هـ وهي أوّل زاوية تجانية في العالم، كما فصّل ذلك في كتابه: "أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه" ومنذ عهد تشييدها إلى اليوم تقام يوميّا في هذه الزاوية حلق الذكر وغيرها من الأنشطة الروحية والعلمية والاجتماعية. ومنذ عهد جدّ جدّه المذكور توارثتْ الأسرة الطريقة التجانية، فأهله كلهم منخرطون فيها ملتزمون بأورادها، ومنازل أسرة الشيخ متداخلة مع منازل الزاوية ومنازل القائمين عليها، وهو الآن يسكن بجوارها، ويحضر مجالس الذكر فيها، ففيها نشأ ومنها أخذ تربيته الأولى منذ الصغر.[1]

2-اهتمامه بالعلم:

اطلع الشيخ، منذ صغره، على أهمّ كتب الطريقة التجانية، مثل: كتاب "جواهر المعاني" لعلي حرازم، وكتاب "الجامع" لابن المشري، وكتاب "الرماح" لعمر الفوتي، وكتاب "بغية المستفيد" للعربي بن السائح، و"ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التجانية" لعبيده التشيتي، ووجد فيها اقتباسات كثيرة من كلام الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن العربي، وكان والده الشيخ أحمد - رحمه الله تعالى- إماما ومن أهل العلم ومحبّا له وقارئا للفتوحات المكية، وهو الذي أرشده إلى مكتبة الزاوية التجانية التي يسكن بجوارها والتي تضمّ نسخة من الطبعات الأولى القديمة للفتوحات في أربعة مجلدات كبيرة. فشرع الصبيّ ابن الأربعة عشر ربيعا، في استعارتها وقِرَاءتها مجلدا تلو مجلد. ومنذ ذلك الحين نشأت صلة روحية بينه وبين الشيخ الأكبر استمرت إلى اليوم. وفي تلك الأثناء قرأ أيضا كتاب "المواقف" للأمير عبد القادر الجزائري وكتب الطريقة العلوية الدرقاوية وغيرها.[2]

من خلال ما سبق نستشف وجود عاملين أساسيين أثرا في تكوين شخصية الشيخ عبد الباقي مفتاح، العامل الأول: البيئة التي نشأ فيها، فحيَّه مناصف للزاوية التيجانية وبيته ملاصق لها فنشأ في جو القرآن والاهتمام بالصالحين والأناشيد الصوفية والكتب التي قرأها مذ صغره. العامل الثاني: الرغبة الذاتية الفطرية في معرفة الحقائق الوجودية، وهذا الذي جعله يختار دراسة العلوم الفيزيائية، يقول الشيخ مفتاح: "كنت أظن أنه من خلال دراسة العلوم الدقيقة يمكنني الوصول إلى الحقيقة ولكني أدركت بعد ذلك أن كل

[1] أجوبة عن أسئلة طرحتها قناة عمانية على الشيخ عبد الباقي مفتاح. وينظر أيضا: الحوار الذي أجراه الشيخ عبد الباقي مفتاح مع: محمد رستم وهاني طلعت، أوت 2021.(باللغة الإنجليزية).

[2] محمد صالح الضاوي، الشيخ الأكبر الصغير عبد الباقي مفتاح.

هذه العلوم الحديثة تفضي بك إلى مزيد من الحيرة والتساؤل ولا توصلك مطلقا إلى الحقيقة. ثم تبيّن لي أن روح الدين ولبابه هو التصوف، إذا فهمنا بأن التصوف هو مقام الإحسان وأن طرق التصوف هي التدرج في مدارج الإسلام، وحقائق الإيمان، ومعارج الإحسان، وثمرته المعرفة بالله التي هي مطلوبة من كل عاشق للحقيقة."[1]

كان الطالب عبد الباقي، يلتهم كل كتب التصوف التي تقع بين يديه، وكان يعلم أن هذا البحر لا يكتفي بالعلم النظري، وأنه لا بد له من السلوك على يد شيخ مربي حيّ، من هنا بدأت رحلة البحث عن الكنز المخفيّ، عبر زوايا الوطن ومقامات أوليائه، حتى وجد بغيته في الشيخ سيدي محمد بلقائد التلمساني (1911-1998) شيخ الطريقة الهِبْرِيّة الدرقاوية الشاذلية، أخذ عنه الطريق سنة 1973[2]. فسيدي محمد بلقائد هو شيخه الوحيد ليس له سواه، وهو الذي رسّخ الرابطة القديمة مع الشيخ الأكبر.[3]

والشيخ سيدي محمد بلقائد هو شيخ الإمام الشهير العلامة المصري سيدي محمد متولي الشعراوي (1911- 1998) الذي كان رئيسا للبعثة الأزهرية المصرية في الجزائر خلال الستينيات وبداية السبعينيات من القرن الماضي، وأخذ الطريق عن الشيخ في أواخر الستينيات، وذكر في الخلوة الاسم الأعظم المفرد سنة 1972. [4]

وخلال بداية الثمانينيات وجّهه الشيخ إلى بناء زاوية في بلدته "أقمار"، فبناها الفقراء وفُتِحت سنة 1987، وهي -بحمد الله تعالى- قائمة بوظائفها التربوية والتعليمية والاجتماعية منذ ذلك الوقت.[5]

3-إنجازاته العلمية:

عرف الشيخ مفتاح بزخم كتاباته وتنوعها بين شروحات وترجمات وتحقيقات، فكتبه المطبوعة حتى سنة 1444هـ/2022م 50 كتابا. وهي مقسّمة إلى كتب تتحدث عن الشيخ

---

[1] حوار شخصي أجريته مع الشيخ عبد الباقي مفتاح في منزله يوم: 2023/02/06 على الساعة: 10صباحا.

[2] والشيخ سيدي محمد بلقايد أخذ الطريق عن شيخه سيدي محمد الهبري (توفي سنة 1939) وهو عن أبيه سيدي الحاج محمد الهبري (توفي سنة 1899) وهو عن سيدي محمد بن قدور الوكيلي الكركري (الذي هو شيخ سيدي حمو البوزيدي المستغانمي شيخ سيدي أحمد بن مصطفى بن عليوة شيخ الطريقة العلوية الدرقاوية)، وهو عن سيدي محمد الباشا وعن سيدي أبي عزة المهاجي، وهما عن مولاي العربي الدرقاوي رضي الله عنهم جميعا.

[3] محمد صالح الضاوي، الشيخ الأكبر الصغير: عبد الباقي مفتاح.

[4] حوار أجراه الشيخ عبد الباقي مفتاح مع: محمد رستم وهاني طلعت، أوت 2021.(باللغة الإنجليزية)

[5] محمد صالح الضاوي، الشيخ الأكبر الصغير: عبد الباقي مفتاح.

الأكبر ابن العربي وعرفانه، وبين ترجمات لمؤلفات رينيه جينو، إضافة إلى كتب أخرى.

أولاً-حول الشيخ الأكبر سيدي محمد محيي الدين بن العربي (560هـ-638هـ):

1 - حلّ المقفلات من كتاب "فصوص الحكم لابن العربي" بالأسماء الحسنى والآيات [وعنوانه الآخر: (المفاتيح الوجودية والقرآنية لفصوص الحكم لابن العربي)، وعنوانه الآخر في طبعة أخيرة بدار نينوى بدمشق: "الكشف الأتم عن مفاتيح فصوص الحكم"] (نشرته دار عالم الكتب الحديث في الأردن، ودار البراق ببيروت، ودار الكتب العلمية ببيروت، ودار القبة الزرقاء في مراكش؛ وترجم إلى الفارسية والتركية والفرنسية، والإيطالية).

2 - سيرة محمد محيي الدين بن العربي [وعنوانه الآخر: ختم القرآن محمد محيي الدين بن العربي] (نفس دور النشر المذكورة في "1"وترجم إلى التركية).

3 - الشرح القرآني لكتاب "مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية" لابن العربي (نفس الناشر الأردني، ودار الكتب العلمية ببيروت - وترجم إلى التركية وإلى الفرنسية).

4 - الشرح القرآني لكتاب التجليات لابن العربي (نفس الناشر الأردني).

5- حقائق القرآن عند ابن العربي (نفس الناشر الأردني).

6- الكمالات المحمديّة والإنسان الكامل، في رؤية ابن العربي (نفس الناشر الأردني).

7 - الحقائق الوجودية الكبرى في رؤية ابن العربي (دار نينوى بدمشق، ونفس الناشر الأردني).

8- شروح ومفاتيح لمفاهيم الشيخ الأكبر محي الدّين بن العربي (نفس الناشر الأردني، ودار الكتب العلمية ببيروت).

9- الردّ على محمود الغراب في تشريحه لفصوص الحكم لابن العربي (نفس الناشر الأردني).

10- شروح على التفسير الإشاري للقرآن الكريم لابن العربي (كل السور) في أربعة مجلدات (نفس الناشر الأردني).

11- حقائق الأسماء الحسنى وشرحها عند ابن العربي (نفس الناشر الأردني).

12- تحقيق وشرح كتاب "إشارات القرآن في عالم الإنسان" لابن العربي (دار نينوى بدمشق).

13- تحقيق كتاب "لواقح الأسرار من كلام ابن العربي" لابن سودكين، مع تعقيبات حول بعض فقرَاته (دار نينوى بدمشق، ودار الكتب العلمية بيروت) - ترجم إلى الانجليزية.

14 - شرح كتاب "عنقاء مغرب في ختم الولاية وشمس المغرب" لابن العربي (دار نينوى بدمشق، ودار الكتب العلمية ببيروت).

15- شروح حول تفاسير البسملة والفاتحة لابن العربي (نشر في دار الكتب الصوفية والفلسفية في الجزائر).

16- المرجعيات القرآنية الخفية لأبواب كتاب "الفتوحات المكية" لابن العربي (نفس الناشر الأردني).

17- شروح على أبواب الفتوحات المكية لابن العربي (يحَضّر للطبع في عدة أجزاء في دار نينوى بدمشق).

18- الشرح التامّ لكتاب "أيّام الشأن" لابن العربي (دار نينوى بدمشق. ترجم إلى الفرنسية).

19- المفاتيح القرآنية لكتاب التراجم ولكتاب الشاهد لابن العربي (دار نينوى بدمشق).

20- العرفان عبر تاريخ كبرى الملل في رؤية الشيوخ عبد الواحد يحيى (رنيه جينو) وابن العربي وعبد الكريم الجيلي (دار نينوى بدمشق، ونشرته دار الكتب الفلسفية والصوفية في الجزائر بعنوان: "الملة الأصلية").

21- السماع والمصطلحات والرّموز الصوفية عند عبد الكريم الجيلي وابن العربي (نفس الناشر الأردني).

22- تحقيق وتقديم وشرح كتاب "الميزان في حقيقة الإنسان" لابن العربي (نفس الناشر الأردني).

23- شرح ألفية الشيخ مصطفى البكري في التصوف من كلام ابن العربي (دار الكتب العلمية بلبنان).

24: ديوان الإشارات القرآنية لابن العربي (دار الكتب العلمية بلبنان).

25: شرح كتاب "الإسراء إلى المقام الأسرى" لابن العربي (دار الكتب العلمية بلبنان).

26: نتائج الأذكار في المقربين والأبرار والأقطاب والأخيار لابن العربي: تعقيبات وشروح (طبع في مصر).

27: مفاتيح علم أسرار الحروف عند ابن العربي (يُحضّر للطبع في دار الكتب الفلسفية والصوفية بالجزائر).

28: شروح وتعقيبات على ثلاثة رسائل لابن العربي: الدرّة البيضاء والزمرّدة الخضراء والسبجة السوداء (طبع في مصر).

29: المفاتيح القرآنية لكتاب العبادلة لابن العربي (يُحضّر للطبع في دار نينوى بدمشق).

30: مواقف ابن العربي مع العارفين (يُحضّر للطبع في مصر).

ب-كتب أخرى في التصوف:

31- تحقيق كتاب "المواقف" للأمير عبد القادر الجزائري (ثلاثة أجزاء، نشر مرتين في مطبعة دار الهدى بالجزائر، وهو بصدد الإعداد لطبعة ثالثة في دار الكتب الفلسفية والصوفية بالجزائر).

32- كتاب الاسم الأعظم (دار الكتب العلمية ببيروت، ودار عالم الكتب الحديث بالأردن، وترجم إلى التركية).

33- نظرات على الشيخ أحمد التجاني وطريقته وأتباعه (دار الوليد بالجزائر، ودار الكتب العلمية ببيروت، ودار عالم الكتب الحديث بالأردن).

34- نظرات على الطريقة الرّحمانية الخلوتية(دار الوليد بالجزائر، ودار الكتب العلمية ببيروت، ودار عالم الكتب الحديث بالأردن).

35- نظرات على الشيخ عبد القادر الجيلاني وطريقته وانتشارها (دار الهدى بالجزائر، ودار الكتب العلمية ببيروت، ودار عالم الكتب الحديث بالأردن).

36- أضواء على الطريقة الشابّية الشاذلية (دار نينوى بدمشق).

37– الكوكب الدرّي في شرح الصلاة على النبيّ الآمّيّ (دار عالم الكتب الحديث بالأردن).

38- الشرح الشامل لكتاب الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي (دار نينوى بدمشق، ودار الكتب الفلسفية والصوفية في الجزائر، وترجم إلى الفرنسية).

39- شاهد الحقيقة: الشيخ عبد الواحد يحي (رنيه جينو):(طبع في دار الكتب الفلسفية والصوفية في الجزائر)

40- بحوث في التصوف والتربية العرفانية والبيئة الروحية والتواصل بين العالمين

الإسلامي والمسيحي (يحضر للطبع).

41- شخصيات صوفية (يحضر للطبع).

ج-عناوين كتب الشيخ عبد الواحد يحيى (رنيه جينو) التي ترجمها عبد الباقي مفتاح من الفرنسية إلى العربية (نشرتها دارعالم الكتب الحديث بالأردن):

1 - هيمنة الكمّ وعلامات آخر الزّمان.

2 - رموز العلم المقدّس (75 مقالة).

3 - مليك العالم.

4 - التصوّف الإسلامي المقارن (19 مقالة+ 14 تعليقات على كتب).

5 - نظرات في التربية الرّوحية.

6 - التربية والتحقق الرّوحي: تصحيح المفاهيم.

7 - مراتب الوجود المتعدّدة.

8 - رموز الإنسان الكامل (أو: رموز تقاطع خط الإسراء الأفقي بخط المعراج العمودي- أو: رمزية الصليب).

9 – شرق وغرب.

10- أزمة العالم الحديث.

11- الميتافيزيقا الشرقية (في الهند وفي الصين).

12- السلطة الرّوحية والحكم الزمني.[1]

المطلب الثاني: التصوف عند الشيخ عبد الباقي مفتاح وعلاقته بالشيخين: محي الدين ابن العربي وعبد الواحد يحي

1 - التصوف عند الشيخ عبد الباقي مفتاح

يرى الشيخ عبد الباقي مفتاح أن البذرة الأولى للتربية الروحية الإسلامية هي قول الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [الجمعة:2-4]. فهذه الآيات تبيّن الوظائف الثلاث التي بُعث بها النبي - صلّى الله عليه وسلم- وَوَرِثَتْها أمّته وهي: تعليم الكتاب، وتعليم الحكمة أي السنة النبوية، والقيام بالتزكية أي التربية الروحية. فورث علماء القرآن علم الكتاب، وورث الفقهاء علم السيرة والسنة، وورث المربون علم

[1] هذه القائمة تحصلت عليها من عند الشيخ عبد الباقي مفتاح.

التزكية، وهو الذي اصْطُلح على تسميته بعلم التصوف[1]. وفي هذا المعنى يقول الإمام القشيري (ت: 465هـ) في رسالته: "إنّ المسلمين بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يتسمَّ أفاضلهم في عصره بتسمية علم سوى صحبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- إذ لا فضيلة فوقها فقيل لهم: الصحابة. ولمّا أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة بالتابعين ورأوا ذلك أشرف سِمة. ثم قيل لخواص الناس ممن لهم شديد العناية بأمر الدين: الزهّاد والعبّاد. ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق، فكّل فريق أدعوا أنَّ فيهم زهادا، فانفرد خواص أهل السنَّة والمراعون لأنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة، باسم: "أهل التصوف". واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة"[2]. وبحكم التخصص نشأت منذ العهد النبوي جماعات كانت حلقاتها مدارس لعلم التزكية أو التصوف المتمثل في ترقي المسلم عبر معارج التقوى والمعرفة بمقاماتها الثلاث: الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان، كما بيّنها الحديث المشهور بين النبي وجبريل عليهما السلام. فالطريقة هي السلوك في هذا المعراج، أو بعبارة أخرى هي ترقي المسلم من وراثة أقوال الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى وراثة أحواله ومنازلاته ومعاملاته مع الحق تعالى ومع الخلق، وما ينتج عنها من أذواق ومواجيد ومعارف وعلم بالله تعالى لا نهاية له. كل ذلك تحقيقا لقوله تعالى: ﴿**فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا**﴾ [الإنسان:29]. فالصوفي الحق هو المتحقق بمقام الإحسان الذي عرّفه - صلى الله عليه وسلم - بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».[3] والسالكون الصادقون لطريق التصوف هم الموصفون بقول الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت:69]. فغاية الطريقة هي معرفة الحقائق الإيمانية والأذواق الإحسانية، ونيلها عبر السلوك الروحي في ظل المعراج الأحمدي تحت راية القرآن، بخطوات القلب من مراحل اليقين علما ثم عينا ثم حقا وحقيقة، ووصولا إلى حياة وجدانية وعرفانية يتحقق فيها المسلم بولاية الرحمن الولاية الخاصة بالمقربين من عباد الله تعالى. ومفاتيح هذا السير القلبي ووسائل الترقي الروحاني هي دوام ذكر الله وصحبة الصالحين من الدعاة إليه بإخلاص وفق أمره تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا**

---

[1] عبد الباقي مفتاح: "أصالة التصوف الإسلامي"، ضمن كتاب جماعي: تصوف الغرب الإسلامي في الدراسات الاستشراقية، تحرير وتقديم إبراهيم رحماني وآخرون، ط1، الوادي-الجزائر، سامي للنشر والطباعة والتوزيع 2022، ص19.

[2] عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية، د ط، 2001، دار الكتب العلمية، لبنان، ص21.

[3] أخرجه مسلم عن عمر بن الخطّاب، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم:09

﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:119].[1]

فالولاية حجة الرسالة، والطريقة برهان الشريعة. ذلك لأن ما بلّغته الرسالة من حقائق الإيمان، تشهدها الولاية في درجة عين اليقين بالبصيرة القلبية والذوق والوجدان. وتصديقها هذا حجة قاطعة لأحقية الرسالة. ولهذا فسلوك طريق التصوف السُنّيِ والانخراط في مدارس طرقه لم يكن عند أسلافنا أمرا غريبا أو بدعة مريبة، بل بالعكس تماما كان تتويجا تلقائيا للتربية الإسلامية المتكاملة التي تلبّي تطلعات العقل القويم مع أشواق وأذواق القلب السليم في إطار التكامل والانسجام بين ظاهر الشريعة وباطنها، وبين أشكال الرسوم وحقائقها. وإذا رجعنا إلى تراجم علماء الإسلام وأئمة الدعوة والجهاد، نجد أنّ جُلهم كانوا من شيوخ التصوف، أو المنتسبين إلى طرقه، أو المحبّين لأهله.[2]

ويرى الشيخ عبد الباقي مفتاح وجوب التمييز بين ثلاثة أنواع من الطرق وهي: طريقة التبرك، وطريقة الإرشاد، وطريقة التربية والترقية، وذلك حسب مستوى شيخ الطريقة. فشيخ التبرك هو الذي يبلّغ أوراد الذكر لمن يطلبها بإذن مسند صحيح، ويقف دوره عند هذا التبليغ، وينال الآخذ عنه بركة النسبة لسلسلة الشيوخ الصالحين المتصلة برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كما ينال ثواب وأنوار الأذكار التي يلتزم بها[3]. وأمّا شيخ الإرشاد فزيادة على تبليغ الأوراد كشيخ التبرك، يسعى لإرشاد تلاميذه إلى مكارم الأخلاق ودوام الذكر وصفاء الباطن، وينفث في قلوب أهل الاستعداد منهم عوارف معارف وأنوار مقامات. فشيخ التبرك يدل على مقام الإسلام وغايته علم اليقين والإشراف على النفس المطمئنة. وشيخ الإرشاد يرشد إلى مقام الإيمان وغايته عين اليقين والإشراف على مقامات القلب الراضي المرضي المستنير بدوام الذكر. وأمّا شيخ التربية والترقية فيرفع إلى مقام الإحسان مشاهدة في مقام (أن تعبد الله كأنك تراه)، وللصادقين من مريديه حق اليقين وحقيقته المعرفة عبر معارج الولاية الكبرى إلى التمكين في مقام القربة[4].

2 -علاقة الشيخ عبد الباقي مفتاح بالشيخ ابن العربي:

للشيخ عبد الباقي نصيب من لقبه الذي يحمله "مفتاح" حيث جعله الله مفتاح الفهم

---

[1] عبد الباقي مفتاح: "أصالة التصوف الإسلامي"، ضمن كتاب جماعي: تصوف الغرب الإسلامي في الدراسات الاستشرافية. ص20

[2] المرجع نفسه، ص20.

[3] عبد الباقي مفتاح، لمحة عن التربية الروحية الإسلامية، ص11

[4] عبد الباقي مفتاح، كيفية التربية الروحية في الطريقة الدرقاوية الشاذلية تأصيلا وتجديدا (مداخلة مخطوطة أرسلها لي الشيخ عبد الباقي مفتاح) .

للتراث الأكبري في العصر الحديث، فالأسئلة تنهال عليه من العالم أجمع، تستوضح الغامض، وتستفتح المنغلق، وتستفسر عن الرموز والألغاز والمتشابهات والمفارقات التي تظهر للدارس لنصوص الشيخ ابن العربي. وشيخنا عبد الباقي لا يتوانى لحظة عن تقديم كل الأجوبة والاستفسارات، كل يوم إثر صلاة الصبح، وقد تصدّر اليوم بلا منازع مرجعية الشيخ الأكبر من خلال تآليفه، خاصة تلك التي تحمل عنوان: المفاتيح الوجودية والقرآنية للفتوحات، ومفاتيح فصوص الحكم وغيرها. وقد تفطن الشيخ الأكبر لصعوبة النص الأكبري من حيث تركيبه وخلفيته المرجعية، فوضع شروطا علمية للفهم عن ابن العربي، عبارة عن مفاتيح للكفاءة العلمية، فزيادة، عن تزكية الاعتقاد والمقصد وحسن الاعتقاد في الشيخ الأكبر وفي نصوصه، فلا بد من:

أولا: التمكن الجيد من اللغة العربية وأساليبها البلاغية والدلالات المختلفة لنفس الكلمة والمعرفة العميقة الواضحة لمصطلحات التصوف من إشارات ورموز وتلويحات[1].

ثانيا: الرسوخ الممتاز في القرآن العظيم حفظا وفهما.

ثالثا: معرفة الأحاديث النبوية والأحكام الشرعية.

رابعا: معرفة العلوم الفلكية القديمة الأصيلة.

خامسا: معرفة علم أعداد الحروف ورموزها وما يناسبها من بروج ومنازل فلكية، واستعمالات الشيخ لها تصريحا وتلويحا تعد بالمئات.

سادسا: معرفة المصطلحات التي يستعملها الشيخ الأكبر.

سابعا: الاطلاع على جل كتب الشيخ وسيرته وعلاقته مع محيطه ورجال عصره [2].

يرى الشيخ عبد الباقي مفتاح أن مكانة ومقام الشيخ ابن العربي بين مختلف علماء ومشايخ التصوف تظهر في إجماعهم على تسميته بالشيخ الأكبر، وموافقتهم على قوله هو عن نفسه في بيت شِعر نظمه متحدثا بنعمة ربّه عليه بمحض العبودية - وهو مكتوب على جدار مدخل مقامه الشريف بدمشق:

لكل عصر واحد يسمو به .:. وأنا لباقي العصر ذاك الواحد

فموقف جلّ أولياء الله وشيوخ الطريق عبرّ عنه إمام الطريقة الخلوتية في القرن الثاني

[1] محمد صالح الضاوي، الشيخ الأكبر الصغير عبد الباقي مفتاح.

[2] عبد الباقي مفتاح، ختم القرءان الكريم محي الدين ابن العربي، دار الكتب العلمية، 2009، ص4.

عشر الهجري الشيخ مصطفى البكري (ت:1162هـ) القائل:

بالحاتمي الخاتمي كنز الغنى .:. يا ربّ أوصل حبلنا بحباله

بدر لدى جوّ السماء مكمّل .:. وسواه في التحقيق مثل هلاله

والخلاصة هي أنّ في شيخنا الأكبر يَتجلى حقاً كمال العرفان وقطبية الإنسان وعالمية الإسلام دين الحبّ والرحمة التي وسعت كل شيء، مع الصرامة في إحقاق الحق وإزهاق الباطل. وفي عصرنا الذي زالت فيه الحدود من كل نوع، لا نجد من يترجم عن إنسانية الإنسان الرباني خليفة الرحمن، وعن عالمية وسماحة دين الله الخاتم الجامع، أحسن من محيي الدين، فهو ابن كل عصر؛ لأنّ سُلافه العتيق كان قبل الكروم والعصر، وهو القائل:[1]

ولي في كتاب الله من كلّ سورة .:. نصيب وجُلّ الخير من سورة العصر

وعند سؤالنا للشيخ عبد الباقي مفتاح عن ما يميز دراسته للشيخ الأكبر ابن العربي عن غيرها من الدراسات أكد لنا أن الكثير من الدراسات الحديثة خاصة يعتبرون ابن العربي فيلسوف، صاحب تصوف فلسفي؛ بينما هو ليس فيلسوفا قط، وقد رد هو ردا قويا في مقدمة كتابه الفتوحات المكية على من يصفه بالفيلسوف أو أنه قرأ الفلسفة أو اقتبس منها شيئا، "بل أقول أنه ولي من أولياء الله، فتح الله عليه بالمعارف الكبرى، فهو صوفي محقق الذي لا يكتب ولا يتكلم إلا بما فتح الله عليه بالقرآن الكريم كما صرح بذلك هو، وفي فتحه هذا أطلعه الله على كل الملل والنحل عن طريق الفتح، وليس عن طريق الفكر الفلسفي البشري بل عن طريق الإلهام، ضف إلى ذلك بدون معرفة المفاتيح القرآنية الخفية في كتب الشيخ الأكبر لا يمكن فهمها بعمق"[2].

إذا مساهمة الشيخ عبد الباقي وتميزه في دراسة ابن العربي يكمن في بيان المفاتيح القرآنية الخفية في كتب الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي، وسر ترتيب الفصوص وكذلك اعتبار القرآن الكريم هو المرجعية الوحيدة لابن العربي.

3- علاقته بالشيخ عبد الواحد يحي (رنيه جينو 1886-1951م)

يقول الشيخ عبد الباقي مفتاح: "اكتشفت كتب الشيخ عبد الواحد يحيى وعمري عشرون سنة، فبهرني وسع معرفته الظاهرة والباطنة ونفوذ بصيرته، وعالمية إدراكه

[1] حوار مع قناة عمانية.

[2] مقتطف من حوار شخصي أجريته مع الشيخ عبد الباقي مفتاح.

ورسوخه التام في الميتافيزيقا وتحققه الذوقي بها. وكما أعتقد أنّ أعظم كاشف للحقائق بعد الأنبياء – عليهم السلام- هو الشيخ الأكبر، فكذلك أرى أنّ أعظم شخصية روحية أنجبها الغرب عبر كل الأزمنة هو الشيخ عبد الواحد يحيى. وشروحه في علم الميتافيزيقا متطابق تماما مع مذهب الشيخ الأكبر، ولا عجب إذ الحقيقة واحدة"[1].

يخبرنا الشيخ عبد الباقي مفتاح أنه جمع كتابا لطيفا حول "رنيه جينون" طبع قبل سنتين في الجزائر عنوانه: "شاهد الحقيقة: الشيخ عبد الواحد يحيى (رنيه جينو)" أورد فيه ما كتبه عنه ثلاثة أعلام جامعين للعلوم التراثية والعصرية الشرقية، وكانت لهم صلة مباشرة بالشيخ عبد الواحد يحيى، وهم شيخ الأزهر السابق المصري عبد الحليم محمود، والعلامة الأفغاني نجم الدين باماط، والعلامة الإيراني السيد حسين نصر، ثم أورد لمحة في غاية الاختصار لكل كتاب من كتبه. وفي سطوره الأولى كتب ما يلي[2]:

"الدارس بعمق ودقة للحركات الفكرية والتوجهات الروحية في الغرب، يكتشف أن للعلامة العارف الكبير رنيه جينو أكبر الأثر في الأوساط المثقفة ثقافات عالية وفي الباحثين بصدق عن الحقيقة خلال القرنين العشرين والواحد والعشرين. بل يمكن القول – بلا مبالغة في تقديري- أن فترة حياة جينو مفصلية في التطور الروحي والفكري للعالم الغربي خلال القرن العشرين، فبحوثه ومصنفاته وآثارها أحدثت في الدراسات الروحية والفكرية في الغرب نقلة هائلة، ارتفعت بها من مستويات متعصبة ومضللة وتافهة ومغلقة، إلى مدارج رائعة وفحوص عميقة وانفتاح على التراثيات الروحية العالمية لمختلف الأمم والأديان، وفد كُتبتْ حوله مئات البحوث والكتب، وتوجد منذ عقود عدة مجلات ودوريات منهاجها مستلهم مباشرة من مذهبه العرفاني. وكثير هم الذين اقتدوا به في اعتناقه الإسلام دينا، والتصوف مسلكا. وحتى الذين لم يعتنقوا الإسلام ممن تأثروا به رجعوا إلى الإيمان بالله ورُسله وكتبه المنزلة عليهم وإلى التمسك بتراثهم الديني والنظر إلى الإسلام بعين الاحترام والتعظيم"[3].

وقد كتب تلاميذ وأتباع الحركة التي انبعثت من الشيخ عبد الواحد يحى والمتأثرين بها كتبا وبحوثا ممتازة للتعريف بالإسلام في الغرب، لا سيما في جانبه العرفاني الصوفي؛ لأنه هو وحده الذي يلبي التطلعات الروحية للمتعطشين لإدراك الحقيقة. لكن، رغم تأثيره

---

[1] حوار مع قناة عمانية.

[2] مقتطف من حوار شخصي أجريته مع الشيخ عبد الباقي مفتاح.

[3] ينظر مثلا: عبد الباقي مفتاح: "أصالة التصوف الإسلامي"، ضمن كتاب جماعي: تصوف الغرب الإسلامي في الدراسات الاستشرافية. ص33.

البالغ في الغرب، بقي التعرف عليه في العالم الإسلامي، وبالأخص في العالم العربي، محدودا جدا، لا يعدو أفرادا قلائل من المطلعين على الحركات الفكرية والاتجاهات الروحية في الغرب[1]. وهنا يمكن القول أنّ أحد الأعمال المهمّة للشيخ عبد الباقي مفتاح تتمثل في كونه معرفاً بتراث الشيخ عبد الواحد يحي للعالم العربي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ عبد الواحد يحي أسلم على يد شيخ الطريقة الشاذلية ومفتي المالكية بمصر الشيخ عبد الرحمن عليش الذي أخذ عنه الطريقة بواسطة المقدّم العلامة الرسام السويدي "إيفان أكيلي" (عبد الهادي) الذي أسلم إثر رؤيته للشيخ الأكبر في المنام. وقد أهدى الشيخ عبد الواحد يحيى للشيخ عليش كتابه العميق في الميتافيزيقا الخالصة الذي عنوانه: (رمزية الصليب) وأتمّه بكتابه الأعمق الآخر: (مراتب الوجود المتعددة)[2].

وتدور معظم مؤلفات الشيخ عبد الواحد يحي حول فكرة التراث المتوارث وتلك الصفوة التي تعد كالنواة التي يلتف حولها الآخرون ورفضه للمادة حدودا نهائيا أو كلية للإنسان، أو معيارا لكل شيء، وإيمانه العميق بالعالم الآخر أو بالمجال الغيبي الأصيل الذي لا يعلم أبعاده إلا الله سبحانه وتعالى[3].

وقد استفاد الشيخ عبد الباقي كثيرا من كتب الشيخ عبد الواحد، وخاصة من كتابه: "أزمة العالم الحديث" وكتابه الرائع: "هيمنة الكم وعلامات آخر الزمان". وهي من بين كتبه التي ترجمها، وبداية ترجمتها كان بطلب من ابنه الساكن بالقاهرة[4]. واستطاع الشيخ عبد الباقي مفتاح، ترجمة اثني عشر كتابا له، من الفرنسية إلى العربية، كما أسلفنا الذكر، وهي مهمة نجح فيها بشهادة ابنة جينون (السيدة ليلى) المقيمة في مصر، حيث أن نصوص جينون صعبة على الدارسين المختصين، ولها عمق معرفي يتناهى إلى مختلف الأديان والميتافيزيقا القديمة. وكما يقول الأستاذ خالد محمد عبده فإن تأتي ترجمة الشيخ عبد الباقي لرنيه جينو مفتاح تمثل صورة هامة من صور الاهتمام العربي بهذا العالم الراحل[5].

---

[1] حوار مع قناة عمانية.

[2] ينظر مثلا: عبد الباقي مفتاح: "أصالة التصوف الإسلامي"، ضمن كتاب جماعي: تصوف الغرب الإسلامي في الدراسات الاستشرافية. ص33. ومحمد الصالح الضاوي، الشيخ الأكبر الصغير: عبد الباقي مفتاح.

[3] زينب عبد العزيز، مقالات من رينيه جينو، دار الأنصار، ط1، مصر، 1996، ص9.

[4] محمد صالح الضاوي، الشيخ الأكبر الصغير: عبد الباقي مفتاح

[5] خالد محمد عبده، من رموز المقدس: "رينيه جينو" الشيخ عبد الواحد حي في المصادر العربية الحديثة، مؤمنون بلا حدود، المملكة المغربية، ص5.

ويمكن تصنيف، كما يرى الشيخ عبد الباقي مفتاح، مواضيع هذه الكتب إلى ثلاثة محاور:

المحور الأول: كتبه الأربعة المتعلقة بتحليل أصول الحضارة الغربية ومراحل تطورها ومآلاتها المستقبلية وانحرافها المدمّر عن المبادئ الروحية، وعناوينها: كتاب شرق وغرب، وكتاب أزمة العالم الحديث، وكتاب السلطة الروحية والحكم الزمني، وكتابه الممتاز الذي أثر في الاتجاه الفكري لكثير من المثقفين في الغرب وفي الشرق وعنوانه: هيمنة الكم وعلامات آخر الزمان، وهو أول كتاب ترجمه الشيخ عبد الباقي مفتاح.

المحور الثاني: يتضمّن التعريف بحقائق الميتافيزيقا الخالصة من خلال ثلاثة كتب عناوينها: كتاب الميتافيزيقا الشرقية وكتاب رموز الانسان الكامل أو تقاطع خط الاسراء الأفقي مع خط المعراج العمودي، وكتاب مراتب الوجود المتعددة. وهذان الكتاب الأخيران من أصعب الكتب فهما وترجمة حسب ما أكد الشيخ مفتاح.

المحور الثالث: مواضيعه تتعلق بالتربية الروحية والرموز الدينية والعرفانية من خلال خمسة كتب، عنوان أولها: "رموز العلم المقدس" المشتمل على خمس وسبعين مقالة كل مقالة منها تدرس رمزا، والثاني عنوانه: "نظرات في التربية الروحية"، والثالث عنوانه: "تصحيح مفاهيم التربية والتحقق الروحي، والرابع عنوانه: "نظرات في التصوف الإسلامي"، وعنوان الخامس "مليك العالم"[1].

وفيما يخص الأسلوب الذي اتبعه في ترجمة هذه الكتب كان التزامه بترجمة المعاني الدقيقة العميقة التي يقصد بيانها الشيخ التزاما ربما يكون على حساب الأسلوب الأدبي ورونقه، وذلك أنّ كتب الشيخ عبد الواحد يحي غير موجّهة أصلا لأغراض أدبية، وهي خالية من كل حشو، وإنما أغراضها معرفية خالصة.

من جانب آخر يؤكد الشيخ عبد الباقي مفتاح على أن أهم الصعوبات التي واجهته في الترجمة تتمثل في نقطتين هما:

الأولى: للشيخ عبد الواحد يحي مصطلحاته الخاصة التي لا توجد عند غيره، وترجمتها تتطلب رسوخا في المعارف والحقائق التي يتكلم حولها الشيخ وبراعة في إسقاطها على اللغة المترجَم إليها أي العربية.

---

[1] عبد الباقي مفتاح، تجربة عبد الباقي مفتاح في الترجمة، الملتقى الدولي الأول في الترجمة حول ترجمة العلوم "واقع وتحديات"، قسم الأدب واللغة الإنجليزية، جامعة الوادي، الجزائر، 2021/31/30.

الثانية: تتمثل في أنّ كتابات الشيخ كانت أساسا موجهة للعقل الغربي غير المسلم في معظمه، بينما الترجمة إلى العربية تستهدف بالخصوص القارئ العربي المسلم، وهذا يتطلب أسلوبا في الترجمة يطابق بين المعاني التي يقصدها الشيخ وبين الأفكار والعقائد لدى القارئ العربي المسلم[1].

خـاتمـة

من خلال ما تم عرضه نصل إلى النتائج التالية:

1-كان للبيئة المحيطة بالشيخ عبد الباقي مفتاح أثر كبير في توجيه فكره نحو العرفان، إضافة إلى رغبته الذاتية لاكتشاف الحقائق.

2-الرصيد العلمي للشيخ عبد الباقي مفتاح يجاوز الأربع وخمسين كتابا ما بين كتب مختصة في الشيخ الأكبر، وأخرى لرينيه جينو، أما البقية فكتب أخرى تدور حول العرفان والتصوف.

3-للشيخ عبد الباقي مفتاح علاقة وطيدة بشيخ العارفين محيي الدين بن العربي، ابتدأت وعمره لم يتجاوز الأربعة عشر عاما وتواصلت إلى يومنا هذا، وما زال منكبا منهمكا في قراءة تراثه وإخراج كنوزه ومكنوناتها.

4-تجربة الشيخ عبد الباقي مفتاح مع الترجمة ليست عادية، فهي ترجمة للروح وسعيها الحثيث للبحث عما يروي ظمأها، للبحث عن الحقيقة الدائمة.

5-تجربة الشيخ عبد الباقي مفتاح تجربة غنية ثرية في مجال التصوف وجب على المختصين الاهتمام بها، وتسليط الضوء عليها، وإبراز إسهاماته والعناية بها وبه؛ فهو ثروة بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

التوصيات:

أما عن التوصيات التي خرجنا بها من هذه الورقة البحثية لتغطية البحث مستقبلا فيما يخص جهود الشيخ عبد الباقي مفتاح في خدمة التصوف فتتمثل في توجيه الطلبة والباحثين إلى بعض الجوانب التي يمكن دراستها والبحث فيها عنه وهي كالآتي:

1-جهوده في التعريف بأعلام التصوف في العالم الإسلامي، وتصحيح التصورات عنهم، وتقديمهم نماذج وقدوات للإنسان والمجتمع المعاصر.

[1] عبد الباقي مفتاح، تجربة عبد الباقي مفتاح في الترجمة.

2-جهوده في فك شفرات مفاهيم الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي وكشف أصولها القرآنية.

3-جهوده في مجال تعريف العالم العربي والإسلامي بفكر الشيخ عبد الواحد يحي (رنيه جينون)، للاستفادة منه واستثمار نظراته الثاقبة في التصوف.

4-جهوده في القيام بوظيفة التربية الروحية وتسليك طالبي طريق الله تعالى. وفي هذا الإطار يجب الحرص على عدم إظهار الشيخ عبد الباقي مفتاح في صورة باحث يؤلف ويشرح ويترجم فقط، بل أكثر من ذلك فهو شيخ التربية الروحية.

5-جهوده وأدواره في قيامه على الزاوية الهبرية بقمار وطلبتها وتحفيظ القرآن الكريم.

6-جهوده في فتح الزاوية على المجتمع وقيامها بأدوار اجتماعية عديدة.

قائمة المراجع

- عبد الباقي مفتاح: "أصالة التصوف الإسلامي"، ضمن كتاب جماعي: تصوف الغرب الإسلامي في الدراسات الاستشرافية، تحرير وتقديم إبراهيم رحماني وآخرون، ط1، الوادي-الجزائر، سامي للنشر والطباعة والتوزيع 2022.
- عبد الباقي مفتاح، كيفية التربية الروحية في الطريقة الدرقاوية الشاذلية تأصيلا وتجديدا.
- عبد الباقي مفتاح، ختم القرءان الكريم محي الدين ابن العربي، دار الكتب العلمية.
- عبد الباقي مفتاح، تجربة عبد الباقي مفتاح في الترجمة، الملتقى الدولي الأول في الترجمة حول ترجمة العلوم "واقع وتحديات"، قسم الأدب واللغة الإنجليزية، جامعة الوادي-الجزائر،2021/31/30.
- عبد الباقي مفتاح، لمحة عن التربية الروحية الإسلامية.
- أجوبة عن أسئلة طرحتها قناة عمانية على الشيخ عبد الباقي مفتاح.
- حوار شخصي مع الشيخ عبد الباقي مفتاح في منزله يوم: 2023/02/06.
- حوار أجراه الشيخ عبد الباقي مفتاح مع: محمد رستم وهاني طلعت، أوت 2021. (بالإنجليزية).
- محمد الصالح الضاوي، "الشيخ الأكبر "الصغير: عبد الباقي مفتاح أحد أقمار وادي سوف ومفتاح العرفان الإسلامي المعاصر، حفل تكريم الشيخ عبد الباقي مفتاح من قبل مجمع الشروق، في 09 مارس 2022.
- عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية، د ط، 2001، دار الكتب العلمية، لبنان.

- خالد محمد عبده، من رموز المقدس "رينيه هجينو" الشيخ عبد الواحد يحي في المصادر العربية الحديثة، مؤمنون بلا حدود، المملكة المغربية.
- زينب عبد العزيز، مقالات من رينيه جينو، دار الأنصار، ط1، مصر، 1996.

التربية الروحية في رؤية الشيخ عبد الباقي مفتاح

د/ زهير بن كتفي
كلية العلوم الإسلامية – جامعة الوادي
Benketfi-zouhir@univ-eloued.dz

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيّدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الطيبين.

في ظل التنافس على الدنيا والبحث عن تحقيق المصالح المادية، وتصادم الأهواء والرغبات المتعددة والمختلفة واللامحدودة للإنسان مما يجعل من الحياة صراعا قاسيا في متاهات لا متناهية قد يظفر فيها الإنسان ببعض ملذاته ومنافعه وقد لا يظفر وفي كلتا الحالتين يعيش في قلق واضطراب؛ تأتي القيّم الروحية والعقدية والتربوية في الإسلام لتؤكد على حقيقة وجودية هامة، إنها بامتياز تلك القيّم التي تستطيع أن تمنح الإنسان وبلا حدود الخير والحق والمحبة والطمأنينة النفسية والروحية، وذلك عن طريق صقل وجوده وحياته بالبناء العقدي المتين والتربية الروحية العميقة التي تستند إلى هدى ورحمة القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم. قال عزّ وجلّ: ﴿**رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [البقرة:129]. وكما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: **"اللّهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكّها أنت وَلِيُّها ومولاها، اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها"**[1].

ومن هذا المنطلق يمكن القول أنّ التربية الروحية هي الوظيفة الأولى التي اضطلع بها مشايخ التربية من أهل الله تعالى؛ فكانت بمثابة حجر الزاوية وقطب الرحى الذي تدور عليه أعمال طرق التربية والتزكية الصوفية عبر الأزمنة من جيل إلى جيل على اختلافها في التعاطي مع هذه الوظيفة بين الضعف والقوة. وقد أنهض الله تعالى في كل عصر وجيل من يدعون إلى التربية الروحية والتزكية الخالصة ويؤطرونها وينظمونها بالعمل على وصل

[1]- مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، حديث 2722.

العلم بالعمل، ووصل قلوب الناس بالله تعالى، والمجتمع بالأخلاق، فينفخون بذلك روحا جديدة في الأمة في كل آنٍ وحينٍ. وفي هذا الإطار جاءت هذه الورقة الموسومة بـ"التربية الروحية في رؤية الشيخ عبد الباقي مفتاح" للإسهام بالتعريف بالدرس التربوي الروحي عند الشيخ عبد الباقي مفتاح باعتباره من أبرز أعلام التصوف ومشايخ التربية الروحية في الوقت الراهن في الجنوب الجزائري وفي منطقة وادي سوف تحديدا، إلاّ أن هذا التحديد الجغرافي لا يمكنه أن يحجب عنا بحال من الأحوال امتداد تعاليمه التربوية ومددها خارج أسوار هذه الحدود إلى آفاق جغرافية أخرى متعددة وكثيرة.

وبناء على ما تقدم، فإن الإشكالية الأساسية لهذه الورقة تتمثل تحديدا في التساؤل عن محددات وتجليات التربية الروحية عند الشيخ عبد الباقي مفتاح؟

وتظهر أهمية هذا الموضوع وأهدافه في التأكيد على دور التربية الروحية في حياتنا ووجودنا؛ فالأزمة الأساسية التي نحياها وكما تتبدى في واقعنا الراهن تؤكد على ذلك الفراغ الكبير الروحي والأخلاقي الذي نعيشه كأفراد وكمجتمع وكأمة على السواء؛ فهي أزمة روحية أخلاقية في عصر الشهوة والنزوة والمادية. ولا يمكن لهذا الفراغ الذي لا يملؤه التعمق في الفكر والتفكير ولا التبحر في العلم بعيدا عن العمل، فلا بد من التربية الروحية فهي المكافئ الوحيد والأساسي لهذه الأزمة. كما تظهر أيضا أهمية الموضوع وأهدافه في محاولة إبراز الدور التربوي الكبير لهذا العَلَم من أعلام التصوف في منطقة وادي سوف والكشف عن أدواره المتعددة وعلى رأسها الدور التربوي في التهذيب والتزكية وترسيخ العقيدة والإيمان. وإذاً فهي محاولة تهدف إلى الإسهام في التعريف بالشيخ عبد الباقي مفتاح وتسليط الضوء على رؤيته التربوية الروحية.

ويجب التنبيه في هذا الإطار على عدم وجود دراسات سابقة في هذا الموضوع؛ فقد اعتمدت أساسا على بعض المقالات المخطوطة له التي سأحيل عليها في صلب الموضوع، وعلى بعض ما تناثر من مفاهيم حول الموضوع في بعض كتبه، بالإضافة إلى ما سمعته منه حول هذا الموضوع أثناء حضوري لبعض مجالس الذكر التي يعقدها سواء في الزاوية أو في بيته الحافلان بالمذاكرة الروحية والعرفانية.

أما المنهج المعتمد في هذا البحث، فقد استندت إلى المنهج الوصفي التحليلي أساسا لطبيعة الموضوع.

وقد جاءت خطة البحث مكوّنة من مقدمة وتسعة عناصر وخاتمة: حيث تناولت في العنصر الأول مفهوم التربية الروحية في اللغة والاصطلاح، وفي العنصر الثاني تطرقت إلى

عرض ترجمة مختصرة للشيخ عبد الباقي مفتاح، وفي الثالث تحدثت عن المدرسة الشاذلية والتربية الروحية، والرابع الكلام عن الأصناف الثلاثة لمشايخ التربية في مفهوم الشيخ عبد الباقي مفتاح، والخامس شروط الالتزام بالتربية الروحية عنده، والسادس السلوك بذكر الاسم الأعظم المفرد "الله"، والسابع صدق توجه الفكرة، والثامن مراحل الترقي في التربية الروحية عنده، والتاسع المشاهدة المحمدية كأساس في التربية الروحية في منظوره. أما الخاتمة فقد حاولت فيها الإجابة عن إشكالية الورقة وتضمنت أهم النتائج الأساسية التي خلص لها البحث.

أولا: في مفهوم التربية الروحية

تهدف التربية الروحية فيما تهدف إليه تحقيق مرتبة الإحسان من الدين في واقع حياة المسلم، إضافة إلى مرتبتي الإسلام والإيمان في إطار سيره إلى الله تعالى والتحقق بالمعرفة به. ومن هنا عمل جل أعلام التصوف ورجال التزكية والتربية على مر مختلف مراحل التاريخ الإسلامي، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، على ترسيخها وتحقيقها في الواقع السلوكي والعملي للأفراد والاجتماع الإسلامي. ولكن ما المقصود بالتربية الروحية تحديدا في إطار التصوف؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بد من الوقوف أولا مع مفهوم التربية الروحية في اللغة، لذلك سنبيّن معنى كل من كلمتي التربية والروح على حدة ثم نبيّن اصطلاحيا معنى المركّب الجامع بينهما.

1-معنى التربية الروحية لغة:

أ-معنى التربية: يورد الراغب الأصفهاني كلمة "التربية" في معرض حديثه عن معنى "الربّ"، فيقول: أنّ "الربّ في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام"[1]. فالتربية عنده هي التنشئة التي تستهدف التمام والكمال في الحال. وفي هذا السياق فإن من معاني التربية أنها: "عملية تنمية الكائن البشري، للوصول به إلى أقصى كمال ممكن؛ جسميا وعقليا وروحيا واجتماعيا"[2]. ومن معانيها عموما: التهذيب والتطهير والتزكية والرعاية والتعليم والأدب وغيرها.

ب-معنى الروح: وأما الروح فلها تعريفات ومعاني متعددة متداخلة ومتفرقة، فقد

---

[1] - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز، ج1، ص 245.

[2] - عبد الرحمن النقيب وآخرون، مقدمة في التربية وعلم النفس، الرباط، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة 1987، ص 22.

خِيضَ في معناها ومآلاتها معاشا ومعادا بحسب الطريق الذي سلكه كل باحث عن ماهيتها، سواء كان هذا الطريق الفكر أو الخبر أو الخبرة كما هو الحال في الفلسفة وعلم النفس والتراثيات الروحية والأديان غيرها، والخوض في هذه المعاني المتعددة لا يعنينا في سياقنا هذا في كثير. عموما يمكن القول أنّ الروح "نفخة ربانية خرج بها الإنسان من ظلمة العدم إلى نور الوجود، ومن عموم الوجود إلى خصوصه بالتكريم الإلهي لفطرته"[1]. فهي حقيقة الإنسان وهي لطيفة ربانية يحقق بها الإنسان اتصاله بربّه تعالى وجلّ.

2-معنى التربية الروحية اصطلاحا:

وبناء على ما تقدم فالتربية الروحية هي: تنشئة الروح والانتقال بها من حال إلى حال أكثر تهذيبا وتزكية وتطهرا واتصالا بربّها.

ويذهب الشيخ عبد الباقي مفتاح إلى أن البذرة الأولى للتربية الروحية الإسلامية هي قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ [الجمعة:2]. وذلك انطلاقا من أن هذه الآية الكريمة تبيّن الوظائف الثلاث التي بُعِث بها النبي صلى الله عليه وسلم وورثتها أمته من بعده وهي: تعليم الكتاب، وتعليم الحكمة، أي السنة النبوية الشريفة، والقيام بالتزكية، أي التربية الروحية[2].

إن مصطلح التربية الروحية عند الصوفية عموما يعني تهذيب الروح وذلك باقتلاع جميع الصفات الأخلاقية المذمومة الكامنة فيها وإخلائها منها، واستبدالها بغرس جميع الصفات والفضائل الأخلاقية المحمودة شرعا وتحليتها بها. فمهمة التربية الروحية عموما هي تجريد الروح من الرذائل الخلقية وتزويدها بالفضائل الأخلاقية.

ويبدو أن المفهوم العام لمصطلح التربية الروحية في الإسلام ينضوي تحت معنى التزكية النفسية أو السير إلى الله تعالى أو غير ذلك من المصطلحات التي نعثر عليها عند السادة الصوفية وفي كتب التربية. وهي مفاهيم ومعاني تصب كلها في اتجاه واحد وهو الانتقال من حالة اللاتزكية النفسية إلى التزكية النفسية، من حال الروح الشاردة عن الله

---

[1] - طه عبد الرحمن: "التربية الروحية الإسلامية"،
https://www.nafahat-tarik.com/2015/02/sufism_36.html

[2]- عبد الباقي مفتاح: "أصالة التصوف الإسلامي"، ضمن كتاب: تصوف الغرب الإسلامي في الدراسات الاستشراقية، تحرير وتقديم: إبراهيم رحماني وآخرون، ط1، الوادي-الجزائر، سامي للنشر والطباعة والتوزيع 2022، ص19.

إلى الروح العارفة بالله المتحققة بعبوديته، من حالة القلب المريض إلى القلب السليم، كما قال تعالى: ﴿**إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء:89]. باختصار أن تنتقل إلى حال أكثر كمالا في صلاحها واقتدائها بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا وحالا. هذا المعنى العام للتربية الروحية يمثل القاسم المشترك بين جميع أهل التربية الصوفية. وكل طريقة صوفية لها منهجها وأسلوبها الخاص في تحقيق هذا الهدف المشترك بين جميع أهل التربية الصوفية.

ولعلّ من المصطلحات التي تحمل هذا المضمون هو مصطلح "التصوف" في حد ذاته الذي ظهر في القرن الثاني الهجري، كما يأتي مصطلح "التزكية"[1] انطلاقا من قوله تعالى:﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [البقرة:129]،وأيضا مصطلح "الإحسان" الوارد في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سأله جبريل عليه السلام فقال: "**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك**"[2].

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا السياق والذي يشكل لبّ هذه الورقة: ما هو منظور الشيخ عبد الباقي مفتاح للتربية الروحية؟

قبل محاولة الإجابة عن هذا السؤال قمين بنا في هذا الإطار أن نقدم تعريفا ولو موجزا، في حدود ما يستوعبه البحث، بهذا العَلَم الصوفي. فمن هو الشيخ عبد الباقي مفتاح؟

ثانيا: ترجمة مختصرة للشيخ عبد الباقي مفتاح[3]:

ولد الشيخ عبد الباقي مفتاح يوم 9 أفريل 1952 بمدينة "أقْمَار"، كما يسميها باسمها الفصيح، وهي معروفة عند العامة باسم "قْمار". وهي مدينة صغيرة تقع في ولاية وادي

---

[1]- ينظر مثلا حول مصطلح التزكية في القرآن الكريم: فتحي حسن ملكاوي، منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي 2020، ص79 وما بعدها.

[2]- البخاري، الجامع الصحيح، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم50، تحقيق: محمد زهير ناصر بن الناصر، ط1، دار طوق النجاة 1422 هـ، ج1، ص19. وباب قوله: ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾، حديث رقم4777، ج6، ص115.

[3]- ما ورد هنا من ترجمة للأستاذ الفاضل الشيخ العارف عبد الباقي مفتاح، استقيته منه عن طريق مراسلة بالبريد الالكتروني في 2021/08/12، كان قد كتبها لمن سأله عن ترجمة لحياته. (ويعمل حاليا باحثان من أوكسفورد في جمعية ابن عربي على ترجمتها إلى الإنجليزية)

سوف في صحراء الجهة الشرقية الجنوبية من القطر الجزائري، وفيها كان تعلّمه القرآني والابتدائي والمتوسط. أمّا تعلّمه الثانوي فكان في معهد تكوين المعلمين بقسنطينة، ودراسته الجامعية كانت في الجزائر العاصمة في مادة العلوم الفيزيائية، حيث تخرّج سنة 1975. ثم عمل مدرّسا للفيزياء والكيمياء والرّياضيات في المعهد الجزائري للبترول بمدينة حاسي مسعود مدة ست سنوات. ثم مدرّسا في ثانوية بلدته "أقْمَار" مدة عشرين سنة، وبعدها تقاعد.

أمّا في ميدان التصوف: فالأسلاف القدامى لأسرته كانوا ينتسبون للطريقة القادرية. ثمّ إنّ جدّ جدّه أخذ الطريقة عن الشيخ سيدي أحمد التجاني سنة 1201 هـ وكان من أوائل أصحابه مع تسعة آخرين من بلدته، وأرشدهم إلى بناء زاوية في بلدته، فشيّدوها سنة 1204هـ وهي أوّل زاوية تجانية في العالم، كما فصّل ذلك في كتابه "أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه".

ويشير العارف عبد الباقي مفتاح إلى أنه قد طالع وهو صبيّ أهمّ كتب الطريقة التجانية، ووجد فيها اقتباسات كثيرة من كلام الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن العربي، قدّس الله سرّه، ويذكر أن والده، رحمه الله تعالى، كان إماما ومن أهل العلم ومحبّا له وقارئا لـ"الفتوحات المكية"، وهو الذي أعلمه أنّ في مكتبة الزاوية التجانية التي يسكن بجوارها نسخة من الطبعات الأولى القديمة لـ"الفتوحات المكية" في أربعة مجلدات كبيرة. فشرع في استعارتها وقِرَاءتها مجلدا تلو مجلد، وكان عمره حينذاك تقريبا ما بين 14 و15 سنة. ومنذ ذلك الحين وهو مصاحب روحيّا للشيخ الأكبر. ويضيف أنه كان متيقنا أنّ الله تعالى اختصه، أي الشيخ الأكبر، بأنْ "يكون كاشفا لأعلى الحقائق العرفانية باللسان الأحمدي الأقدس". وفي تلك الأثناء قرأ أيضا كتاب "المواقف" للأمير عبد القادر الجزائري وكتب الطريقة العلوية الدرقاوية وغيرها.

ثمّ إنه لمّا واصل دراسته في ثانوية قسنطينة وجامعة الجزائر العاصمة طالع كثيرا جدا من كتب التصوف الأخرى ككتب الغزالي والشعراني وعبد الكريم الجيلي وغيرهم كثير، ومن بينها كتب أخرى للشيخ الأكبر وخليفته صدر الدين القونوي وأعلام مدرسته. وهو لا يزال إلى اليوم يطالع ما يستجدّ في الدراسات حولهم وتحقيق كتبهم.

ويذكر العارف الشيخ عبد الباقي مفتاح أن شيخه الوحيد الذي ليس له سواه، والذي أخذ عنه الطريق الروحي الصوفي سنة 1973م، هو الشيخ سيدي "محمد بلقائد

التلمساني" (1911-1998م)، شيخ الطريقة الهِبْرِيّة الدرقاوية الشاذلية[1] هو الذي رسّخ الرابطة القديمة بينه وبين الشيخ الأكبر.

والشيخ سيدي محمد بلقائد هو شيخ الإمام الشهير العلامة المصري سيدي محمد متولي الشعراوي (ت:1998) الذي كان رئيسا للبعثة الأزهرية المصرية في الجزائر خلال الستينات وبداية السبعينات، وأخذ الطريق عن الشيخ في أواخر الستينات، وذكر في الخلوة الاسم الأعظم المفرد سنة 1972.

وخلال بداية الثمانينيات وجّه الشيخ سيدي محمد بلقائد الشيخ عبد الباقي مفتاح إلى بناء زاوية في بلدته "أقمار"، فبناها الفقراء وفُتِحت سنة 1987، وهي بحمد الله تعالى، كما يقول الشيخ عبد الباقي مفتاح، قائمة بوظائفها التربوية والتعليمية والاجتماعية منذ ذلك الوقت.

وقد نشر الشيخ عبد الباقي مفتاح الكثير من المؤلفات المتنوعة في التصوف المتخصصة في الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي. ويمكن القول عموما أنه عندما يتعلق الأمر بفهم العديد من الأسرار والمعاني العميقة في كتب الشيخ الأكبر ابن العربي، فإن كتابات العارف عبد الباقي مفتاح مفيدة للغاية للقرّاء المعاصرين؛ فهو من أبرز وأكبر الباحثين المعاصرين المتخصصين في ابن العربي بأتم ما تعنيه كلمة متخصص. إضافة إلى ترجماته الرائعة والهائلة التي قدمها إلى المكتبة العربية لكتب الميتافيزيقي الكبير والعارف بالله الشيخ عبد الواحد يحي عليه رحمه الله (رنيه غينون).

والعارف الشيخ عبد الباقي مفتاح يقيم لحد الساعة في بلدته "أقمار" يشتغل بالذكر والمذاكرة والعلم وقراءة القرآن الكريم والتأليف.

ثالثا: المدرسة الشاذلية والتربية الروحية

ومن منطلق المشرب الروحي للشيخ عبد الباقي مفتاح، نجده يعطي دورا وأهمية كبرى للمدرسة الشاذلية[2] في التربية الروحية خاصة في القرنين الأخيرين من تاريخ الطرق

---

[1]- سيدي محمد بلقائد التلمساني (1911-1998) شيخ الطريقة الهِبْرِيّة الدرقاوية الشاذلية، أخذ الطريق عن شيخه سيدي محمد الهبري (ت: 1939)، وهو عن أبيه سيدي الحاج محمد الهبري (ت: 1899)، وهو عن سيدي محمد بن قدور الوكيلي الكركري (الذي هو شيخ سيدي حمو البوزيدي المستغانمي شيخ سيدي أحمد بن مصطفى بن عليوة شيخ الطريقة العلوية الدرقاوية)، وهو عن سيدي محمد الباشا وعن سيدي أبي عزة المهاجي، وهما عن مولاي العربي الدرقاوي رضي الله عنهم جميعا.

[2]- ينظر مثلا حول هذه المدرسة: الشيخ عبد الحليم محمود، المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن =

والمدارس الصوفية المنتشرة عبر ربوع العالم الإسلامي، وتتجلى أهمية هذه المدرسة أكثر في أكبر فروعها وهي الطريقة الدرقاوية[1].

يرى الشيخ عبد الباقي مفتاح، في إطار بيانه لمنابع التربية الروحية وطرقها السمحة ومناهلها العذبة، أنّ من أصفى هذه المناهل التربوية التي نهلت من ماء الحياة القرآنية والسنة النبوية بفضل أئمة الطريق في سلاسلهم الذهبية، منهل مدرسة الشيخ أبي الحسن علي الشاذلي (ت: 656 ه) رضي الله عنه؛ ذلك أنها كانت من بين أشهر الطرق التربوية الأوسع فيضا والأطول امتدادا عبر العالم الإسلامي منذ نحو سبعة قرون. وقد كان لهذه المدرسة الروحية أثرا كبيرا تجلى في مدّ ومدد الطريقة الدرقاوية عبر فروعها الكثيرة التي عمّت المغرب والمشرق إلى أقصاه. هذه الطريقة التي فاضت من فاس ونواحيها على يد الشيخ العربي الدرقاوي (ت: 1239ه) رضوان الله تعالى عليه، والذي امتدت سلاسل خلفائه الكثيرين شرقا وغربا، وما تزال إلى يومنا هذا في مزيد إشعاع واتساع. ومن هذه السلاسل المباركة ظهرت الطريقة الهبرية نسبة لإمامها الشيخ الحاج محمد الهبري (ت:1319 ه /1899م) الذي خلّف شيوخا واصلوا منهاجه الدرقاوي في التربية، وأشهرهم ابنه سيدي محمد الهبري (ت:1360ه/1939م) أستاذ الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني محيي ومجدد التربية في الطريقة الدرقاوية الشاذلية خلال النصف الثاني للقرن الرابع عشر وبدايات القرن الخامس عشر الهجري[2].

رابعا: الأصناف الثلاثة للطرق الصوفية

وبصفة عامة وفي إطار بيان الشيخ عبد الباقي مفتاح لمناهل التربية الروحية العذبة والصافية، نجده يقسّم أو يصنّف الطرق الصوفية إلى ثلاثة أصناف: طريقة التبرك، وطريقة الإرشاد، وطريقة التربية والترقية؛ وذلك بالنظر إلى المستوى الروحي لشيخ الطريقة كما يرى. فالتربية الروحية الكاملة لا تتحقق عند القوم من أهل الله تعالى إلا

= الشاذلي، القاهرة، دار الكتب الحديثة. وعبد الوهاب فرحات، سيدي أبو الحسن الشاذلي حياته ومدرسته في التصوف، ط1، القاهرة، مكتبة مدبولي 2002م.

[1]- ينسب هذا الفرع إلى العارف بالله والدال عليه الولي الكبير الشيخ أبي عبد الله محمد العربي بن أحمد. ينظر في ترجمته: محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت، دار الكتاب اللبناني 1349ه، ج1، ص381. وعبد الباقي مفتاح: "كيفية التربية في الطريقة الدرقاوية الشاذلية تأصيلا وتجديدا"، مقال مخطوط. وعبد الوهاب فرحات، سيدي أبو الحسن الشاذلي حياته ومدرسته في التصوف، ص270.

[2]- الشيخ عبد الباقي مفتاح، منهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، مقال مخطوط زودني بها الشيخ عبد الباقي مفتاح، ص1-2.

بصحبة الشيخ المربي الحي، فكما ينقل عن الشيخ العربي الدرقاوي قوله: "لو كان الانتساب للأولياء المربين الأموات كاف في التربية، لاكتفى الجميع بروح رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ روحه هي أعظم روح مربية على الإطلاق" قال تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾ [الأحزاب:6]"[1].

وفي مجال بيان الصفات الأساسية التي يتصف بها الشيخ المربي يقدم لنا الشيخ عبد الباقي نصا في غاية الأهمية للشيخ ابن عطاء الله السكندري (ت:709هـ) يصف فيه الشيخ المربي وصفا دقيقا عجيبا، ويرى أن هذا الوصف ينطبق تمام الانطباق على شيخه الشيخ سيدي محمد بلقايد حسب شهادة الكثير ممن أخذ عنه الطريق. يقول الشيخ ابن عطاء الله السكندري: "ليس شيخك من سمعت منه، إنما شيخك من أخذت عنه (...) وليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله إنما شيخك من نهض بك حاله، شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى، شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك حتى تجلت فيه أنوار ربك، نهض بك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، ولا يزال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه فزج بك في نور الحضرة وقال ها أنت وربك، هنالك محل الولاية لله، ومواطن الهداية من الله، وبساط التلقي من الله"[2].

فهذه أهم الصفات الأساسية التي يتصف بها الشيخ المربي الحي، ومن هذا المنطلق فصّل الشيخ عبد الباقي مفتاح وصنّف الطرق الصوفية إلى الأصناف الثلاثة التي أشرنا إليها، باعتبار المستوى الروحي لشيخها:

- فطريقة التبرك شيخها هو الذي يبلّغ أوراد الذكر لمن يطلبها بإذن مسند صحيح، ويقف دوره عند هذا التبليغ، وينال الآخذ عنه بركة النسبة لسلسلة الشيوخ الصالحين المتصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ينال ثواب وأنوار الأذكار التي يلتزم بها. وبناء عليه فهو يدل على مقام الإسلام وغايته علم اليقين والإشراف على النفس المطمئنة.

- وطريقة الإرشاد شيخها زيادة على تبليغ الأوراد كشيخ التبرك، يسعى لإرشاد تلاميذه إلى مكارم الأخلاق ودوام الذكر وصفاء الباطن وينفث في قلوب أهل الاستعداد منهم عوارف معارف وأنوار مقامات. وبناء عليه فهو يرشد إلى مقام الإيمان وغايته عين اليقين

---

[1]- عبد الباقي مفتاح، منهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، ص3.

[2]- ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، تحقيق وتعليق عبد الحليم محمود، ط3، القاهرة، دار المعارف 2006، ص204.

والإشراف على مقامات القلب الراضي المرضي المستنير بدوام الذكر.

-وطريقة التربية والترقية شيخها يرفع إلى مقام الإحسان مشاهدة في مقام "أن تعبد الله كأنك تراه"، وللصادقين من مريديه حق اليقين وحقيقتة المعرفة عبر معارج الولاية الكبرى إلى التمكين في مقام القربة[1].

وفي تأكيده على ضرورة التربية الروحية في واقعنا وراهنيتها في هذا العصر، يقدم الشيخ عبد الباقي مفتاح جملة من الشروط التي يرى أنها ضرورية لأي تربية روحية حقيقية سالكة تستهدف ترقية المتأهب السالك إلى مقام المشاهدة، مقام الإحسان، مقام القربة في معارج السلوك. هذه الشروط يراها أساسية، وهي التي سنحاول أن نتعرّف عليها كما تناولها، سواء من خلال تبيانه لمنهج شيخه سيدي محمد بلقايد في التربية الروحية، أو من خلال بيانه لكيفية التربية في الطريقة الدرقاوية الشاذلية.

خامسا: شروط التربية الروحية

1-الالتزام بالشريعة:

يرى الشيخ عبد الباقي مفتاح أن أول شرط من شروط التربية الروحية هو الالتزام الكامل ظاهرا وباطنا وفي جميع الأحوال بالشريعة، باعتبارها الأساس والمنهاج والغاية التي تقصدها الطريقة. إذ أنه يعدّ أعظم كرامة يوفق إليها العبد فلا يكون الفتح في الحقائق إلا بقدر هذا الالتزام[2]. ويؤكد في هذا المقام أن هذا الالتزام تجسّد فعلاً في شخص شيخه الشيخ سيدي محمد بلقايد حالا وعملا ومقالا، فكل توجيهاته لجميع تلاميذه كانت دائرة حوله. حيث كان الشيخ سيدي محمد بلقايد يتمثل أحيانا ببيت من شعر للشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي (560-638 هـ) يقول فيه:

لا تقتد بمن زالت شريعته *** عنه ولو جاء بالأنباء عن الله[3]

ويروي لنا الشيخ عبد الباقي قصة مفادها أن أحد خاصة مريدي الشيخ سيدي محمد بلقايد طلب منه، أي من الشيخ سيدي محمد بلقايد، وهو جالس معه تجاه الكعبة في

---

[1]- عبد الباقي مفتاح، منهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، مرجع سابق، ص3-4. ينظر أيضا: ألفية التصوف للإمام الشيخ مصطفى البكري الخلوتي وشرحها من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي، تحقيق وشرح عبد الباقي مفتاح، ط1، بيروت، كتاب-ناشرون 2020، ص 123-124.

[2]- عبد الباقي مفتاح، منهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، ص4.

[3]- ابن العربي، الفتوحات المكية، الباب 181. ويقول رضي الله عنه في بيت آخر من الشعر: ما نال من جعل الشريعة جانبا شيئا ولو بلغ السماء مناره.

الحرم المكي الشريف أن يسأل الله تعالى له الرضا والرضوان فأجابه بما معناه: "إن أردت حقا الحصول على طلبك هذا فالزم الاستقامة على التقوى فهي وحدها الجاذبة لما تطلب"[1].

وفي هذا المعنى يقول الشيخ أبو الحسن الشاذلي: "ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السنة، فمن أعطيها وجعل يشتاق لغيرها فهو عبد مفتر كذّاب، أو ذو خطأ في العلم والصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا وجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا"[2]. وحتى طلب الفتح وانتظاره يجعله أبو الحسن الشاذلي قادحا في إخلاص القصد وصدق التوجه، وإنما يعبد الله بالله لله على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يرى الشيخ عبد الباقي مفتاح.

ويقول أبو الحسن الشاذلي أيضا كما ينقل ذلك الشيخ عبد الباقي مفتاح: "كل علم تسبق إليك فيه الخواطر وتميل إليه النفس وتلتذ به الطبيعة فارم به وإن كان حقا. وخذ بعلم الله الذي أنزله على رسوله، واقتد به وبالخلفاء والصحابة والتابعين من بعده والأئمة الهداة المبرئين من الهوى ومتابعته، تسلم من الشكوك والظنون والأوهام والدعاوي الكاذبة المضلة عن العلم وحقائقه(...) وإذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنهما في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة"[3].

ويقول الشيخ أحمد بن عجيبة، وهو أحد خلفاء مولاي العربي الدرقاوي: "وقد رأيت كثيرا من الفقراء قصّروا من الشريعة فخرجوا من الطريقة وسلبوا نور الحقيقة، ورأيت آخرين طال أمدهم في صحبة القوم ولم يظهر عليهم بهجة المحبين ولا سيما العارفين، وما ذلك إلاّ لعدم التحفظ على مراسهم الشريعة. فو الله ما رأينا الخير إلاّ فيها ولا ربحنا إلاّ منها. فالله يرزقنا الأدب معها إلى يوم الفصل والقضاء آمين"[4].

2-الشيخ المربي الحي:

ويذهب الشيخ عبد الباقي مفتاح إلى أن ثاني شرط أساسي من شروط التربية الروحية هو الأخذ عن الشيخ المربي الحي وصحبته لوجه الله تعالى لا لحظ من حظوظ، بل عبودية

---

[1]- عبد الباقي مفتاح، منهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، ص5.

[2]- ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص66-67.

[3]- عبد الباقي مفتاح، منهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، ص6.

[4]- ابن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ط1، بيروت، المكتبة الثقافية، ص211.

محضة لله تعالى ومحبّةً في ذاته العلية وموالاة لأوليائه. ذلك أن التحقق الفعلي بالطريق لا يكون في البداية إلا بالسلوك على يد شيخ مربّ حيّ راسخ[1]. ويثبت الشيخ عبد الباقي هنا في إطار بيان هذا الشرط الثاني جملة من نصوص كبار السادة الصوفية منها: قول الشيخ محيي الدين بن العربي: "واعلم أن حرمة الحق في حرمة الشيخ وعقوقه في عقوقه. هم – أي الشيوخ – حُجّاب الحق الحافظون أحوال القلوب على المريدين. فمن صحب شيخا ممن يقتدى به ولم يحترمه فعقوبته فقدان وجود الحق من قلبه. فإن وجود الحق إنما يكون للأدباء. والباب دون الأدباء مغلق. ولا حرمان أعظم للمريد من عدم احترام الشيوخ. والأصل: كما لا يكون وجود عالَم بين إلهين ولا المكلف بين رسولين مختلفي الشرائع ولا امرأة بين زوجين كذلك لا يكون المريد بين شيخين إذا كان مريد تربية. فإن كانت صحبة بلا تربية فلا يبالي بصحبة الشيوخ كلهم لأنه ليس تحت حكمهم. وهذه تسمى صحبة البركة غير أنه لا يجيء منه رجل في طريق الله. فالحرمة أصل الفلاح"[2].

ومن أجل بيان العلاقة بين المريد وشيخه يورد الشيخ عبد الباقي مفتاح رسالة بعثها الشيخ العربي الدرقاوي لتلميذه العلامة "الشريف أحمد بن الهاشمي" بمعسكر في الغرب الجزائري، وهي على طولها في غاية الأهمية في بيان هذه العلاقة لذلك أوردها هنا كما هي في بحث الشيخ عبد الباقي ونصها بعد السلام: "وأنت يا سيدي أحمد فوالله لقد اشتقنا غاية إلى رؤيتك يا سيدي أحمد، ولا أدري ما منعك من القدوم إلينا هل هو الاستغناء عنا أو هو العلائق والعوائق، فإن منعك الاستغناء عنا فتبارك الله. ولكن لو استغنى أحد عن أحد لاستغنى أبو بكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان لا يصبر على مجالسته والتحدث معه ساعة حتى لقي الله. وإن كانت العوائق والعلائق فاتركها وتعال تجد الأقرب إليك من كل شيء حتى من نفسك التي بين جنبيك. واعلم أن من انقطع إلى الله كفاه كل مؤونة – كما قيل – وعلو الهمّة يا سيدي هو شأن أهل الصدق دائما فعليكم به. ولا تلتفت إلى شيء ولو كان نعيم الجنان أو موارد علوم أو أحوال أو مقامات وغير ذلك من موارد الأنوار التي يجدها أهل الصدق في حال سيرهم إلى الله حتى القطبانية، والفردانية وغير ذلك. قال مريد لأستاذه: أنت القطب فقال له ذلك الأستاذ: "نزه شيخك عن القطبانية" لأن من كان في حضرة الله لا مقام له. وأنا يا سيدي أحمد والله ما أنظرك إلا بهذه النظرة، أعني أنك لا تبغي بحبيبك بديلا، كما قال بعض السادات بعد كلام:

ليس لي في الجنان والنار رأي *** أنا لا أبتغي بحِبي بديلاً.

---

[1]-عبد الباقي مفتاح، منهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، ص7.

[2]- ابن العربي، الفتوحات المكية، الباب 181.

فاشرب يا أخي شراب القوم صرفا من غير التفات منك إلى شيء قط، كما هو شأن الأقوياء من أولياء الله قديما وحديثا " قوّاك الله قوّاك الله قوّاك الله". ونحبكم يا ساداتنا -أحبّكم الله- أن تستوصوا خيرا ببعضكم بعضا، وأن تعظموا بعضكم بعضا، وأن توقروا بعضكم بعضا، وأن تكونوا عبيدا لبعضكم بعضا، كما قال أبو الحسن مولاي علي الجمل رحمه الله: أهل الله يتنافسون فيمن يكون أسفل من صاحبه فلذلك دام عزّهم، وأهل الدنيا يتنافسون فيمن يكون أعلى من صاحبه فلذلك دام ذلهم وهذه أحوالهم"[1].

3-التزام المريد بما يرشده إليه شيخه من أذكار:

ويأتي الشرط الثالث في إطار هذه التربية كما يوضح ذلك الشيخ عبد الباقي مفتاح ليحدد دور المريد المتأهب لسلوك الطريق في السير إلى الله تعالى، وهو الالتزام بما يرشده إليه شيخه التزاما كاملا. ويكون على رأس هذه الالتزامات، بعد أن ينتهي المريد عن المحرمات والمكروهات ويؤدي الفرائض والسنن، "وِرْد الذكر" الذي هو أول الأركان الأربعة للطريقة، وأما الأركان الثلاثة الباقية، والتي هي: العلم والمذاكرة والمحبة، فيقول عنها الشيخ عبد الباقي مفتاح أن شيخه سيدي محمد بلقايد كثيرا ما كان يحث عليها.

والأوراد التي ينوّه بها الشيخ عبد الباقي مفتاح هنا في إطار حديثه عن ضرورة التزام المريد بما يرشده إليه شيخه من أوراد ذكر، هي في الواقع أوراد المدرسة الشاذلية عموما. وكمثال على ذلك نذكر جملة منها أوردها الشيخ عبد الباقي مفتاح، وتتمثل أساسا في وِرْد الذكر اللازم، وأوراد الذكر غير اللازمة، ووِرْد الذكر الدائم[2]:

أ- الورد اللازم يقرأ مرة في النهار وأخرى في الليل ومداره حول الاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم و"لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير" وتلاوة سورة الفتح ويستحب أيضا إضافة تلاوة سورتي يس والملك

---

[1]- ذكرها الشيخ بلهاشمي بن بكار، حاشية رياض النزهة على منظومة نسمات رياح الجنة في فضائل أهل البيت وأولياء الله وأذكار الكتاب والسنة، (وهو الكتاب الأول من كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب)، تلمسان، مطبعة ابن خلدون 1381هـ-1961م، ص 97-98. والعلامة بلهاشمي بن بكار (1317هـ - 1390هـ) / (1900 – 1970م) مفتي حاضرة معسكر. ألف مجموعة من الرسائل والكتب من أنفسها كتابه أعلاه المشهور الذي أخذ عنه من جاء بعده من علماء التراجم وأصبح مرجعا يعتمد عليه المؤرخون. ينظر: عبد الباقي مفتاح، منهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، ص7-8. وألفية التصوف للإمام الشيخ مصطفى البكري الخلوتي وشرحها من كلام الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي، تحقيق وشرح عبد الباقي مفتاح، ص125-126.

[2]- عبد الباقي مفتاح، منهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، ص8.

والإخلاص مع المعوذتين والفاتحة والدعاء.

ب- أوراد غير لازمة، أي لا يلتزم بها إلا من طلبها، كصلاة الشيخ عبد السلام بن مشيش (ت: 625 هـ) وأحزاب أبي الحسن الشاذلي وأحزاب أخرى، والأسماء الحسنى وأدعية أخرى، خصوصا الإكثار من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وتلاوة القرآن العظيم.

ج- وأما الورد الدائم الذي ينبغي للمريد أن يلتزم به حتى يمتزج بلحمه ودمه وجميع جزئياته ظاهرا وباطنا فهو كلمة التقوى الطيبة التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله**"[1]. ويتدرج ذاكرها من توحيد الأفعال في علم اليقين، إلى توحيد الصفات في عين اليقين، إلى توحيد الذّات في حق اليقين.

وفي هذا السياق، يطرح الشيخ عبد الباقي مفتاح مسألة في غاية الأهمية تتعلق رأسا بالسلوك بذكر الاسم المفرد "الله"؛ فما المقصود بذلك عنده؟

سادساً: السلوك بذكر الاسم المفرد الأعظم " اللّه "

يقول الشيخ عبد الباقي مفتاح بأن أهل التربية من أهل الله تعالى مجمعون في كل زمان على أن مفتاح الولاية الكبرى هو هذا الاسم المفرد الكافي (الله)[2] لقوله تعالى: ﴿ **وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرْ** ﴾ [العنكبوت: 45]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿**أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَه**﴾ [الزمر: 36]. وهذا السلوك الروحي بذكر اسم (الله) يكون بعدما تنطبع ذات المريد في أنوار وحقائق "لا إله إلا الله"- التي أشرنا إليها سابقا على أنها تمثل وِرد الذكر الدائم-وتصطلي بجذوة الشوق، فيقوم الشيخ المربي حينئذ بنقل مريده إلى ذكر الاسم الأعظم الجامع: (الله). فقوله تعالى: ﴿ **وَاذكُرِاسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلِ إِلَيْهِ تَبْتِيلا** ﴾ [المزّمّل:8] كما يرى الشيخ عبد الباقي مفتاح: يعني انقطع إليه انقطاعا. وهذا الانقطاع يكون في البداية في الخلوة بإشراف الشيخ، ثم بعد قطع مراحل لازمة لكل سالك يولد إثرها في عالم الملكوت يخرج الفقير لجلوة: ﴿ **فأيْنَمَا تُوَلواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله** ﴾ [البقرة 115][3].

وهذه الولادة الملكوتية أو قل "الولادة الثانية" تتم بعد الانعتاق والتحرر مما يسميه الشيخ عبد الباقي مفتاح: "السجن المربّع" لكثافة العناصر الأربعة المحيطة بالنشأة البشرية أي: التراب والماء والهواء والنار، وهي التي أشار إليها سلطان العاشقين عمر ابن

---

[1]- الترمذي، السنن، كتاب الدعوات: باب في دعاء يوم عرفة، حديث3585.

[2]- وقد خصص الشيخ عبد الباقي مفتاح لبيان معنى الاسم المفرد (الله) والسلوك بذكره كتابا بعنوان: الاسم الأعظم، بيروت، دار الكتب العلمية 2012. وسجل إهداءه فيه لشيخه الشيخ سيدي محمد بلقايد.

[3]- عبد الباقي مفتاح، منهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، ص9.

الفارض (ت:632هـ) في ميميته المشهورة التي يصف فيها شراب المعرفة الربانية فيقول:

وقالوا لي صفها فأنت بوصفها خبير *** أجل عندي بأوصافها علم

صفاء ولا ماء ولطف ولا هواء *** ونور ولا نار وروح ولا جسم

وفي هذا المقام ينبّه الشيخ عبد الباقي مفتاح إلى أهمية أن يُكثر السالك من ذكر الاسم بعدد أنفاسه مترقياً في معارج القرب والمعرفة إلى ما لا نهاية تحققا بقوله تعالى: ﴿**وَقل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه 114]، مستشهدا في هذا المعنى بقول الشيخ العربي الدرقاوي: "أيها الفقير لا تقل أنا على شيء ولا لست على شيء، وقل: الله الله، حتى تلقى الله"[1]. فهذه الوصية، كما يرى، هي شعار التربية الشاذلية المعبّرة عن التحقق الدائم بمحض العبودية ومحو كل سوى متوهم بشهود حقيقة قول النبي صلى الله عليه وسلم: **"كان الله ولم يكن شيء غيره"**[2].

ويذهب الشيخ عبد الباقي مفتاح إلى أنه حتى يكون الذكر مثمرا ومعراجه متواصلاً دائما يجب أن يتوفر معه شرطان:

"الأول: دوام الرابطة القلبية مع المربي إذ هو ومريده ورسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة متوحدة لا تتجزأ هي عين العبودية لمن له الأمر من قبل ومن بعد.

ثانيا: دوام الحضور بتركيز الفكرة. وسرعة سير المريد وقوته وفيضان العلوم والأنوار عليه تابعة لاستدامة الفكرة وصفائها وقوة الاستعداد ووسعه. فالطهارة ومخالفة الهوى هما سببا صفاء الفكرة التي هي مفتاح السير. وقد لخص هذه المعاني الشيخ العربي الدرقاوي في قوله: "مخالفة الهوى تجلب الأفكار. والأفكار تنتج العلم الوهبي حقا. والعلم الوهبي ينتج اليقين الكبير، واليقين الكبير ينفي الشكوك والأوهام بالكلية ويزجّ بصاحبه إلى حضرة الملك العلام"[3]. وأصل كل ذلك هو ترك ما لا يعني وإتقان الطهارة حسا ومعنىً، يقول الشيخ أبو الحسن الشاذلي: "من فارق المعاصي في ظاهره، ونبذ حب الدنيا من باطنه، ولزم حفظ جوارحه ومراعاة سره، أتته زوائد العلم واليقين والمعرفة من ربه، ووكل

---

[1]- المرجع نفسه، ص10.

[2]- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾ [الروم:27]، حديث رقم 3191، ج4، ص 105. وبلفظ: **"كان الله ولم يكن شيء قبله... "**، كتاب التوحيد، باب ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ [هود:7]، ﴿ **وهو رب العرش العظيم** ﴾ [التوبة:129]، حديث رقم 7418، ج9، ص 124.

[3]- عبد الباقي مفتاح، منهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، ص10.

به حارسا يحرسه، وأخذ الله بيده خفضا ورفعا"[1].

ويلخص الشيخ عبد الباقي مفتاح مراحل هذا السير في جواب شيخه سيدي محمد بلقايد لمن سأله عن كيفية التحقق بالعبودية الخالصة لله تعالى، فقال: "أولها الفناء في الذكر، وأوسطها الشرب من البحرين، ونهايتها في قوله صلى الله عليه وسلم: " كان الله ولم يكن شيء غيره"". ويعني بالشرب من البحرين، كما يشرح ذلك الشيخ عبد الباقي مفتاح، الجمع بين الظاهر والباطن، وبين الأضداد في عين الوحدة، كالتشبيه في عين التنزيه والتنزيه في عين التشبيه، والإطلاق في عين التقييد والعكس، وذلك من قوله تعالى: ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾ [الحديد:3][2].

وبناء على ما تقدم يكون الذكر مثمرا بدوام الرابطة القلبية مع الشيخ المربي بحقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم، ودوام الحضور بتركيز الفكرة. وإذا كان المقصود بدوام الرابطة القلبية مع المربي واضحا فماذا يقصد الشيخ عبد الباقي مفتاح بالفكرة؟ وما معنى التركيز عليها خلال بالذكر؟

سابعاً: صدق توجه الفكرة

يجيب أنّ المقصود بالفكرة يختلف حسب المقام؛ ولكن صدق توجه الفكرة أساسا هو البراق الذي يسلك عليه المريد. ويوضح مفهومها من خلال رسالة للشيخ العربي الدرقاوي يقول فيها:

"وأمّا ذكر الاسم المفرد فنرى – والله أعلم – أن الصواب أن يذكره الذاكر كما أقول له: بسكينة ووقار وإعظام وإجلال وحالة نظيفة سنية شريفة واعتماد على الله. وأن لا يذكر « الله الله الله » بلا مدّ قط وليذكر « الله اللَه اللَه» بوقف الإشباع ولا بدَ ولا بدَ، وليشخص حروفه الخمس ويستحضر تشخيصها بعين قلبه دائما وهم الألف واللامان والألف المحذوفة والهاء من غير أن يكتبها في شيء ومهما زهق عن تشخيصها رجع إليه من حينه ولو زهق عنه ألف مرّة. فإنه – أي الذاكر – يفتح عليه الفتح الكبير في أقرب مدة". فهذه المرحلة الأولى هي تحقق بالآية: ﴿**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنَ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُون**﴾[البقرة: 138][3].

---

[1]- عبد الباقي مفتاح، منهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، ص10.

[2]- المرجع نفسه، ص11.

[3]- عبد الباقي مفتاح، الاسم الأعظم، بيروت، دار الكتب العلمية 2012، ص198. ومنهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، ص11.

وفي رسالة أخرى له يقول: "وكيفية ذكره كما ذكرناه هو سجن النفس عن الخوض فيما ليس بصواب لأن الحس ضد المعنى والضدان لا يجتمعان. وبنفس ما ينقطع عن الذاكر الخوض فيه ترد عليه حينئذ معاني من الغيب كان لا يعرفها فيشتغل بها عن التشخيص وتفيض عليه إذ ذاك معاني قوية أقوى فحملته في أقرب مدة إلى حضرة ربه سبحانه وهناك يدرك من الأسرار والخيرات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والله على ما نقول وكيل"[1].

ولهذا كان مدار السير والسلوك في التربية البلقائدية، وطابعها الرئيسي وعمودها الأساسي، كغيرها من فروع الدرقاوية، التوجه إلى الله تعالى بذكر الاسم الأعظم المفرد[2].

ويرى الشيخ عبد الباقي مفتاح أنّ هذا ما يؤكد عليه شيخ الشيخ سيدي محمد بلقايد، أي الشيخ سيدي محمد بن الحاج محمد الهبري حيث يقول في إحدى رسائله لتلاميذه وهي باختصار كما نقلها الشيخ عبد الباقي مفتاح: "إخواني أوصيكم بوصية يعود نفعها عليكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة. عليكم بذكر الله في السرّ والعلانية. واصحبوا ذكركم بالفكرة فإن الذكر نور والفكرة شعاعه وكل نور لا يصحبه شعاع لا يرى صاحبه شيئاً، كما لا يخفاكم في عبّاد الخلوات يذكرون الشهور والأعوام ولم تظهر عليهم ثمرة ذكرهم لغفلا تهم عن شعاع الذكر (...) فالذكر إذا كان خاليا من الفكرة فلا ثمرة له ولا حياة له. والذكر إن صحبته الفكرة أثمر في الأرض الصلبة (...) وردوا فكرتكم لذاتكم ولا تبتعدوا عنها فكل شيء فيها(...) قال الششتري (610-668هـ):

يا تائها في مهمه عن سره * * * أنظر تجد فيك الوجود بأسره
أليس فيك العرش والكرسي * * * والعالم العلوي والسفلي

(...) ولا يصحب هؤلاء القوم إلا من تجرد ظاهره عن الحظوظ وباطنه عن اللحوظ فإنّ من تجرّد عن هاتين الحالتين ذكر الله وحصل على ما ذكرناه. وعليكم بالغيبة في الله واجعلوا قلوبكم بيت الله وأجسادكم مكّة وسرّكم حرمه. ولا تغفلوا عن الطواف بالبيت المعظم عند الله والتعظيم لمكة الله والسريان في حرم الله. وعليكم بالجد في ذكر الاسم الأعظم الجامع الكافي اسم الجلالة (الله) حتى يكون الإنسان كصدر الليث لا ينقطع منه الزفير. وذكر الاسم لا يستغني عنه مبتدأ ولا منتهي ولا متوسط. ومن لزمه حتى يمتزج بدمه

---

[1]- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[2]- ولا أدل على ذلك، فقد سجّل الشيخ عبد الباقي مفتاح في إهداء كتابه "الاسم الأعظم" أنّه لشيخه الشيخ سيدي محمد بلقايد.

ولحمه وعظمه وعروقه فلا يحجزه شيء ولا يخاف من شيء"[1].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن التربية الروحية في التصوف بالذكر بالاسم الأعظم لها مراحل متعددة يترقى من خلالها الذاكر بالاسم الأعظم. فما هي مراحل الترقي؟

ثامناً: مراحل الترقي

يرى الشيخ عبد الباقي مفتاح أن لهذا الترقي محوران أساسيان متكاملان فيما بينهما.

المحور الأول: هو محور ذوقي وجداني بالتحديد؛ حيث يتدرج فيه السالك عبر مقامات النفس الأمارة بالسوء إلى النفس اللوامة إلى النفس المطمئنة فالراضية فالمرضية فالملهمة فالكاملة. ولا نهاية للترقي في الكمالات. ولا ينعقد هذا المحور في الترقي إلا بالتحقق بسبع مراتب هي:

- التحقق بقواعد الإسلام الخمس، ثم التحقق الإيماني بطمأنينة القلب لعقائد وأخلاق القرآن الكريم، ثم التحقق بالصلاح بالمداومة على عبادة الله تعالى بين جناحي الخوف والرجاء. ثم الإحسان بالاستقامة في التوبة والإنابة والزهد والتوكل والرضا والتفويض والإخلاص في جميع الأحوال.

- ثم الشهادة بانعقاد المحبة لله تعالى من غير علّة، ودوام الذكر من غير فترة، والقيام على النفس المخالفة من غير رخصة.

- ثم الصديقية بحصول المعرفة في علم اليقين فناء وبقاء في حضرات الذات والأسماء والأفعال.

- وأخيرا القربة بالتمكين في الولاية الكبرى في حضرات الخلّة الإبراهيمية ثم الحُب المحمدي ثم الختام الأحمدي، وشهود الأحدية مع العبودة للألوهية في الصورة المحمدية جمعا للأضداد كلها في حضرة الذات العلية التي لا نهاية لكمالاتها.

والملاحظ أن كيفية السير الأكثر وقوعا عند الشاذلية عموما في هذا المحور الذوقي الوجداني هي كيفية الإشراق التي تزج بالمريد من أول قدم في وحدة الأفعال: ﴿**هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ**﴾ [فاطر:30] ووحدة الذات:﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ [القصص: 88] و﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ [البقرة: 115]. وفي عين هذا المقام الإحساني تتهذب تدريجيا

[1]- عبد الباقي مفتاح، الاسم الأعظم، ص 195 وما بعدها. ومنهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، ص12-14.

روح الفقير بالتخلق بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وتتغذى بالزيادة في التحقق بعلوم القرآن العظيم التي لا نهاية لها. يصف الشيخ أبو الحسن الشاذلي هؤلاء المتحققين بحقيقة القرآن فيقول: "أما أهل الله وخاصته، فهم قوم جذبهم عن الشر وأصوله، واستعملهم بالخير وفروعه، وحبب إليهم الخلوات، وفتح لهم سبيل المناجاة، فتعرف إليهم فعرفوه، وتحبب إليهم فأحبوه، وهداهم السبيل إليه فسلكوه، فهم به وله، لا يدعهم لغيره، ولا يحجبهم عنه، بل هم محجوبون به عن غيره، لا يعرفون سواه، ولا يحبون إلا إياه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولوا الألباب"[1].

وأما المحور الثاني: في الترقية فهو الذي يأخذ مفهومه، كما يرى الشيخ عبد الباقي مفتاح، بما ذكره الشيخ الأكبر في الباب 367 من "الفتوحات المكية" المتعلق بمنزل سورة الإسراء وفيه وصف لإسراء ومعراج النبي صلى الله عليه وسلم ووصف لأحد معارج الشيخ نفسه، وفيه يقول: "وأما الأولياء فلهم إسراءات روحانية برزخية يشاهدون فيها معاني متجسدة في صور محسوسة للخيال يعطون العلم بما تتضمنه تلك الصور من المعاني (...) غير أنهم ليست لهم قدم محسوسة في السماء و بهذا زاد على الجماعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسراء الجسم و اختراق السموات و الأفلاك حسا وقطع مسافات حقيقية محسوسة و ذلك كله لورثته معنىً لا حسًا من السماوات فما فوقها"[2]. فهذا المحور الثاني في الترقية إذن هو شهودي عرفاني، وهو عبارة عن معراج السالك عبر مراتب الوجود ملكا فملكوتا فجبروتا، ثم حضرات الأسماء والصفات، ثم إطلاق الذات في جمعية الإنسان المحمدي الكامل، تحقيقا لقول الشاذلي: "الطينة أرضية، والنفس سماوية، والقلب كرسي، والروح عرشي، والسر مع الله بلا كيف ولا أين". وفي هذا المعراج يتحقق السالك بحقائق القرآن في ذاته حروفا وكلمات وآيات وسورا. وغاية هذا المعراج التحقق بالصلاة الأحمدية الدائمة في حضرة: ﴿**وَاسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ**﴾ [العلق:19] وفي هذه الصلاة يكون الحق تعالى بهويته بصر المصلي بحيث يكون ممّن يرى الحق بالحق بالعين المحمدية.

تاسعاً: المشاهد المحمدية

ويرى الشيخ عبد الباقي مفتاح أنّ "أتم رؤية وأكملها وأعظمها هي، كما يقول الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي في عدة مواقع من "الفتوحات المكية": "رؤية الحق بالرؤية المحمدية في الصورة المحمدية". ولهذا فإن من أهم مراحل السلوك عند الشيخ عبد الباقي

---

[1]- عبد الباقي مفتاح، منهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، ص13.

[2]- أنظر بخصوص أهمّ مراجع الشيخ الأكبر المتعلقة بمعارج الأولياء: الباب 167 والباب 367 من "الفتوحات المكية"، وكتاب: "الإسراء إلى المقام الأسرى"، وكتاب: "رسالة الأنوار في ما يُمنح صاحب الخلوة من الأسرار".

مفتاح هو دوام تشخيص الذات المحمدية في جميع أحوال السالك وتحقيق الحضور الدائم في الصلاة الأحمدية.

وعن تفاوت السالكين في هذا المشهد يقول الشيخ أحمد بن عجيبة، كما ينقل ذلك عنه الشيخ عبد الباقي مفتاح، في شرح صلاة منسوبة للشيخ الأكبر ابن العربي: "فأهل الرسوخ والتمكين يدركون سرّه -عليه السلام- الذي هو سارٍ في كل شيء فلذلك لا يغيبون عنه طرفة عين. وأهل التلوين قبل التمكين يدركون روحه فيشاهدونه في غالب الأوقات. وأهل السير من المريدين يدركون قلبه فيحصل لهم كمال الإيقان وتقل رؤيتهم له عليه السلام. وأهل الحجاب من عامة الصالحين يدركون نفسه وعقله فيرون في المنام أو في اليقظة شخصه الحسي على قدر فنائهم فيه. وأهل هذا المقام هم أهل حضرة الأشباح، كما أن السابقين قبلهم هم أهل حضرة الأرواح أو الأسرار. والله أعلم"[1].

هذا هو معنى التربية الروحية الأصيلة في رؤية الشيخ عبد الباقي مفتاح وبعض معالمها، وكما تجلت أيضا وقبل ذلك عند شيخه سيدي محمد بلقايد، وكما يعمل الشيخ عبد الباقي مفتاح على إحيائها والدعوة إليها، إنها ما عَبَّر عنه المربي المجدد الكبير دفين تلمسان الشيخ سيدي شعيب أبي مدين (589هـ) في قوله: "من علامة صدق التوجه إلى الله الفرار عن الخلق، ومن علامات صدق الفرار عن الخلق وجود الحق، ومن كمال وجود الحق الرجوع إلى الخلق" وذلك بالإرشاد والتربية والدعوة إلى الله على بصيرة[2].

خاتمة

وهكذا نصل إلى أن التربية الروحية في رؤية الشيخ عبد الباقي مفتاح مدارها على جملة أمور أساسية هي:

1-الالتزام بالشريعة الإسلامية ظاهرا وباطنا.

2-ضرورة السلوك والأخذ عن الشيخ المربي الحي وصحبته لوجه لله تعالى لا لحظ من الحظوظ.

3-العمل على التزام المريد بما يرشده إليه الشيخ المربي من الإتيان بالأذكار بمختلف أنواعها كالاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كلمة التقوى "لا إله إلا الله" على الدوام حتى تختلط مع لحمه ودمه وعظمه وتنصبغ في حياته ووجوده.

---

[1]- عبد الباقي مفتاح، منهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني، ص13.

[2]- المرجع نفسه، ص16.

4-السلوك بالاسم المفرد الأعظم الله.

5-صدق توجه الفكرة، ذلك أن الفكرة هي البراق الذي يسلك عليه المريد إلى التحقق بمعرفة ربّه.

6-دوام تشخيص الذات المحمدية في جميع أحوال السالك وتحقيق الحضور الدائم في الصلاة الأحمدية.

المصادروالمراجع

الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل:

1-المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل:

2-الجامع الصحيح، تحقيق: محمد زهير ناصر بن الناصر، ط1، دار طوق النجاة 1422 هـ،

بن بكار، بلهاشمي:

3-حاشية رياض النزهة على منظومة نسمات رياح الجنة في فضائل أهل البيت وأولياء الله وأذكار الكتاب والسنة، (وهو الكتاب الأول من كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب)، تلمسان، مطبعة ابن خلدون 1381هـ-1961م.

الترمذي، محمد بن عيسى:

4-السنن، كتاب الدعوات: باب في دعاء يوم عرفة، حديث3585.

السكندري، ابن عطاء الله:

5-لطائف المنن، تحقيق وتعليق عبد الحليم محمود، ط3، القاهرة، دار المعارف 2006.

فرحات، عبد الوهاب:

6-سيدي أبو الحسن الشاذلي حياته ومدرسته في التصوف، ط1، القاهرة، مكتبة مدبولي 2002م.

عبد الرحمن، طه:

7-"التربية الروحية الإسلامية"،

https://www.nafahat-tarik.com/2015/02/sufism_36.html

ابن عجيبة،

8-إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ط1، بيروت، المكتبة الثقافية.

ابن العربي، محيي الدين (الشيخ الأكبر)

9-الفتوحات المكية، الأبواب: 167، 181، 367.

محمود، الشيخ عبد الحليم:

10-المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلي، القاهرة، دار الكتب الحديثة.

مخلوف، محمد:

11-شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت، دار الكتاب اللبناني 1349هـ

مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج:
12-الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، حديث 2722.
مفتاح، عبد الباقي:
13-ألفية التصوف للإمام الشيخ مصطفى البكري الخلوتي وشرحها من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي، تحقيق وشرح عبد الباقي مفتاح، ط1، بيروت، كتاب-ناشرون .2020
14-الاسم الأعظم، بيروت، دار الكتب العلمية .2012
15-"أصالة التصوف الإسلامي"، ضمن كتاب: تصوف الغرب الإسلامي في الدراسات الاستشراقية، تحرير وتقديم: إبراهيم رحماني وآخرون، ط1، الوادي-الجزائر، سامي للنشر والطباعة والتوزيع .2022
16-"كيفية التربية في الطريقة الدرقاوية الشاذلية تأصيلا وتجديدا"، مقال مخطوط للشيخ عبد الباقي مفتاح.
17-"منهاج التربية عند الشيخ سيدي محمد بلقايد التلمساني"، مقال مخطوط للشيخ عبد الباقي مفتاح.
18-"مقابلة مع الشيخ عبد الباقي مفتاح شيخ وعالم جزائري متخصص في التعاليم الأكبرية": الأسئلة طرحها الأستاذان محمد رستم وهاني طلعت إبراهيم. (مقابلة مخطوطة ويعمل حاليا الباحثان من أوكسفورد في جمعية ابن عربي على ترجمتها إلى الإنجليزية).
ملكاوي، فتحي حسن:
19-منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي 2020.
النقيب، عبد الرحمان وآخرون،
20-مقدمة في التربية وعلم النفس، الرباط، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة 1987.

الطريقة الرحمانية بوادي سوف ودورها العلمي

أ.د/ علي خضرة
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي
ali.khedourah@univ-eloued.dz

مقدمة

لقد عرف علم التصوف اهتماما كبيرا من الباحثين العرب والمسلمين لما له من مكانة أساسية في التراث الإسلامي حيث تبوأ مكانة هامة في الفكر الاستشراقي والإسلامي، والاهتمام بالتصوف قديم حيث ألف فيه الفلاسفة الأوائل كابن سينا والغزالي وابن خلدون، وتجادل فيه الفقهاء وعلماء الكلام ولم يتفق هؤلاء على رأي واحد سواء تعلق الأمر بحدوده أو أصوله.

كما أثارت الشخصيات المشتهرة في ساحة التصوف: كرابعة العدوية والحسن البصري، وأبو القاسم الجنيد بن محمد، ومحي الدين ابن عربي، والحسن بن منصور الحلاج، وشهاب الدين السهروردي وغيرهم اهتمام كثير من الباحثين قديما وحديثا.

فالتصوف ليس ظاهرة إسلامية خاصة بالعالم الاسلامي بل أن جذوره تمتد في أي فكر ديني عموما.

المطلب الأول: نشأة التصوف و انتشاره في الجزائر.

التصوف ظاهرة دينية عرفها التاريخ الإسلامي قوامها فلسفة روحية وتربوية ترتكز على الذكر والاعتكاف وفق أساليب تربوية مرهقة للنفس لحملها على الطاعة حتى ترتكز وترتقي إلى مراتب عليا من الإيمان، فالتصوف في البداية كان حركة بدأت بالزهد والورع ثم تطورت إلى علم ونظام شديد في العبادة وصارت اتجاها نفسيا وعقليا وسلوكا وعملا وعبادة.

لقد عرف مجتمع المغرب الإسلامي التصوف أوائل القرن الخامس هجري على أكثر تقدير[1]، مقارنة بظهوره في المشرق الاسلامي، ونتيجة لتطور التصوف ظهرت الطرق

[1] رزيوي زينب، العلوم والمعارف الثقافية بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (7هـ-9هـ/13-15م)، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2016/2015م، ص 30

الصوفية التي تعتبر بغض النظر عن توجهاتها الفكرية والسلوكية المختلفة من أهم مكونات المجتمع لفترة طويلة من الزمن فالمؤرخون يتفقون على أنها بدأت في الانتشار في الجزائر وكسب نفوذ اجتماعي لها فيها بل أحيانا تعدى إلى النفوذ السياسي ابتداء من القرن السادس عشر ميلادي ثم أخذت تنمو وتتسع حتى انتشرت على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر ميلادي وهي بذلك تشكل جزءا مهما من تاريخ الجزائر الديني والثقافي والاجتماعي بل السياسي.[1]

أما في الجزائر فبدأ التصوف نظريا ثم تحول ابتداء من القرن العاشر الهجري إلى الناحية العملية وأصبح يطلق عليه تصوف الزوايا والطرق الصوفية، وقد وجد التصوف وطرقه لأول مرة في بلاد القبائل والمناطق المحيطة بها، وكانت بجاية مركز إشعاع طرقي صوفي لعدة قرون من الزمن فلقد انطلق منها رجالات التصوف الكبار من أمثال أبو زكريا الزواوي وأبو زكريا السطايفي ويحي العيدلي والشيخ أبي مدين الذي انتقل فيما بعد إلى تلمسان، ومنها انتقل التصوف إلى بقية المناطق الأخرى[2].

لقد انتشر علم التصوف في الجزائر بفضل مدرسة عبد الرحمن الثعالبي ومحمد بن يوسف السنوسي وأحمد زروق وغيرهم من الشيوخ وبذلك اخذ التصوف يدخل من شرق الجزائر ومن غربها، ومع بداية القرن (10هـ/16م) ازدهر التصوف وتطور مع دخول العثمانيين حيث كان الحضور الصوفي أهم ما يميز هذه الفترة من حكم العثمانيين بالجزائر لأن الترك كانوا في تكوينهم الديني والنفسي والحربي من أتباع الطرق الصوفية فالطريقة "البكداشية" كانت منذ ظهورهم تقودهم وتؤثر فيهم، وتحميهم وتدفع بهم إلى الجهاد والمغانم وتبارك أعمالهم فكانوا يدينون لرجالها بالولاء ويتبركون بهم وينظرون إليهم نظرة المريد لشيخه والسيد لسيده ثم تعددت الطرق الصوفية وتأثيراتها على الترك[3].

كما عرفت الجزائر سيطرة روح التصوف على الحياة العلمية والاجتماعية ونتيجة لذلك كثر الإنتاج في هذا المجال فنجد كتب التصوف تناولت الأذكار والأوراد والمناقب والشروح تخص القصائد الصوفية حيث كان التأليف في علم التصوف أكبر علم عكس بقية العلوم الأخرى، في الفترة العثمانية[4]، إذ راج في المجتمع العثماني بوصفه نزعة دينية

---

[1] نور الدين أبو لحية، جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية وتاريخ العلاقة بينهما، دار علي بن زيد، الجزائر ص74.

[2] طيب جاب الله، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، مجلة معارف، ع 14، 2013م، ص136.

[3] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص459.

[4] عبد القادر صحراوي، الأولياء والتصوف في الجزائر خلال العهد العثماني، دار هومة، الجزائر، 2016م، ص250.

تقوم أساسا على الإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها.

وقد انتشر في العهد العثماني وكثر كثرة مفرطة في الزوايا التي تميزت بانتشار الطرق الصوفية فكثرت بذلك المباني المخصصة للطرق خاصة في ظل تشجيع السلطة لهذه الطرق[1].

كما عرفت الجزائر العديد من المتصوفة ورجال الدين يقيمون العبادات حتى بلغ عددهم نحو العشرين طريقة تباينت واختلف اختلافا بينا في كثير من جوانبها الثقافية والسياسية والعلمية وحتى الاجتماعية نتج عنه تباين مدى تأثيرها الثقافي والسياسي في مجرى تاريخ الجزائر في مرحلة العثمانيين.

كما تجدر الإشارة في هذا الصدد أنه بقدر ما سيطرت روح التصوف على الحياة العلمية والاجتماعية في الجزائر خلال تلك الفترة بقدر ما كثر إنتاج العلماء في ميدان التأليف والتنظير لهذا العلم الفتي في البلد، وتنوعت الكتب والرسائل والمنظومات التي تتناول التصوف من قريب أو من بعيد كالأذكار والأوراد والردود والمناقب والمواعظ والحكم والشروح الخاصة بالقصائد الصوفية والمدائح النبوية التي تنظر إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) نظرة صوفية وروحانية.

المطلب الثاني: مفهوم الطريقة وأركان تنظيمها.

الطريقة: هي منهاج اختصّ به المتصوفة بغية تطهير القلوب من كل المؤثرات التي تشغلها عن محبة الله.[2]

والطريقة في المفهوم الصوفي تصور تطبيقي للحياة الروحية يسعى إلى التوافق بين الحقيقة الإلهية والشريعة الإسلامية في سبيل التقرب إلى الله (عز وجل) وتعني الطريقة أيضا عند البعض اتصال المريد بالشيخ وارتباطه به حيا أو ميتا؛ وذلك بواسطة ورد من الأذكار يقوم به المريد بإذن من الشيخ [3].

الطريقة عند الصوفية هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله، من قطع المنازل والترقي

---

[1] دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2015/2014م، ص 22.

[2] عبد القادر رابحي وعامر زناتي، الطريقة التيجانية وامتدادها غرب إفريقيا خلال القرنين 18 – 19 م، مذكرة لنيل شهادة الليسانس في التاريخ الحديث المعاصر، إشراف الدكتور بن يوسف تلمساني، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2007 / 2008، ص 06.

[3] أبوبكر جابر الجزائري، إلى التصوف يا عباد الله، د ط، دار البصير للنشر، الإسكندرية، د ت، ص 23.

في المقامات، بمعنى السير إلى الله سيرا حقيقيا معنويا لتزكية النفس والجوارح عن منكرات الأخلاق والأعمال.[1]

فهي إذن المناهج والمدارس لتربية النفس وإرشادها، الناتجة عن التجارب والخبرات في تزكية النفس. فكما حفظ علماء الفقه والاجتهاد حدود الشريعة باستنباط الأدلة لاستخراج الأحكام؛ فكذلك حفظ علماء التصوف العارفون آداب الشريعة وروحها، فاستنبطوا آدابا ومناهج لتربية المريدين وتهذيب السالكين. [2]

فالطريقة هي ثمرة التصوف الذي عرفه المجتمع الإسلامي حسب ما تذكر المصادر المتخصصة إلى أواخر المائة الثانية للهجرة. حيث بدأ في شكل حركة زهدية منذ القرن الأول للهجرة.

وهي نتاج اعتكاف السالكين هذا الطريق على تلاوة القرآن والتدبر فيه، باعتباره يضم عددا كبيرا من الآيات الداعية إلى الزهد والتصوف والاتعاظ بسيرة النبي وأقواله في الزهد.[3] ومنها قوله تعالى: **(من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نوته منها وما له في الآخرة من نصيب)** [الشورى، الآية 20]

ومن أحاديث النبي . صلى الله عليه وسلم . الداعية إلى الزهد كقوله (صلى الله عليه وسلم): **"من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فانطلق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما إلى دار السلام"**.[4]

المطلب الثالث: التنظيم الهرمي للطريقة الرحمانية [5]:

تسلك الطريقة الرحمانية في تربية أفرادها ومريديها سلما هرميا في التربية والسلوك، يتمثل في الأركان التالية:

---

[1] توفيق مزاري عبد الصمد، الطريقة عند الرحمانية، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، كلية العلوم الاسلامية، جامعة الجزائر، العدد: 04، ص: 237.

[2]. عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف، مكتبة العرفان، حلب ط 1995، ص 477

[3] الطاهر بونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و 7هـ/ 12 و 13 م، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ط 2004، ص 36

[4] أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 4 ط 1، دار الكتب العلمية بيروت، 1986، ص 235.
روى الحديث أبو موسى الأشعري أخرجه الامام الذهبي في ميزان الاعتدال، رقم: 665/2، وقال لا يصح.

[5] سناء عدائكة، وسام حمامة، هادية نصيرة، الدور الاجتماعي والثقافي للطريقة الرحمانية في وادي سوف خلال فترة الاحتلال الفرنسي، مذكرة نيل شهادة الليسانس في التاريخ، معهد العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، المركز الجامعي بالوادي، الموسم: 2011/2010م ص: 17

أولا: الشيخ: وهو رأس الهرم، ويعتبر أهم إطار فيها، يستمد نفوذه من مكانته الدينية، باعتباره العارف بالله والقادر على تربية النفوس، وهو صاحب الكرامات يملك المعرفة الحقة بالشريعة الإسلامية.

ثانيا: الخليفة: يأتي في المرتبة الثانية، وهو الذي يرث مقاليد الطريقة، وعادة ما يسمى بالخليفة الأكبر وهو الذي يسير الطريقة، والدفاع عن مصالحها، فيحافظ عن أوراد الطريقة والأذكار الخاصة بها، وهو بمثابة المدير العام ويتخذ من مقر الزاوية الأم مقرا له.

ثالثا: المقدم: وهو ممثل الشيخ أو الخليفة في إحدى زواياه فهو بمثابة مدير وحدة ويفوض له الشيخ ممارسة مهامه لدى أتباع الطريقة بالزاوية عن طريق حصوله على إجازة من شيخه، ويعمل على نشر الطريقة، وكسب المريدين ويؤاخي بينهم، وقد يمنحه الشيخ صلاحيات واسعة بالمناطق البعيدة عن مقر إقامته.

رابعا: المريد: جمع المريدين وهم يشكلون قاعدة الهرم ويطلق عليهم اسم الإخوان أو الأحباب في المغرب العربي، ويتميزون بأسماء مختلفة من طريقة إلى أخرى. وأهم شيء يلقنه الشيخ للمريد في بداية عيده طاعة أهل الطريقة وعلى رأسهم الشيخ.

خامسا الورد: الورد بكسر الواو وكسر الراء، وهو أذكار خاصة تفرض على المريد يتلوها يوميا بصورة فردية أو جماعية، حسب الظروف بعد صلوات الصبح والمغرب والعشاء، وأحيانا حتى بعد صلاة الظهر والعصر.

سادسا: القطب: هو صاحب أعلى الدرجات في حكومة رجال الغيب، وهو موضع نظر الله من العالم في زمان ما، ويسمى بالغوث باعتبار التجاء الملهوف إليه، ومعناه رأس العارفين، كما يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبله الله، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان.

سابعا: الكرامة: عرفها الونشريسي في كتابه المعيار الكرامة بقوله: "بأنها فعل خارق للعادة تظهر على يد عبد صالح في دينه متمسك بسنة الله في جميع أقواله من غير ذوي التنبؤ[1].

[1] عطية أمينة، الطرق الصوفية ودورها بمنطقة وادي سوف ما بين 1900 م- 1939 م، مذكرة لنيل شهادة الليسانس في التاريخ، قسنطينة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، السنة الجامعية 2006 / 2007، ص:14

المطلب الر ابع: الطريقة الرحمانية بوادي سوف

تأسست الطريقة الخلوتية على يد الشيخ محمد الخلوتي، وهو من إيران، الذي عاش في القرن السابع والقرن الثالث عشر الهجريين وقام بنشر تعاليمها تلاميذه وخلفاؤه، ومن أشهرهم: عمر الخلوتي المتوفي سنة(800هـ/ 1397م) وقد تغلغلت الطريقة أولا في آسيا الصغرى وأوروبا الجنوبية الشرقية والحجاز والهند، ثم انتقمت إلى مصر وباقي شمال إفريقيا، وتفرعت إلى فروع، وفي القرن (11هـ/ 16م) أعطاها دفعا جديدا الشيخ العلامة مصطفى بن كمال الدين البكري والذي أسس طريقة تدعى البكرية بأنحاء سوريا [1] وبعد وفاة الشيخ الإمام سيدي محمد بن عبد الرحمان الجرجري، الأزهري حمل مشعل الطريقة الرحمانية في الجزائر وشمال إفريقيا عموما، وأعلوا لواءها، شيوخ كثر منهم: الشيخ سيدي مصطفى بن عزوز صاحب زاوية نفطة بتونس.[2]

ولقد انتشرت الطريقة الرحمانية بوادي سوف على يد مؤسسها، الشيخ محمد بن عزوز البرجي، الذي زار المنطقة قبل وفاته ونصبت لو خيمة ومكث بها أربعة أيام ناشرا للطريقة الرحمانية، واستمرت من بعدها مراسلاته مع مريديه بوادي سوف فكان من أشهرهم: الشيخ علي باليل من بلدة الزقم والحاج أبو بكر يذكرهم فيها دوما بالورد والإكثار من الذكر لبلوغ أعلى المراتب الصوفية [3]. وقد كان أول تأسيس للزاوية الرحمانية بولاية الوادي عن طريق مؤسس الزاوية الرحمانية الأم، وهو: سيدي سالم بن سيدي محمد بن سيدي نصر بن سيدي عطية الشريف بن الزاير محجوب، والمعروف بسيدي سالم العايب، دفين القيروان، الذي ولد سنة 1768م، وافته المنية سنة 1277هـ، 1860م.

هذا وقد سهر على قيام الزاوية بوظيفتيا التربوية الروحية ورسالتيا التعليمية والاجتماعية، والثقافية عدد كبير من شيوخها الذين أشرفوا على إدارتها، فتولى مشيخة الزاوية من بعد سيدي سالم ذرية طيبة خلفوه وساروا على نهجه وعمّروا ا زاويته وحملوا لواء الطريقة الرحمانية من بعده.[4] ولقد انتشرت الطرق الصوفية في الجزائر والمغرب

---

[1] سناء عدائكة، وسام حمامة،هادية نصيرة، الدور الاجتماعي والثقافي للطريقة الرحمانية في وادي سوف..مرجع سابق، ص: 20

[2] بن سالم بن الهادف ورشيد سالمي، الطريقة الرحمانية .زاوية سيدي سالم الرحمانية قلعة القرآن الكريم في ربوع سوف، مطبعة مزوار، الوادي، ص 05.

[3] موسى بن موسى، إرهاصات الإصلاح بوادي سوف في مطمع القرن العشرين ميلادي، الندوة الفكرية الرابعة، عبد القادر الياجوري قمار، أيا 16 / 17 ذو القعدة 1425 هجري، الموافق 26 / 27 ديسمبر 2004، ص 35

[4] بن سالم بن الهادف ورشيد سالمي، مرجع سابق، ص 10.

الإسلامي خاصة، وهذا لأجل بالعقيدة الإسلامية والحفاظ عليها، رافضة بذلك كل أنواع البذخ والانحلال الأخلاقي والاجتماعي والسياسي الذي كان منتشرا حينها في المغرب الإسلامي عامة، وفي الجزائر من أثر الاستعمار خاصة.

ولقد تولت المؤسسات الثقافية والعلمية المحصورة في المساجد والزوايا مهمة نشر الدين والتعليم العربي الإسلامي، ونشر الوعي والثقافة العربية والاسلامية في ربوع الوطن كله.

المطلب الخامس: الأدوار العلمية والعملية للطريقة الرحمانية بوادي سوف

لقد كانت الزاوية الرحمانية بالإضافة إلى تحفيظ القرآن الكريم، تقيم حلقات علمية وجلسات تدريبية لإلقاء الدروس والمحاضرات في شتى العلوم الشرعية كعلم الحديث والفقه وأصوله وتفسير القرآن وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبيان وإعجاز ونظم وغيرها.

وقد كان الشيخ الطاهر العبيدي مفسرا للقرآن الكريم ومعلما للغة العربية والحديث ومدرسا للفقه وأصوله.

كما كان الشيخ الطاهر العبيدي يثير رصيد طلبته وأتباع الطريقة الرحمانية العزوزية بمؤلفات تخدم اللغة العربية منها: منظومة بغية الأمل في نظم رسالة العوامل في النحو، وكتاب تلخيص الآجرومية. كما نُظمت فيه من طرف الشيخ رسالة البيان للدردير تكلم فيها عن التشبيه والمجاز والكنايات، ومنها اختصار ما أتى به الإمام الدردير حتى يسهل على القارئ حفظها وجمعها.[1]

هذا ولقد قامت الطريقة الرحمانية منذ تأسيسها بولاية الوادي بأدوار علمية وعملية عديدة تمثلت في:

أولا: العهد

يبدأ المريد حين الدخول العملي للطريقة الرحمانية بالعهد، والعهد في الطريقة الرحمانية هو: "أن يبايع المريد المرشد، ويعاهده على السير معه في طريق التخلي عن العيوب والتحلي بالصفات الحسنة، والتحقق بركن الإحسان "ذلك" أن الطريق عبارة عن شيخ ومريد، فطبيعي أن يكون ما يربط بينها هو العهد والبيعة، فالعهد إذن هو رباط بين

[1] سعد بن البشير العمامرة وأحمد بن الطاهر منصوري، أعلام من سوف، جمعية الجماعة السوفية، الوادي، الج ا زئر، 2005، ص 39،

رجلين تحابا في الله وتعاهدا على طاعته، إنه بيعة لله وفي الله وبالله". [1]

وبهذه الصورة يكون العهد أشبه بالبيعة من حيث التزام الطاعة، كما ذكر ابن خلدون صورتها بقوله: "وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده، جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، فسمي بيعة، مصدر باع وصارت البيعة مصافحة الأيدي، هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع، وهو المراد في الحديث في بيعة النبي- صلى الله عليه وسلم .ليلة العقبة وعند الشجرة "[2].

ثانيا: التلقين

بعد أخذ العهد من الشيخ تأتي الخطوة الثانية من خطوات الدخول العملي في الطريقة الرحمانية، وهي التلقين، ويراد به تعليم الشيخ للمريد كيفية الذكر نطقا وبدءا. وذلك "أن يجلس بين يديه على ركبتيه، مستقبلا القبلة، بعد صلاة ركعتين وتوبة، ثم يطرق الشيخ رأسه، ويدعو سرا وهو واضع يديه على ركبتي نفسه وكذا المريد، وكل منهما غاض بصره، ويقول له اسمع مني الذكر ثلاث مرات، وقل أنت بعد ذلك، ثلاث مرات، وأنت مغمض عينيك وأنا أسمع منك" [3]

ثالثا: الوصية

وبعد التلقين يقدم الشيخ للمريد مجموع من الوصايا والالتزامات، وهي كلها تدور حول الأركان التي قامت عليها الرحمانية، وأهمها الوصية الجامعة لقواعد التهذيب في الرحمانية، وهي: "اسمع عني وصيتي إليك واعمل بها كما ألزمت نفسك عهد الله وميثاقه، أن تتقي الله تعالى في سائر أحوالك، وتخلص في جميع أعمالك، ولا تلتفت لنظر الخلق إليك، بل غب عنهم بنظر الله لك، واطلاعه على سرك وعلانيتك، وعليك باتباع الكتاب والسنة، فإنهما الطريق الموصل إلى الله تعالى، واعمل متجردا على حظوظ نفسك في الدنيا والآخرة، ولا تعمل لملاحظة الكرامات، ولا خوفا من عقاب الله، ولا طمعا في ثوابه، بل لقصد رضى الله عنك ومحبته لك، والقيام بحقوق العبودية، والثواب لاشك حاصل، وتحصيل ا لحاصل عبث، وعليك بالإحسان للخلق، بتوقير الكبير والرحمة للصغير، وعليك بالزهد في الدنيا إلا ما ستر العورة، أو آوى الجثة وسد الجوعة، فإن زدت على ذلك

---

[1] عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف، مكتبة العرفان، حلب سوريا، ط 3، 1993، ص 82

[2] ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر بيروت، ط 1، 2003، ص 205

[3] مصطفى باش تازري: المنح الربانية في بيان المنظومة الرحمانية، المطبعة الرسمية التونسية، ط 1307 هـ، ص 35

فإياك والغرور، وعليك بالورع في كل ما فيه شبهة وعليك بكف الأذى وإن أوذيت، وعليك بالصبر فإنه رأس، وعليك بالرضى على الله في كل شيء ورد عليك، وعليك بمجالسة من يدلك على الله بقوله وفعله، وعليك بكف لسانك عما لا يعنيك، وعليك بالثقة بالله على كل حال وفي كل حال، والتوكل على الله والشكر له وعليك بذكر الموت فإنه أساس الزهد، وإياك والخصومة والمجادلة والمماراة وإن كنت محقا، والبغي وحب الشهرة بالخير والميل إلى المدح، والتزام الأدب مع كل مخلوق، ولا تيأس من رحمة الله وفرجه وإن ضاقت الأمور".[1]

رابعا: الورد

وهو من لوازم الطريقة الرحمانية، ويراد به الوظيفة من ذكر أو قراءة، يلتزم بها المريد كوسيلة لتطهير نفسه وتزكيتها. ويقدمها صاحب الطريقة في إجازة منه لأحد التلاميذ. يذكر أولا " لا إله إلا الله" خاصة، أولا من عصر الجمعة إلى عصر يوم الخميس، ثم يترك "لا إله إلا الله"، ويبدله بالصلاة الشاذلية وهي: اللهم صل وسلم على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه، ثمانين مرة، ثم يترك صلاة الأمي أيضا ويبدلها ب "لا إله إلا الله "من عصر يوم الجمعة إلى عصر يوم الخميس وهكذا دائما طوال العمر"[2]

لذلك يجتمع أتباع الرحمانية في زواياهم ويرددون الذكر ويطبقون وصية الشيخ الأزهري، فيجتمعون من عصر الخميس إلى عصر الجمعة، ويذكرون بأصوات عالية، ويمكنهم الدخول والخروج بشرط أن يبقى جماعة من هم تواصل الذكر والأدعية والصلوات. وهناك زوايا ينقسم فيها الإخوان إلى أفواج حسب ساعات منتظمة لمواصلة الذكر.

خامسا: الإجازة العلمية والعملية.

يضاف إلى ما تقدم من الجوانب العملية والعلمية للطريقة الرحمانية مبدأ الإجازة، وهي الإجازة الشرعية عند الرحمانية، لأن الشيخ الأزهري لم يكتف بتأسيس الطريقة والزاوية وإنما بث المعارف وفقه التوحيد والتفسير واللغة، لذلك أصبح التعليم عندهم جزءا هاما من مهمات المقدمين الذين كانوا عادة من بين المتعلمين، وتشهد إجازاتهم على أنهم يعملون بالعلم الظاهري أو الشريعة بالإضافة إلى العلم الباطني أو الحقيقة والطريقة، ولهذا نشأت معاهد ومدارس في ظل الزوايا الرحمانية ومكتبات وحلقات درس

[1] محمد الصغير: تعطير الأكوان بنشر شذا نفحات أهل العرفان، المطبعة الثعالبية، الجزائر 1916، ص 145.
[2] أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، بيروت ط 1، 1982، ج 2 ص 461.

في وقت قل فيه العلم خلال العهد الاستعماري، وهذا ما يمكن اعتباره نوعا من المقاومة الثقافية والحضارية التي قامت بها الرحمانية ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

خاتمة

وفي الختام نخلص أن الطريقة الرحمانية بوادي سوف قد أسهمت كباقي الطرق الصوفية الأخرى التي عرفت بالمنطقة، ولا تزال بدور كبير في الجوانب العلمية والعملية المتعددة، التي بها ومن خلالها تخدم الرسالة المحمدية، والشعور بالانتماء إلى الأمة العربية والاسلامية، مثل العناية المستمرة باللغة العربية وعلومها ووقايتها من التلاشي. كما كان لحفظ القرآن الكري والتربية الروحية التي تبنتها الطريقة الرحمانية بوادي سوف خصوصا، والجزائر عامة، دور كبير في الحفاظ على الهوية الجزائرية والثوابت الوطنية. كما أسهمت بدور واسع في المحافظة على التراث الوطني والموروث العمراني للمنطقة، وسعت كذلك في نشر الوعي الثقافي الإسلامي، لعموم أبناء المنطقة، مما أسهم في إحداث نوعا من الاستعداد النفسي، والنمو الروحي بضرورة الشعور الوطني والحس النفسي لمقاومة الاحتلال الفرنسي الغاشم واحباط مساعيه في محاولته لمسخ الثوابت الوطنية وطمس الهوية العربية الاسلامية للشعب الجزائري، والعبث بتاريخه ونضال أبنائه الأحرار، وكرست مبدأ التحرر من العبودية الاستعمارية والهيمنة العسكرية الغاشمة.

قائمة المصادروالمراجع

- محمد الصغير، تعطير الأكوان بنشر شذا نفحات أهل العرفان، المطبعة الثعالبية، الجزائر 1916.
- أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، بيروت ط 1، 1982، ج2.
- ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر بيروت، ط 1، 2003.
- مصطفى باش تازري: المنح الربانية في بيان المنظومة الرحمانية، المطبعة الرسمية التونسية، ط 1307 هـ.
- سعد بن البشير العمامرة وأحمد بن الطاهر منصوري، أعلام من سوف، جمعية الجماعة السوفية، الوادي، الج ا زئر، 2005.
- عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف، مكتبة العرفان، حلب سوريا، ط 3، 1993
- بن سالم بن هادف ورشيد سالمي، الطريقة الرحمانية .زاوية سيدي سالم الرحمانية قلعة القرآن الكريم في ربوع سوف، مطبعة مزوار، الوادي،.

- موسى بن موسى، إرهاصات الإصلاح بوادي سوف في مطمع القرن العشرين ميلادي، الندوة الفكرية الرابعة، عبد القادر الياجوري بقمار، أيام: 16 / 17 ذو القعدة 1425 هجري، الموافق لـ: / 26 / 27 ديسمبر 2004.
- عطية أمينة، الطرق الصوفية ودورها بمنطقة وادي سوف ما بين 1900 م- 1939 م، مذكرة لنيل شهادة الليسانس في التاريخ، قسنطينة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، السنة الجامعية 2006 / 2007.
- سناء عدائكة، وسام حمامة،هادية نصيرة، الدور الاجتماعي والثقافي للطريقة الرحمانية في وادي سوف خلال فترة الاحتلال الفرنسي، مذكرة نيل شهادة الليسانس في التاريخ، معهد العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، المركز الجامعي بالوادي، الموسم: 2011/2010م.
- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 4 ط 1، دار الكتب العلمية بيروت، 1986
- عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف، مكتبة العرفان، حلب ط 1995
- الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و 7ه/ 12 و13م، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ط 2004 .
- عبد القادر رابحي وعامر زناتي، الطريقة التجانية وامتدادها غرب أفريقيا خلال القرنين 18 و 19 م، مذكرة لنيل شهادة الليسانس في التاريخ الحديث المعاصر، إشراف الدكتور بن يوسف تلمساني، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2007 / 2008.
- أبوبكر جابر الجزائري، إلى التصوف يا عباد الله، د ط، دار البصير للنشر، الإسكندرية، مصر، د ت.
- توفيق مزاري عبد الصمد، الطريقة عند الرحمانية، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، كلية العلوم الاسلامية، جامعة الجزائر، العدد: 04.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
- عبد القادر صحراوي، الأولياء والتصوف في الجزائر خلال العهد العثماني، دار هومة، الجزائر، 2016م.
- دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2015/2014م.
- رزيوي زينب، العلوم والمعارف الثقافية بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (7ه-9ه/13-15م)، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر،

2016/2015م.
- نور الدين أبو لحية، جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية وتاريخ العلاقة بينهما، دار علي بن زيد، الجزائر .
- طيب جاب الله، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، مجلة معارف، ع 14، 2013م.

محمد الصالح بن سيدي سالم الأعرج السوفي وجهوده في خدمة التصوف

(1263هـ - 1335 هـ)

أ.د/ معمر قول

كلية العلوم الإسلامية – جامعة الوادي

maamar-koul@univ-eloued.dz

توطئة

تعتبر عائلة سيدي سالم بوادي سوف من العائلات التي مثّلت الطريقة الرحمانية بالمنطقة وأدخلت تعاليمها إلى الجنوب الجزائري وأسست زاوية بها وبالتحديد بسوق الأعشاش، ولا تزال الزاوية إلى اليوم صرحا شاهدا على النشاط الروحي والديني بالمنطقة وسجلا تاريخيا لسيدي سالم الأعرج السوفي مؤسس الزاوية وأولاده من بعده، سيدي محمد الصالح وسيدي مصباح، ولا زالت الخلافة في ذريتهما إلى يومنا هذا.

وعلى ضوء ما سبق ذكره نطرح الإشكالية التالية: من هو سيدي محمد الصالح؟ وما هو سنده الروحي في الطريقة؟ وما هي أبرز النشاطات الروحية والتربوية والعلمية التي قامت بها الزاوية في عهده؟

اسمه ونسبه: قال إبراهيم العوامر في كتابه البحر الطافح في فضائل شيخ الطريق سيدي محمد الصالح:

"هو سيدي محمد الصالح ابن الولي شيخ الطائفة الأعرج سيدي سالم بن أمين بن سيدي محمد بن سيدي امحمد بن سيدي محمد بن سيدي نصر بن سيدي عطية الشريف من نسل سيدي الزاير بن سيدي المحجوب دفين القيروان وقبره بها يُزار، وسيدي المحجوب يُرفع نسبه إلى سيدي عبد السلام بن مشيش (ت 625هـ) شيخ أبي الحسن الشاذلي، ويُرفع نسب هذا الأخير إلى فاطمة الزهراء." [1]

وعلى هذا يظهر الامتداد النوراني في سلسلة نسب الشيخ محمد الصالح، لا سيما وأن الشيخ عبد السلام بن مشيش بذرة الطريقة الشاذلية حلقة في هاته السلسلة.

مولده: ولد سيدي محمد الصالح سنة 1263هـ بالوادي وكانت وفاته بها سنة

[1] البحر الطافح في فضائل شيخ الطريق سيدي محمد الصالح، إبراهيم العوامر، مطبعة بيكار وشركائه، تونس، بدون تاريخ، ص 30 وما بعدها.

1335هـ[2].

3.سنده الروحي والعلمي: يورد إبراهيم العوامر في البحر الطافح السند الروحي لسيدي محمد الصالح، فقد أخذ الطريق كأخيه مصباح عن والده سيدي سالم عن سيدي علي بن عمر الطولقي عن سيدي محمد بن عزوز البرجي عن الشيخ عبد الرحمن باش تارزي عن سيدي محمد بن عبد الرحمن الجشطولي الأزهري، كما تلقى تعليمه بالزاوية السالمية بالوادي على يد والده سيدي سالم، والتحق بزاوية نفطة وأخذ على يد شيخها آنذاك مصطفى بن عزوز البرجي، وقد كان هذا الأخير من المساهمين في تأسيس زاوية نفطة بالجنوب التونسي والتي قامت بدور كبير في إرساء التعليم القرآني واللغة العربية ومبادئ الدين، كما كان لها إسهام كبير في الثورة ضد الاستعمار عند احتلا تونس سنة 1881م.[1]

ويقول الشيخ عبد الباقي مفتاح في كتابه أضواء على الطريقة الرحمانية في شأن سيدي محمد الصالح:

" تميز منذ صباه بشفافية روحية عالية، فكان في صغره كثير المرائي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولشيوخ الطريق، أخذ تربيته الروحية عن والده سيدي سالم ثم عن الشيخ سيدي مصطفى بنفطة، فكان يتردد على زيارته. وقد شهد الكثير من العلماء والصلحاء بعلو مقام الشيخ محمد الصالح في تربية المريدين وترقية السالكين، حيث لاحت على العديد منهم أنوار المعارف وشواهد الولاية منهم العلامة الشيخ الطاهر العبيدي وأخوه أحمد."[2]

4.تلاميذه: من أبرز تلاميذ محمد الصالح: الطاهر العبيدي-أحمد العبيدي-محمد بن عبد الصادق بتقرت-الشيخ سعيد مقدم الطريقة الرحمانية بقمار، وقد سمي مسجد باسم هذا الأخير يسمى مسجد سيدي سعيد.[3]

---

[1] المصدر السابق، ص 31 وما بعدها بتصرف. وانظر أيضا سنده الروحي في: أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية اندلاع الحرب العالمية الأولى، عبد المنعم القاسمي الحسني، دار الخليل القاسمية، الجزائر، ط 2005، ص 172.

[2] أضواء على الطريقة الرحمانية، عبد الباقي مفتاح، الوليد للنشر، كوينين الوادي، 2004، ص 174 وما بعدها

[3] أضواء على الطريقة الرحمانية، عبد الباقي مفتاح، المرجع نفسه، ص 174 وما بعدها بتصرف. وانظر أيضا هذه الصفات في: طبقات رجال الطريقة الخلوتية الرحمانية، عبد المنعم القاسمي الحسني، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف،، ط01، 2015م، ص 368 وما بعدها، والملاحظ أن الباحث استثمر ما ذكره العوامر في كتابه البحر الطافح.

5. في صفاته وفضائله: تحدث إبراهيم العوامر في البحر الطافح عنه بأسلوب ينبئ عن سيرة الرجل وخلاله وعلاقاته مع من حوله كما يؤرخ النص لسيرة الرجل وسلوكه مع الخلق ومعاملاته وهو مما يقوم عليه الطريق إلى الله، وسنورد النص كاملا كما أورده إبراهيم العوامر- رحمه الله-، لأن المصادر في ترجمة الرجل شحيحة وكل من كتب حول سيرة محمد الصالح اعتمد على إبراهيم العوامر، ومما جاء فيه:" كان أحد أركان الطائفة الصوفية ذا خشية ووقار وتفكر واعتبار وخلوة وأذكار ونور وأسرار وتبجيل واحترام وسهر وقيام وباع طويل وقدر جليل وفعل جميل وشرف حفيل وقدم راسخ وعز شامخ وصيت صارخ حلو الكلام دائم الابتسام مطعم الطعام مواسي الأيتام صائب الآراء صادق الأنباء حامل الأعباء مظهر الأشياء، أوقع الله محبته في قلوب الناس وتبعه جم غفير من الفضلاء الأكياس وقصده الخلق من كل مكان وأنطقه الله بالحكمة وملّاه بالهيبة، وكان يُشيّع الجنائز ويعود المرضى دائم العزلة شفيعا بين الخلق في الخصومات يواسي الفقير ويرحم الصغير ويوقر الكبير طلق الوجه رحب الصدر رحيم القلب كريما جوادا سخيا بهيا يتفقد أحوال أهله وأقاربه تفقدا شافيا كثير الإكرام لأعدائه قليل الحسد كثير البكاء عند ذكر الله، يركب الفرس كعادة أهل الله، يلبس كأواسط الناس متواضعا عفيفا ورعا، مجاب الدعوة ما دعا لمريض إلا شافاه الله، وما نظر إلى عاص بعين الرضا إلا تاب الله عليه، كثير الشفاعات عند الأمراء، كان مهابا جميع الناس تجله وكلامه نافذ فيهم، كثير الطاعات والصدقات كثير النفقة على الطلبة والزاوية والمسجد، يحب الطلبة والاجتماع بهم ويكرمهم ويقدمهم على نفسه في الحوائج يسعى في خدمة الناس بنفسه."[1]

وهذا النص القيم الذي دونه إبراهيم العوامر شهادة ثمينة لجهود الرجل في إرساء القيم والأخلاق والفضائل في المجتمع السوفي آنذاك، وقد دون إبراهيم العوامر قصائد أيضا في مدحه وبيان جميل فعله وصنعه وكونه جعل البلاد القفر عامرة بالقيم والأخلاق وجميل الخصال، ومنها قوله:

حمدتك يا مستوجب الحمد والشكر .:. ويا واهب الأفضال والمنن الغرّ
وذا سيدي محمد الصالح الذي به .:. شرُف العمران والموضع القفر [2]

6.العلاقة مع زاوية نفطة: أخذ أبناء تونس الطريقة الرحمانية في وقت مبكر عن الشيخ عبد الرحمن الأزهري نفسه، وكان بعث في حياته تلميذا له إلى تونس لنشر طريقته وهو سي مصطفى الطرابلسي الذي توفي سنة 1776م، إلا أن الانتشار الحقيقي للطريقة

[1] البحر الطافح في فضائل شيخ الطريق سيدي محمد الصالح، مصدر سابق، ص 33.
[2] المصدر نفسه، ص 50.

بتونس كان على يد مصطفى بن عزوز البرجي الذي يعتبر من الذين أسسوا زاوية نفطة بالجنوب التونسي، وكان لها دور ديني واجتماعي وكان رجالها يكملون تعليمهم بالزيتونة ويتولون الوظائف الدينية، ومنهم المكي بن عزوز، الخضر حسين، عاشور الخنقي، وحافظ محمد الصالح على علاقته بالزاوية متبعا في ذلك سيرة أبيه سيدي سالم الأعرج، وكان كثير الزيارة لها.[1]

ويرى الشيخ عبد الباقي مفتاح في كتابه أضواء على الطريقة الرحمانية أن الشيخ مصطفى كان والده محمد بن عزوز من أعلام شيوخ طريقة والده العزوزية الرحمانية وبعد وفاة الوالد كفله خليفة والده الشيخ علي بن عمر مؤسس زاوية طولقة، وتربى في زاويته ثم أرسله إلى الشيخ الحاج علي التماسيني بتماسين بنواحي تقرت ولما رأى الشيخان علي بن عمر والحاج علي التماسيني كفاءة الشيخ مصطفى وأهليته للمشيخة أمراه بالذهاب إلى نفطة بالجريد التونسي ليؤسس زاوية قرآن وعلم وتربية.[2]

7.أهم أعمال الزاوية في عهد محمد الصالح: كان لزاوية سيدي سالم نشاط روحي وتربوي وعلمي يشهد بجهود رجالاتها، ومن أعمالها في عهد سيدي محمد الصالح: تدريس العلوم الشرعية ومبادئ الدين-قضاء حوائج الناس والإصلاح بينهم- فكّ النزاعات والخصومات-خدمة الفقراء والمحتاجين.

8.الوفود إلى الزاوية السالمية: كانت زاوية سيدي سالم قبلة روحية وعلمية لكثير من العلماء والشيوخ من أقطار المغرب العربي ومصر، في هاته الفترة، ومن أبرز الوفود، الفقيه إبراهيم البختُري من تونس، ومحمد بن محمد النفطي، والشيخ العروسي بن عزوز، والشيخ المكي بن مصطفى بن عزوز، والشيخ الخضر حسين شيخ الأزهر في وقته، ومحمد الحافظ التجاني المصري.

9.التراث العلمي بالزاوية: قام الباحث الجباري عثماني[3] بإعداد دراسة حول التراث المخطوط بالزاوية [4]،وقد ذكر الباحث الجباري عثماني خمسة عشر مخطوطا(15) موزعة بين الفقة والعقيدة والسنة، أما التصوف فقد أورد مخطوطا واحدا وهو الموسوم ب:

---

[1] انظر الطريقة الرحمانية، الأصول والآثار منذ البادیات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، عبد المنعم القاسمي الحسني، دار الخليل للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2013، ص 780 بتصرف.

[2] أضواء على الطريقة الرحمانية، عبد الباقي مفتاح، مرجع سابق،ص 108 بتصرف.

[3] أ.د الجباري عثماني أستاذ التعليم العالي جامعة الوادي –كلية العلوم الإسلامية-قسم الحضارة

[4] الدراسة موسومة ب " التراث المخطوط بخزائن الطرق الصوفية في وادي سوف-زاوية سيدي سالم العزوزية أنموذجا جرد وإحصاء، مجلة الذاكرة، المجلد 02-العدد02، الصادر بتاريخ 17-12-2014.

تحفة السالكين ودلالة السائرين لمنهج المقربين، لمؤلفه إبراهيم بن محمد الساسي العوامري السوفي [1]، ولا زالت الزاوية إلى يومنا هذا تستقبل طلبة العلم من جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي، لا سيما طلبة كلية العلوم الإسلامية لإنجاز بحوثهم ومذكراتهم، وهذا دور علمي كبير لا يمكن إنكاره، فالزاوية مؤسسة دينية تسهم في الحفاظ على هوية الأمة من خلال نشر التعليم الديني المعتدل الذي يتوافق مع توجهات الدولة والدستور الجزائري.

ويذهب الباحث الجباري عثماني في دراسته عن التراث المخطوط بالزاوية أن الشيخ مصباح رحمه الله قام بأعمال متميزة منها الإشراف على الزاوية وهو في بداية عقد العشرينيات من العمر، حيث تولى أمور الزاوية سنة 1911م خلفا لأبيه، واستطاع تحفيظ أبنائه القرآن، كما تفطن لتعليم المرأة في وقت كانت مهملة وهي قيمة تحسب في خانة المآثر النادرة التي قلما يجود بها الزمان في تلك الأوقات، فمن يفكر في تعليم النساء، كما يرجع له الفضل في إرساء قواعد التعليم القرآني بالزاوية، والتشجيع على نهل العلم والمعرفة؛ بإرسال بعض أبناء الزاوية إلى تونس للاستفادة من العلوم، والتعمق في الحفظ وفهم المتون.[2]

خاتمة

بعد هذا العرض البسيط لأبرز أعلام التصوف بمنطقة وادي سوف- الشيخ محمد الصالح بن سيدي سالم الأعرج السوفي (1263هـ- 1335 هـ) – نخلص إلى بعض النتائج:

1.شحّ المادة العلمية المتعلقة بحياة الرجل باستثناء ما كتبه إبراهيم العوامر (ت:1300) في كتابه البحر الطافح في فضائل شيخ الطريق سيدي محمد الصالح، وحتى ما كتب من دراسات ومقالات حول الرجل كان إشارات قليلة وكلها من إبراهيم العوامر مقتبس.

2.السلسلة الروحية والرابط النوراني الممتد بين عائلة سيدي سالم الرحمانية والمؤسس سيدي محمد بن عبد الرحمن الأزهري شيوخا وتلاميذ.

3.من أبرز من أخذ عن الشيخ سيدي محمد الصالح: الطاهر العبيدي، وأحمد

---

[1] التراث المخطوط بخزائن الطرق الصوفية في وادي سوف-زاوية سيدي سالم العزوزية أنموذجا جرد وإحصاء، مجلة الذاكرة، المجلد 02-العدد02، الصادر بتاريخ 17-12-2014،ص 14.

[2] انظر: التراث المخطوط بخزائن الطرق الصوفية في وادي سوف-زاوية سيدي سالم العزوزية أنموذجا جرد وإحصاء، مرجع سابق، ص 06 بتصرف.

العبيدي، وهما من أعلام الطريق ومن رجالات العلم والتربية في جزائرنا المحروسة.

4.النشاط التربوي والروحي الذي قام به سيدي محمد الصالح يتجلى فيما أرخه الشيخ إبراهيم العوامر في كتابه "البحر الطافح عن فضائل محمد الصالح"، وهو وثيقة تاريخية هامة جدا لنشاط سيدي محمد الصالح وأبنائه.

5.توصف الزاوية السالمية بالزاوية العزوزية نظرا لتأثير سيدي محمد بن عزوز البرجي وابنه من بعده مصطفى في الزاوية السالمية.

6.علاقة الزاوية السالمية بزاوية سيدي علي بن عمر الطولقي وتأثير هذه الأخيرة في الذين تولوا مشيخة الزاوية، مما يؤكد على الصلات الروحية والعلمية بين مناطق الجنوب الجزائري.

7.إسهام محمد الصالح وآبائه وأبنائه في نشر ونقل الطريقة الرحمانية إلى القطر التونسي وتحديدا بنفطة، وهو ما كان له دور إيجابي في الإسهام في ثورة تونس.

8.التراث العلمي المخطوط بالزاوية في مختلف العلوم باعث على تحريك الهمم لتحقيقه إبرازا للدور العلمي الذي قامت به زاوية سيدي سالم وشيوخها على مر الأزمنة في حفظ التراث الديني من الاندثار.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الشيخ الطاهر العبيدي ودوره التربوي والتعليمي بمنطقة وادي سوف

ط.د/ رحومة العربي، إشراف: أ.د/ معمر قول
كلية العلوم الإسلامية – جامعة الوادي
rehouma-mohamedlarbi@univ-eloued.dz

مقدمة

تتناول هذه الورقة كشف اللِّثام عن أحد أهمّ أعلام التصوُّف بمنطقة وادي سوف، مِنَ الذين تركوا بصماتهم واضحة في الساحة الفكرية والدينية والعلمية بالجنوب الشرقي من الجزائر: وادي سوف وتقرت. فقد استمرَّ عطاء الشيخ العبيدي في مجال التربية والتعليم وتكوين الشباب ما يربو عن ستين عاما كاملة، بثَّ خلالها مختلف العلوم التي حازها وحصَّلها من فقه وتفسير ونحو وأصول ولغة ومنطق. وكان إلى جانب ذلك يضطلع بمهام موازية لا تقل أهمية عن مهمة التعليم، فقد كان يباشر مهمة الخطابة والإفتاء وتأليف الكتب والمصنّفات في مجالات العلوم المختلفة.

لقد انتصب الشيخ العبيدي بعد تخرُّجه من الزيتونة لما أنيط به من مهام جسيمة وثقيلة، ساهم من خلالها في بثّ الوعي والتنوير ورفع الجهل في أوساط مجتمعه، كما خلّف رجالا كانت لهم أدوار بارزة في خدمة التربية والتعليم وتنشئة جيل صالح لدينه ووطنه.

ومن خلال بحثنا هذا، نودُّ أن نتعرّف على أثر الفكر الصوفي لأحد علماء الطريقة الرحمانية، وهو الشيخ الطاهر العبيدي، في النهوض بالحياة الفكرية والتربوية والتعليمية لمنطقة وادي سوف وتقرت.

ونستهدف من خلال هذا البحث ما يلي:

- التعريف بأحد أعلام منطقة وادي سوف.
- التعرف على طبيعة التصوُّف العملي الذي ساهم في التوعية الدينية في مجتمع سوف وما جاوره.
- إبراز جوانب من الإسهامات التعليمية للشيخ في المجال التربوي والفقهي والعقدي.

وستنتظم خطة عملنا في هذا البحث وفق النقاط الأساسية التالية:

1- التعريف بالشيخ الطاهر العبيدي –رحمه الله-.

2- التعريف بطبيعة التصوُّف السائد في حياة الشيخ وانتمائه إلى الطريقة الرحمانية بوادي سوف.

3- إسهامات الشيخ العبيدي في مجال التربية والتعليم بوادي سوف وما جاورها.

المبحث الأول: التعريف بالشيخ الطاهر العبيدي

لقد عمل الاستعمار الفرنسي الغاشم على محاربة التعليم والثقافة العربية والإسلامية التي كانت متجذرة في الشعب الجزائري المسلم، وجعل يحارب كل ما له صلة بالهوية من لغة عربية ومدارس وكتاتيب ومساجد وغيرها، ومارس سياسة التجهيل التي طالت أجيالا متعاقبة، وأراد أن ينشر بعد ذلك لغته وسياسته التعليمية، غير أنه ظهر أمام فرنسا علماء أفذاذ ورجال عظماء أمثال البشير الإبراهيمي والإمام ابن باديس وآخرون كالشيخ الطاهر العبيدي، الذين بذلوا جهودا كبيرة في الحفاظ على الهوية من خلال التربية والتعليم ونشر العلم بين الناس في المساجد والمدارس والزوايا.

1- مولده ونشأته: هو الشيخ الطاهر بن علي بن بلقاسم بن عمارة العبيدي المالكي مذهبا، الخلوتي طريقة، السوفي نسبا، التقرتي مسكنا، ولد في حي أولاد أحمد بمدينة الوادي خلال عام 1304هـ/1886م[1]، وهو يجاور مسكن الشيخ العلامة إبراهيم بن عامر. ينتمي الشيخ إلى أسرة فقيرة، حيث كان أبوه صاحب عيال، يمارس حرفة الحدادة للحصول على قوت يومه، ويدعى لعبيدي أو (بيدي) نسبة إلى أولاد سيدي عبيد، القاطنين ببئر العاتر ولاية تبسة حاليا، حيث نزح منها جد العائلة واسمه بالقاسم الحداد خلال القرن 12هـ/18م، وهو من أولاد عبد الملك فريق أبي طارفة. وكان بالقاسم هذا رجلا تقيا ورعا، فآواه يوسف أحد أبناء سيدي مستور، وزوجه بابنته مبروكة، وانتسب عندئذ لأهل سوف، وأنجب من زوجته ثلاثة أبناء هم: علي ونصيب وسعد، ومن الأول جاء عمارة والعبيدي والد الشيخ الطاهر[2]. ينتهي نسبه إلى الإمام علي رضي الله عنه[3].

تزوج أبوه لعبيدي مرتين: الزوجة الأولى من عائلة قماري بحي الأعشاش بالوادي، أنجبت له: علي ومصطفى(1883-1967م). ثم بنى بامرأة ثانية من حي المصاعبة، تدعى ضية بنت بالقاسم بن عمران بن مراد[4]. فولدت له من الأبناء: عبد القادر والشيخين: الطاهر وأحمد، ثم البشير(1894-1977م)، وبنتا تدعى العزوزية[5].

---

[1] قمعون، عاشوري: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مجلة المنهل، جامعة الوادي، العدد 04، السنة 03، جانفي 2017م، ص192. نقلا عن: سليماني، عبد السلام: الشيخ الطاهر العبيدي بمناسبة عيد العلم، محاضرة ألقيت بالمسجد الكبير بتقرت يوم الجمعة 14 أفريل 1983م، مرقونة بالآلة الكاتبة، ص2.

[2] العوامر، إبراهيم: كتاب الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، الدار التونسية للنشر، 1977م، ص281.

[3] انظر: قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص194.

[4] المرجع السابق، ص193. نقلا عن: مقابلة مع عبد الكريم شتحونة يوم 2009/12/07م بمنزله بالوادي.

[5] المرجع السابق، ص193 نقلا عن: لقاء مع عبد الله النان وأحمد خراز يوم الجمعه 2008/11/14م، على الساعة 17.

ولد الشيخ الطاهر بعد سبعة أشهر من حمله (سبوعي)، فلفَّته أمّه ضية بنت بالقاسم مراد في جزة من الصوف، ودأبت على تغذيته بقطرات من لبنها صباحا ومساء بكل تحفظ ورفق. ولمّا مرّ على ولادته شهران، استهل صارخا. وكانت تلك هي صرخة الميلاد الأولى. ففرحت أُمّه، ونهضت على الفور لتصنع له لباسا. وتربى في كنف والديه[1].

كان أبوه يستعين بأبنائه الكبار في حرفته مثل: عبد القادر وعلي ومصطفى، الذين لم تتوفر لهم فرصة الدراسة، لانشغالهم بمساعدة والدهم، ولم يسلم من هذه المهنة الشاقة سوى اثنين من أبنائه، هما الشيخان: الطاهر وأحمد اللذان نبغا نبوغا كبيرا في ميدان الفقه الإسلامي واللغة العربية بمختلف فنونها[2].

2- دراسته وطلبه للعلم: تعلّم القرآن الكريم بالكتاتيب القرآنية، كبقية أقرانه وكما هي عادة الأهالي في الدفع بأبنائهم للزوايا والكتاتيب من أجل حفظ القرآن منذ نعومة أظفارهم، وقد ظهرت عليه بوادر النجابة والذكاء في سنّ مبكّرة، وأخذ عن مشايخها مبادئ العلوم الدينية، وممّن تعلّم عنهم الشيخ عبد الرحمن العمودي[3]، الذي كان أول من قرأ عليه في داره بالمصاعبة علم القراءات ومتن ابن عاشر والرسالة ورسالة السفطي والتوحيد والحديث النبوي. ثم لزم الشيخ محمد الصالح بن موسى(ت 1909م) الذي كان من أوائل أساتذته. ثم واصل تعليمه على يد ابنه العالم الهمام الشيخ محمد العربي بن موسى(1873-1905م)، الذي درس عليه علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة... وتم ذلك كله في زاوية سيدي سالم الرحمانية. وقد تفتحت على يديه مواهبه اللغوية والعلمية، وكان أشياخه يجلونه ويقولون هو أوفر من قرأ علينا عقلا، وأكثرهم تحصيلا، وما رأينا من التلامذة أنجب منه؛ لهذا نصحه الشيخان: عبد الرحمن ومحمد العربي بمواصلة الدراسة بجامع الزيتونة[4]. ومن الذين أخذ عنهم بزاوية سيدي سالم، الشيخ الصادق بن محمد الهادي العقبي(1869-1939م) والذي كان يتبرع بدروس يلقيها في زاوية سيدي سالم الرحمانية[5].

---

[1] عبيدي، المكي: الشيخ الطاهر، نشأته ونبذة من ترجمته. مراسلة بعث بها إلي محمد المداني عبيدي حفيد الشيخ الطاهر يوم 2014/12/08م.

[2] قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص193. نقلا عن: سليماني: المرجع السابق، ص2.

[3] المرجع نفسه، ص195. نقلا عن: تقاييد مصطفى سالمي، محمد الطاهر العمودي وأحمد خراز.

[4] المرجع نفسه، ص195. نقلا عن: المكي عبيدي: الشيخ الطاهر نشأته ونبذة من ترجمته. مراسلة بعث بها إلى محمد المداني عبيدي حفيد الشيخ الطاهر يوم 2014/12/08م. وعبد السلام سليماني: المرجع السابق، ص2.

[5] قمعون: المرجع السابق، ص196.

عندما انتقل به أبوه إلى مدينة ورقلة القديمة للعمل هناك، أدخله إلى مدرسة الشيخ جلول حابي(1839-1924م)[1] بوسط المدينة، ودرس عليه القرآن في بيته مع عدد كبير من الطلاب. غير أن إقامته لم تدم طويلا، حيث رجع أبوه إلى مسقط رأسه، فأدخله عند الشيخ الجديد العزوزي، ثم درس في جامع سيدي سالم مع شقيقه أحمد، على يد الطالب علي حليلات بن مبروك، والذي اشتهر باسم (علي بالرقية). ثم أدخلهما إلى جامع النخلة بحي أولاد أحمد، القريب من مسكنه. وختم الشيخ الطاهر القرآن الكريم، وتمكَّن من حفظه وإتقانه على الشيخ إبراهيم بالقايد(1877-1943م) قبل سن البلوغ[2]، إذ كان عمره آنذاك حوالي تسعة أعوام. ورافق الشقيقين، ابن عمتهما مبروكة، وهو الأديب والصحفي الكبير الأمين بن يوسف العمودي(1892-1957م)، وهو أول أمين عام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومن مؤسسيها الأوائل[3]. ولم يدخل الشيخ الطاهر المدرسة الفرنسية قط. وكان الشيخ الطاهر عندما يهم بالذهاب إلى الجامع مبكرا في بداية الأسبوع، أي يوم السبت، يرفع رأسه للأعلى ويقول لأخيه أحمد: انظر إلى السماء، إن هذا اليوم هو يوم أسود لأنه يوم اليهود. أما في نهاية الأسبوع أي يوم الأربعاء، عندما يكون الشيخ حينها مقبلا على العطلة الأسبوعية، يقول لأخيه: انظر إلى السماء، إن هذا اليوم هو يوم أزهر، يضوي وحده، لأنه نهار المسلمين[4].

انتقل إلى تونس في سبيل طلب العلم، وكان عمره آنذاك ثماني عشرة سنة أي عام 1904م، فأكمل تعليمه بالزيتونة، وأخذ عن الشيخ الطاهر بن عاشور والشيخ محمد الخضر بن الحسين والشيخ أحمد بن مراد والشيخ حسن بن يوسف والشيخ محمد النجار والشيخ أحمد البنزرتي والشيخ صالح الهواري والشيخ خليفة بن عروس والشيخ

---

[1] ولد الشيخ جلول حابي عام 1839م، وتخرج على يديه الكثير من طلبة القرآن الكريم الذين كان يدرسهم في بيته، وهو من السلالة الشريفة، إذ ينتهي نسبه إلى الولي الصالح سيدي الحفيان، دفين ورقلة. وقد دفن الشيخ جلول بمسجد سيدي الحفيان. وقد درس الطالب جلول عن والده، توفي عن عمر يناهز 85 عاما سنة 1924م. (قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص194. نقلا عن: مراسلة محمد المداني بن المكي وهو حفيد الشيخ الطاهر).

[2] العبيدي، الطاهر: رسالة الستر، تحق: محمد محدة، مطبعة البعث، قسنطينة، 1985م، ص5.

[3] قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص194. نقلا عن مقابلة شخصية مع الأستاذ محمد الطاهر بن عبد السلام العمودي(محاسب متقاعد، قريب للعائلة)، عام 2003م بمنزله بالوادي.

[4] قمعون: المرجع نفسه، ص194. نقلا عن: مقابلة شخصية مع الشيخ أحمد العبيدي عام 1968م بمنزله بالوادي.

النخلي والشيخ ابن محمود وغيرهم[1]. كما اطلع هناك على أمهات الكتب والمصادر في العلوم الشرعية والأدبية، ولكن شاءت إرادة الله أن يعود الشيخ إلى وطنه الجزائر بعد ثلاث سنوات[2]، قبل استكمال دراسته بسبب ظروف عائلته المادية القاسية، إلا أنّ عصاميته وجِدَّه واجتهاده جعلوا منه عالما فقيها وأصوليا حجّة، ومتصوفا عارفا، ولغويا محنكا، وواعظا متمرسا، وأستاذًا ناجحا. كما أخذ الإجازة بالمراسلة من الأستانة عن الشيخ محمد المكي بن مصطفى بن عزوز، الذي هاجر إلى تركيا، وتوفي بها عام 1915م[3].

ما إن أتمَّ الشيخ الطاهر ثلاث سنوات بالزيتونة حتى قفل راجعا إلى أسرته؛ لظروف والده المادية الصعبة-كما أسلفنا-، وواصل تعليمه عصاميا وتصدى لنشر العلم في أوساط الناس بمسجد سيدي المسعود بسوق الوادي وكذا جامع النخلة. وكأنها وصية شيخه محمد العربي الذي تنبأ له بالمشيخة من بعده لمَّا مرض وقيل له: إنك تركتنا من دون شيخ، فأجابهم على أنه سوف يخلفه تلميذه، الشيخ الطاهر بعد وفاته. وفعلا لم يطل المقام بالشيخ الطاهر بين أهله حتى وجد نفسه مضطرا لمغادرة الأسرة والقبيلة، متوجها نحو مدينة تقرت[4].

وقد أطلق أهل الجنوب على الشيخ الطاهر العبيدي لقب " مالك الصغير" اعترافا له بغزارة علمه وتفنُّنه في العلوم الإسلامية المختلفة، ويدلل هذا أيضا على تمسك الشيخ الطاهر بالمذهب المالكي الذي يعتنقه أهل بلدته وعموم بلاد الغرب الإسلامي، وظل يُعلّم ويُرشد طيلة ستين عاما حتى وافاه الأجل سنة 1968م، وشيع بتقرت في جنازة مهيبة، يقول عنها من حضرها أنه لم ير مثلها قط، واجتمع في تأبينه علماء من مناطق مختلفة، من أبرزهم الشيخ إبراهيم بن عمار بيوض(1889-1980م)[5].

3- مؤلفاته: للشيخ الطاهر العبيدي –رحمه الله- عدة مؤلفات ومنظومات شعرية، تربو عن العشرين كتابا في شتى ميادين المعرفة من: اللغة والأدب والفقه، والتصوُّف، والأصول، وبعض القضايا الاجتماعية وغيرها، وكثير منها لم يطبع إلى الآن-للأسف-، ويمكن ترتيبها كما يلي:

---

[1] محفوظ، محمد: تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1982م، ص306،304-307.

[2] سليماني: الشيخ الطاهر العبيدي بمناسبة عيد العلم، مرجع سابق، ص2.

[3] قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص198.

[4] المرجع نفسه، ص198-199.

[5] حرزولي، العزوزي: منظومة اليبان بأسهل بيان للعلامة الشيخ الطاهر العبيدي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، المجلد7، العدد7، 2015/06/01م، ص222.

أ- **الرسائل الفقهية:** وقد جاءت أغلب هذه الرسائل على شكل منظومات، برع فيها الشيخ براعة واضحة، وقام بعرضها بأسلوب جميل ومبسط وواضح، ومن أهم هذه الرسائل التي تناولت مسائل فقهية ولغوية، نذكر:

– رسالة الستر. وهي منظومة تضم حوالي 170 بيتا، قام الأستاذ محمد محده بتحقيقها والتعليق عليها، ونشرتها دار البعث بقسنطينة عام 1985م[1]. وعن أسباب تأليفها فقد كان الشيخ يستقبل الأسئلة بشكل مكثف من مختلف نواحي القطر الجزائري، وخاصة ما يتعلق بأحكام ستر العورة، فقام الشيخ بنظم هذه الرسالة التي شملت كل آرائه من حيث النظر المباح وغير المباح، ومسألة الخلوة بالأجنبية، وما يجب ستره في الصلاة وفي غيرها[2].

– رسالة السلاح والعدة في مهمات أحكام المعتدة. وقد ذكر العبيدي في هذه الرسالة كل أنواع العدة، مثل: عدة الحرة والأمة في الطلاق والوفاة، واستبراء الحرة والأمة، بالإضافة إلى المؤبد تحريمها من معتدة ومستبرأة ومخلفة. وأشار كذلك إلى تحريم خطبة المعتدة، والإنفاق عليها، والإهداء إليها، وما يحرم على المعتدة في الوفاة من الانتقال وأنواع الزينة، وبطلان عوائد العدة شرعا، وما يجب للمعتدة من السكنى والنفقة والكسوة، كما تعرض لمسألة الزنا، وختم رسالته ببيان أنواع الطلاق، وفيما جرى به العرف من ألفاظ الطلاق، وفي الأخير حذر من الفتوى بغير علم[3].

–رسالة في كيفية العبادة. بين فيها الشيخ كيفية أداء العبادات بشكل مبسط، ومما يلاحظ عليها أنّها اقتصرت على مسائل الطهارة دون أركان الإسلام الخمس[4].

–رسالة رفع اللهو في كشف مسائل السهو.

–رسالة في رفع الإبهام في مسائل الصيام.

–رسالة في الحج والعمرة وبيان كيفيتهما الشرعية.

–رسالة انكفاف الدمعة لانكشاف مسائل الجمعة.

–رسالة في الميراث.

---

[1] العمامرة، سعد: أعلام من سوف في الفقه والثقافة والأدب، دار الزنبقة للنشر الحر، الجزائر، 2018م، ص37. قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص219.

[2] بن موسى، هارون الرشيد: العلامة الشيخ الطاهر العبيدي وجهوده في علم الفقه، مجلة النوازل الفقهية والقانونية، المجلد 6، العدد3، 2022/10/29م، ص15.

[3] بن موسى: العلامة الشيخ الطاهر العبيدي وجهوده في علم الفقه، مرجع سابق، ص15.

[4] المرجع نفسه، ص16.

- منظومة في أسباب التيمم، تضم حوالي 50 بيتا. وقد ابتدأها بقوله:

حمدا لمن قد شرع تيمما***مثل الوضوء للذي يعدم مـــا
وهو تعميمك وجها ويدين***بالمسح مع نية أولى الضربتين
لكنما أسبابـــه كثيـــرة *** جمعتها في جُمـــل يسيـــــرة
فقدانك الماء بالأسفار يبيح***تيمما كذاك حاضر صحيح[1]

- رسالة تنويل الصلات في تطويل الصلاة.
- رسالة الحيض والنفاس، وأحكامهما.
- رسالة في قبلة الصلاة.
- رسالة العوم في بحر مسائل الصوم[2].
- رسالة بعنوان " النصوص الصريحة في رد شبه غير صحيحة"، وهي تضم عشر نقاط، منها:

- إثبات استحباب الأذكار عقب الصلوات الخمس.
- إثبات مشروعية الدعاء عقب الصلوات.
- مشروعية رفع اليدين أثناء الدعاء، ومسح الوجه بهما بعد الفراغ منه.
- ذكر الخلاف في المعقبات هل تقرأ سرا أو جهرا[3].

ب- **الرسائل اللغوية:** يُعدّ الشيخ الطاهر بحقّ من أئمة اللغة العربية، ومن روادها المتضلّعين فيها، ومن الملاحظ أن مؤلفاته اللغوية الموجودة والتي فقدت ولم تبق منها إلا عناوينها، جاءت على شكل نظم؛ ذلك أن الشعر التعليمي كان الوسيلة السائدة في الثقافة الإسلامية في القرون المتأخرة بل يعد اتجاها عاما يهدف إلى تبسيط العلوم والفنون وتيسير الإلمام بمشتملاتها وموضوعاتها على طلابها لسهولة حفظ الشعر وتذكره عند الاقتضاء[4]. ومن أهم تآليفه فيها:

- نظم رسالة القطب الدردير في البيان بأسهل بيان.
- بغية الأمل في نظم رسالة العوامل، وفيها قوله:

وبعد فاسمع أحسن الصواب *** واعلم بأن طالب الإعراب

---

[1] المرجع السابق، ص17.

[2] قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص219-220.

[3] المرجع نفسه، ص220-221.

[4] انظر: عتيق، عبد العزيز: في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، د.ت، ص317-318.

يلزمـه معرفـــة لمائـــة *** شيء وقد جادت بها منظومتي
ستين منها سمـها بالعامـل *** ثـم ثلاثيـن بمعمـول يـلي
العشرة الأخرى هي الإعراب *** حاصلها ثلاثـــة أبـــواب[1]

- رسالة تلخيص الأجرومية[2].

ج- رسائل في التصوف: هذا وقد ألف الشيخ الطاهر في العديد من الفنون الأخرى، منها ميدان التصوُّف:

- جريان المدد في الاعتصام برجال السند، وتقع في 856 بيتا في التصوف[3].
- النصيحة العزوزية في نصرة الأولياء والصوفية، تم طبعها بالقاهرة سنة 1945م. ومعها نصيحة الشباب المزيحة للسحب والضباب. وهذان النصيحتان قام بنشرهما في رسالة واحدة الكتبي الجلالي أبو مدين الحاج محمد بن أزوين بمطبعة حجازي بالقاهرة عام 1954م[4]. وهذا بإشراف تلميذ العبيدي الطويل مسعود محمد[5].
- رسالة التخويف والتخوف على منكر إيمان الصوفية والتصوف.
- رسالة في مدح الرسولﷺ، بعنوان: " قل لمن يعشق".
- له معارضة على قصيدة النابلسي الشهيرة " قالت أقمار الدياجي"[6].

د- رسائل في الأصول: ومن بين ما نُقل إلينا مما ألف الشيخ الطاهر في علم العقيدة والأصول، نذكر:

-رسالة في الجبر والاختيار والدليل عليهما[7].
-رسالة الطبيعة[8].

4- أخلاق الشيخ وصفاته: من صفات الشيخ الخَلْقِية أنّه كان طويل القامة، أسمر البشرة، وكان من سمته الهدوء والمسالمة والرزانة، ويغلب عليه خلق الحياء، وكان –رحمه الله- قوي الحجة، مفتيا بارعا، غير أنه كان يلاحظ عليه التهيُّب من الفتوى، ويحيل

---

[1] حرزولي: منظومة اليبان بأسهل بيان للعلامة الشيخ الطاهر العبيدي، مرجع سابق، ص222.
[2] المرجع نفسه، ص220.
[3] المرجع نفسه، ص222.
[4] قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص220.
[5] سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، مرجع سابق، 100.
[6] قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص220.
[7] العمامرة: أعلام من سوف في الفقه والثقافة والأدب، مرجع سابق، ص37-38. وحرزولي: منظومة اليبان بأسهل بيان للعلامة الشيخ الطاهر العبيدي، مرجع سابق، ص222.
[8] قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص220.

السائلين إلى أخيه أحمد. كان الشيخ الطاهر لغويا متمكنا قوي الذاكرة، مُلمًّا بأغلب المتون الفقهية والنحوية، كان طيب المعشر؛ حيث كان يعامل طلابه وكأنهم أبناؤه، كان قليل الكلام، ولا يتكلم إلا بقدر الحاجة. قال فيه الشيخ خليل بن مصطفى القاسمي: عندما حضر الشيخ الطاهر في الزاوية القاسمية بالهامل، صار جماعة من العلماء يتجادلون في حضرته، فعلق على ذلك بقوله: وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. وقال الشيخ محمود القروي: عندما يذكر أحد بسوء في حضرة الشيخ الطاهر، يقول: هذا خلق الله[1].

كان الشيخ حازما في أعماله، ضابطا في مواعيده، لا يتخلَّف عن درسه مهما كانت الظروف، حكى عن نفسه: مات لي ولد، فدفنته في الصباح، ومن الجنازة ذهبت إلى الجامع، وباشرت الدرس. كان رفيع الملبس بلا تصنع، نظيف البزة، يرتدي أعلى البرانيس في فصل الشتاء، ويتحلى طوال العام بثياب فاخرة. ويتعطر بأطيب العطور ويتنعم بالطيبات من الرزق، وكان يوسع في نفقة عياله، ويصل رحمه ويكرمهم، ويقضي عنهم ديونهم في حالة عجزهم، ويتردد إليهم بالزيارة، ويتلطف ويتودد إليهم بأنواع الهدايا. كان رحمه الله مليح التوسل، سمح السمت، طلق المحيا، متواضعا بشوشا، عالي الهمة. سمعه نجله يقول: ما ترتب علي حكم السهو في الصلاة، ولا قرنت صلاة مع أختها، ولو كانتا مشتركتي الوقت طول عمري[2].

المبحث الثاني: التعريف بطبيعة التصوُّف السائد في حياة الشيخ و انتمائه إلى الطريقة الرحمانية بوادي سوف.

يُعدّ الشيخ الطاهر العبيدي –رحمه الله- أحد أعلام التصوف البارزين بمنطقة وادي سوف وتقرت، وقد أبان عن نزعته الصوفية في قصيدته الشهيرة "النصيحة العزوزية في نصرة الأولياء والصوفية"، والتي جاء في مطلعها:

إن ترد عزة وفضل مزية *** فتلق الطريق عزوزية
وتلقن أورادها وتبرك بحماها *** ففي الرجال بقية
كم توالت لأهلها رحمات***فهي حق والله رحمانية[3].

أي من يُرد العزة والرّفعة والفضل، فلينتسب للطريقة العزوزية، ويلتزم أورادها ويتبرك بمشائخها وأوليائها، لأنّ الصالحين موجودون في كل مكان وزمان، ودليلهم

---

[1] المرجع السابق، ص197.

[2] قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص197-198. نقلا عن: المكي: الشيخ الطاهر نشأته ونبذة من ترجمته، مرجع سابق.

[3] العبيدي، الطاهر: النصيحة العزوزية في نصرة الأولياء والصوفية ونصيحة الشباب المزيحة للسحب والضباب، مطبعة حجازي، د.ت، ص11.

وعلاماتهم الكرامات والتي كثيرا ما توالت لمشائخ الطريقة، وفي ذلك دلالة على صدقها. وقد تطرّق الشيخ العبيدي لبعض قواعد الانتساب للطريقة، وهي الالتزام بحلقات الذكر الجماعي، وعدم الاكتراث لأقوال المنتقدين الذين يدّعون أنها من البدع المحدثة في الدين؛ لأنّ الآيات والأحاديث الواردة في ذلك واضحة جليّة شريطة أن تكون بالقصد والمعنى لا باللسان فقط، إضافة إلى محبة الأولياء والصالحين، لأنّه من أحب قوما حشر معهم[1].

فقد انتمى الشيخ العبيدي –رحمه الله- إلى الطريقة العزوزية وشيخها المكي بن عزوز[2]، وقد كانت العزوزية أحد أهم فروع الطريقة الرحمانية، وهي منتشرة في طولقة (زاوية الشيخ علي بن عمر)، وفي وادي سوف (زاوية سيدي سالم)، وفي الجريد التونسي (زاوية نفطة) [3]، وقد أخذ الشيخ ورد الطريقة من شيخ زاوية سيدي سالم حينئذ وهو الشيخ محمد الصالح[4] بن سيدي سالم(1846هـ/1916م)[5].

وتُعدُّ الطريقة العزوزية من ضمن الطريقة الرحمانية، التي يعود أصلها إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الذي لُقّب بعد وفاته بـ "بوقبرين"[6]. وكان من بين تلامذته الشيخ محمد بن عزوز البرجي[7]، الذي أخذ على عاتقه نشر الطريقة بالجنوب الشرقي، ونُسبَت إليه وصار أتباعه يُعرفون بالعزوزية، وقد زار الشيخ بن عزوز وادي سوف قبل وفاته، ومكث فيها أربعة أيام ناشرا للطريقة، وكانت مراسلاته إلى مريديه في سوف متواصلة، وأشهرهم "علي بالليل" من بلدة الزقم، والحاج أبو بكر، يُذكِّرهم بها بالإكثار من الذّكر؛

---

[1] بن موسى، هارون الرشيد: العلاقة بين الحركة الصوفية والإصلاحية ابن باديس والطاهر العبيدي أنموذجا، مجلة الدراسات الإسلامية، جامعة عمار ثلجي، الأغواط، المجلد5، العدد9، جوان 2017م، ص601.

[2] محمد المكي بن مصطفى بن عزوز، الإمام والمحدث واللغوي والصوفي، أصله من طولقة، ولد بنفطة عام 1854م، التحق بجامع الزيتونة ونال شهادة التطويع، تولى مشيخة الطريقة العزوزية الرحمانية بعد وفاة والده، كما تولى الافتاء والقضاء بنفطة عام 1883م. استقر به المقام بالاستانة حيث تولى تدريس الحديث الى ان توفي عام 1916م. انظر: محمد، محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، ج3، ص382-390.

[3] سعد الله، أبو القاسم: تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص101.

[4] محمد الصالح بن سيدي سالم، شيخ زاوية سيدي سالم الرحمانية بالوادي خلفا لوالده، ولد بالوادي عام 1846م، أخذ الطريقة على يد والده، كان كثير التردد على زاوية مصطفى بن عزوز بنفطة بالجريد التونسي، عرف بالصلاح والزهد في حكايات كثيرة عنه وثقها الشيخ إبراهيم العوامر في كتابه حول سيرته" البحر الطافح"، توفي عام 1916م، ودفن بزاويته بالوادي. انظر: قمعون، عاشوري: الشيخ الطاهر العبيدي الشيخ أحمد العبيدي، دار الثقافة لولاية الوادي، 2010م، ص110.

[5] قمعون: المرجع نفسه، ص28.

[6] بوعزيز، يحي: ثورة الباشاغا المقراني والشيخ الحداد عام 1871م، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص67.

[7] لمزيد من الاطلاع على سيرة الشيخ، انظر: الحفناوي، أبو القاسم: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م، ج2، ص475-480.

للإرتقاء في سلم التربية الصوفية، هذا وقد عرفت الطريقة العزوزية الرسوخ والتوسع على يد سيدي سالم الأعرج[1].

فتأسيس الزاوية الرحمانية العزوزية بالوادي كان على يد سيدي سالم العايب أو الأعرج، وهو سالم بن محمد بن امحمد بن محمد بن نصر بن عطية الشريف من نسل أحمد الزاير بن سيدي المحجوب دفين القيروان، وسيدي المحجوب هذا يرجع نسبه لسيدي عبد السلام بن مشيش. وقد ولد سيدي سالم بالوادي عام 1186هـ/1772م، وتربى يتيما في حجر والدته مسعودة بنت ارويحة، توفي عنه والده وهو في بطن أمه، وأصيب بالعرج في رجله وهو لا يزال رضيعا في مهده؛ فصار يدعى الأعرج أو العايب طوال حياته، وكان –رحمه الله- يعتريه حال من الذكر في صباه بقول لا إله إلا الله[2].

وقد كان سيدي سالم أميا قليل الثقافة، إلا أنه يتسم بالسمت والخلق الفاضل، مما جعل الشيخ العارف سيدي علي بن عمر الطولقي الشريف يختاره مقدما على إخوان سوف الرحمانيين، فامتنع سيدي سالم أول الأمر وقال لشيخه: لا أقدر على ذلك لعجزي وضعفي عن القيام بشروط التقديم، فقال له لا بد من ذلك، فأذعن سالم لإرادة شيخه، فقدمه حينئذ وقال له، اجعل زريبة اذكر الله فيها، واجعل أواني لماء الوضوء، ففعل، ووضع بذلك نواة لزاويته على شكل كوخ من الخوص يدعى في المنطقة بالزريبة، والت يتطورت إلى زاوية في حدود 1236هـ/1820م[3].

وكان من آثار الخير الكثيرة لهذه الزاوية على الناس، السعي في قضاء حوائجهم، فقد كان سيدي سالم ملاذ الناس في فض الخصومات والصلح بين العروش المتخاصمة، وكان -رحمه الله- مجاب الدعوة، كريما صبورا على أذى الناس، لا يخاف في الله لومة لائم، معتصما بربه، لا يرهب الملوك ويخاطبهم بصفاتهم؛ حيث أنه جاءه بعض الجنرالات الفرنسيين للزاوية، فقال له الشيخ: يا كافر يا كافر، فقيل له هذا حاكم كبير، فقال الله هو الحاكم سبحانه، كما حرص الشيخ سالم على إعداد أبنائه والارتقاء بهم في منازل العلم، حتى وافته المنية سنة 1277هـ/1860م، ودُفن بزاويته في وسط وادي سوف[4].

---

[1] غنابزية، علي: مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 19م، رسالة نيل الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2001/2000م، ص181.

[2] بن عزوز، محمد: تاريخ زاوية سيدي سالم، مخطوط بزاوية سيدي سالم، الوادي، ص4. ومفتاح، عبد الباقي: أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، دار الوليد، الوادي، 2005م، ص174.

[3] بن عزوز: تاريخ زاوية سيدي سالم، مرجع سابق، ص5-7.

[4] بن موسى، موسى: الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها 1900-1939م، رسالة لنيل الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006م، ص88. وبن عزوز: تاريخ زاوية سيدي سالم،

وقد كانت هذه الزاوية ملاذا لكبار العلماء والصلحاء والمعلمين والمدرسين، مثل: الشيخ عبد الرحمن العمودي، والشيخ العربي بن موسى، والشيخ إبراهيم بن عامر، والشيخ الطاهر العبيدي، وشقيقه أحمد العبيدي، والشيخ محمد جديدي، وغيرهم كثير[1]. كما أنه توافد على الزاوية من خارج المنطقة من أقطار المغرب العربي ومصر من أهل العلم والصلاح، نذكر منهم: الشيخ إبراهيم البختري التونسي، والشيخ محمد بن حمد النفطي من علماء الجريد، والشيخ العروسي بن عزوز، والشيخ المكي بن عزوز، والشيخ الخضر بن الحسين، وغيرهم[2].

ومن الأعمال الجليلة التي اضطلعت بها زاوية سيدي سالم، التعليم القرآني ونشر مبادئ العلوم الشرعية واللغوية، ولا سيما حفظ المتون ودراسة شروحها، وهو ما أخذه أبناء سيدي سالم بدأ من الشيخ مصباح[3]، الذي انتشرت وتوسعت الزاوية في عهده وعهد أخيه محمد الصالح، حيث تذكر الإحصائيات الفرنسية سنة 1900م، أن عدد أتباعها بلغ في الوادي نحو 20 ألفا مريد[4].

لقد بدأت رحلة الشيخ مصباح بن سالم في طلب العلم بحفظ القرآن بالزاوية، والاحتكاك بالشيوخ الزائرين لها، والمدرسين عبر رحابها، وكان من أهم شيوخه الشيخ العربي بالغنبازي، وهو أول معلم بالزاوية، وأخذ الفقه على يد الشيخ علي بن قديري، حيث برع في علم المواريث وأصبح لا يجاريه فيه أحد[5].

هذا ويرجع الفضل إلى الشيخ مصباح في إرساء قواعد التعليم القرآني بالزاوية، والتشجيع على نهل العلم والمعرفة؛ بإرسال بعض أبناء الزاوية إلى تونس للاستفادة من العلوم، والتعمق في الحفظ وفهم المتون، ومن تلاميذه الشيخ العالم النحرير الطاهر العبيدي، الذي حفظ القرآن الكريم بالزاوية العزوزية الرحمانية السالمية، وأخذ عنه العلم والتصوف، وصار من كبار شيوخ الزاوية[6].

مرجع سابق، ص15-19.

[1] غنابزية، علي: الشيخ سيدي مصباح بن سالم ومآثره في الزاوية السالمية بوادي سوف، مطبعة مزوار، الوادي، 2009م، ص21-22.

[2] بن موسى: الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها 1900-1939م، مرجع سابق، ص89.

[3] انظر: عثماني، الجباري: التراث المخطوط بخزائن الطرق الصوفية في وادي سوف زاوية سيدي سالم العزوزية أنموذجا، ص5

[4] انظر: مفتاح: أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، مرجع سابق، ص182.

[5] عثماني: التراث المخطوط بخزائن الطرق الصوفية في وادي سوف زاوية سيدي سالم العزوزية أنموذجا، مرجع سابق، ص5.

[6] انظر: المرجع نفسه، ص6-7

إنّ الدور التنويري للزاوية السالمية أثناء الاستعمار الفرنسي لا يجحدُه إلا مكابر؛ فالإنقاذ الرُّوحي والفكري للشعب الجزائري اضطلع به علماء مرابطون من طينة رجال الإخوة الرحمانيين، ومن ذلك فحول الزاوية العزوزية السالمية التي لعبت دورا مميزا في تعليم القرآن الكريم، وأصبحت مقصدا للطلبة من كامل وادي سوف، وتعدّى ذلك إلى بلاد النمامشة ووادي ريغ وطلبة الزاب الشرقي وتقرت وتماسين[1].

المبحث الثالث: إسهامات الشيخ العبيدي في مجال التربية والتعليم بوادي سوف وما جاورها.

لقد قدَّمنا الحديث أنّ أستاذ الشيخ الطاهر العبيدي، وهو الشيخ محمد العربي بن موسى كان مُدرِّسا بجامع تقرت الكبير، وكان قد أوصى قبل وفاته سنة 1905م لتلميذه الطاهر أن يخلُفه في الدّرس والإمامة في هذه البلدة، ولقد وصل خبرُ وفاة الشيخ محمد العربي والشيخ الطاهر لا يزال بتونس، فحزن عليه حزنا شديدا ورثاه في قصيدة، يقول فيها:

كانت القرية مستضئـة***ولواء العلم فيها يشهـر
يوم مات الشيخ زال نورها***إذ بهذا النور كانت تبهر
وكذا تقـرت كـان ركنـها***وبـه بيـن البلاد تفخـر
إذ به الفخر لها كان ولـم***يـك قبـل لا ولا سيظهر.

ولمّا رجع الشيخ الطاهر من الزيتونة، تصدَّى لنشر العلم في أوساط الناس في بلدته سوف، وشملت دعوته مختلف طبقات المجتمع، وقد كان هذا النشاط التعليمي والتربوي بجامع سيدي مسعود الشابي بسوق الوادي وجامع النخلة، وهو بعمر الشباب يتدفق حيوية، ويزخر بالعلم الذي حصَّله بتونس، وكان يحسّ أنّ على كاهله أمانة ثقيلة ورسالة شاقة، فآل على نفسه الاضطلاع بها، وانبرى لينشر الثقافة والأخلاق الإسلامية، وكذا تعليم الناشئة[2].

لم يطُل المقام بالشيخ في وادي سوف ليشُدّ الرحال إلى تقرت، أين خلف شيخه محمد العربي، كما كانت وصية شيخه، وكان أول درس لهذا الشاب صاحب الاثنين وعشرين ربيعا بالجامع الكبير من متن ابن عاشر، وقد كان هذا التقديم للتدريس بإيعاز من حمى

[1] مياسي، إبراهيم: الدور التعليمي لزاوية سيدي سالم الرحمانية بوادي سوف"حولية المؤرخ"، العدد1، إتحاد المؤرخين الجزائريين، الجزائر، 2002م، ص312-313.

[2] انظر: قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص199.

علي كافي؛ لاختبار مقدرته العلمية والأدبية، وكانت العيون ترقُبُه، ولمّا استفتح الدرس تبحَّر في الشرح، وصال وجال في التعقيب والاستدلال، حتى شهد له الجميع بالكفاءة والتمكُّن، وشرع الناس يقصدونه ويتوافدون عليه وعلى دروسه كبارا وصغارا، زرافات ووحدانا، لِمَا تميَّزت به طريقتُه في التدريس من السهولة والبساطة، حيث يستفيد منها العامة على اختلاف درجاتهم، وتفاوت مداركهم، فترى المئات يتحلَّقون حوله في الدرس، مستمعين إليه بآذان واعية، إذ كانت دروسه جذابة تقرع الأسماع وتتدفق إخلاصا وتفيض بلاغة[1].

لقد كان الشيخ الطاهر العبيدي –رحمه الله- يقسم دروسه في مسجد تقرت الكبير إلى فترتين: صباحية، حيث يتلقى فيها الطلبة دروس اللغة والنحو والتجويد والميراث والتوحيد وأصول الفقه. ومسائية، ويحضرها عامة الناس، وتكون في التفسير والفتاوى والحديث، وهي شبيهة لما كان يفعله ابن باديس في الجامع الأخضر[2].

إنّ السبب الرئيس الذي جعل الشيخ العبيدي –رحمه الله- ينتقل من سوف إلى مدينة تقرت، هو تنفيذه لوصية أستاذه محمد العربي بن موسى، الذي أشار عليه أن يخلُفه في الإمامة والتدريس بالمسجد الكبير بحي مستاوة بمدينة تقرت. فكان ذلك الانتقال بداية عهد جديد، وكان أيضا بداية للاضطلاع بمهمة جليلة، مثقلة بالمسؤوليات، وكان كذلك بداية لرحلة في مجال الخطابة والتأليف والإفتاء والاطلاع الواسع الذي لا يعرف التوقف ولا الانقطاع، رحلة مليئة بالعطاء والتبليغ وهداية الناس[3].

لقد اضطلع الشيخ الطاهر بمهمة ثقيلة في مجال التربية والتعليم والإفتاء والتأليف، ومنح رسالته هذه كل ما يملك من وقت ومجهود علمي واضح، فقد كان إماما في الفقه، ومِن فِيه تُؤخذ أحكامه، وكان أعلم فقهاء زمانه، حتى لُقّب بخزانة الفقه، وأما الأصول، فهي فرع من فروعه، والمنطق مقدمة من مقدمات مفهومه، وأما النحو، فلا كلام فيه لأحد

---

[1] مهوبي، عبد القادر: معجم الصفوة، سير وتراجم لعلماء وأعلام وشيوخ من الجزائر في الفقه والتصوف، الثقافة والأدب، العلم والجهاد، الإصلاح والسياسة، تين والزيتون للنشر والتوزيع، القبة- الجزائر، د.ط، 2012م، ج1، ص270-271. ذياب، عبد الحليم- ينبوع، محمد هاني: جهود الطاهر العبيدي في التربية والتعليم بالجنوب الجزائري، مذكرة لنيل شهادة ماستر في الإذاعة والتلفزيون، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2017/2016م، ص25-26.

[2] قمعون: الشقيقان الشيخ الطاهر العبيدي الشيخ أحمد العبيدي، دار الثقافة، الوادي-الجزائر، 2010م، ص23.

[3] انظر: قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص199-200.

سواه، يطلق عليه سيبويه الصغير، وإن نظرت إلى المعاني والبيان، فهما أنموذج مزاياه. إذا استخدم القلم، أبدى سحر العقول، وإن جرت الحروف على وفق لسانه، وقف بين المعقول والمنقول، وإذا ناظر، عطل من يجاريه مجاري الأنفاس، واستنبط من بيان منطقه علم الجدل والقياس. لا يتحدّث في فن، إلا ظن سامعه أنه لا يحسن غيره[1].

لم يبخل الشيخ الطاهر بكفاءته -التي كانت تتنامى مع الأيام- على مريديه ومرتادي دروسه، وكذا جميع ساكنة تقرت الذين كانوا يقصدُونه في جلّ مشكلاتهم وأقضيتهم، وكانت دعوته مُفعَمه بالثراء العلمي والفكري، والرّؤية الثاقبة التي كانت تنافح عن بيضة الإسلام وحياض الدين، وتدفع ما يثيره المبطلون، ويروج له المرجفون المتربصون بالإسلام وأهله، ومن أجل هذا المُعطَى لم يتوان الشيخ يوما واحدا عن أداء رسالته، ولم يتخلّف عن تبليغ الأمانة مذ تحملها عام 1907م، وقد قام بها أحسن قيام، رغم الظروف غير الملائمة في أحايين كثيرة، وقد كان بحقّ عالمَ هذه الربوع، سوف وتقرت وما جاورها، مجتهدا فقيها، لا يشاركُه في ذلك أحدٌ طيلة ستّين سنة[2].

وقد كانت له مشاركات خارج سوف وتقرت؛ حيث كان قام بتقديم بعض الدروس العلمية المختلفة في كل من الجلفة وزاوية الهامل ببوسعادة[3].

نظرا لجهود الشيخ الطاهر –رحمه الله- الظاهرة في التدريس والتعليم والتربية بتقرت، أصبح عالم تقرت وفقيهها الأكبر بدون منازع، وقد وصفه تلميذُه وابنُ شيخه الشيخ الميداني موساوي بأنّه شيخ الإسلام في الجزائر[4].

وكُنّا قد أسلفنا الحديث أنّه لتمكُّنه وتربُّعه على كرسيّ الفقه المالكي كان يُلقّب بمالك الصغير، وقال عنه الشيخ عبد المجيد حبة: لم أر فقيها متمكنا وأصوليا قادرا بعد حجة الفقه الإسلامي خليفة بن حسن القماري في منطقة الجنوب، باستثناء الفقيه الأصولي الطاهر العبيدي، وقال أيضا: كان في العلوم الشرعية والفقه، بحرا لا يوجد من يضاهيه، حتى على مستوى العالم الإسلامي[5].

---

[1] قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص200-201.

[2] انظر: المرجع السابق، ص200.

[3] قمعون: الشقيقان الشيخ الطاهر العبيدي الشيخ أحمد العبيدي، مرجع سابق، ص38.

[4] قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص205.

[5] المرجع نفسه، ص205.

كان من بين أهم أعمال الشيخ التعليمية، تفسير القرآن الكريم[1]، الذي كان يستعد له استعدادا جيدا، معتمدا على أهم التفاسير المشهورة حينئذ كما كان يقتدي دائما بشيخه محمد العربي موساوي عندما يستفتح الدرس بالأبيات المشهورة:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع *** أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى في الشدائد كلها *** يا من إليه المشتكى والمفـزع
يا من خزائن رزقه في قول كن***أمنن فإن الخير عندك أجمع[2].

وقد تمكّن من إتمام ختم التفسير كاملا يوم الثلاثاء في العاشر من محرم عام 1353هـ، الموافق ليوم 1934/04/24م، حيث كان الشيخ يكتفي بشرح آية أو آيتين في اليوم، مما ترتب عليه إنهاء التفسير في مدة ثمانية وعشرين عاما. وكان يميل في تفسيره إلى الأسلوب القصصي، متمعنا ومتفحصا من جميع الجوانب العقائدية والتشريعية والبلاغية واللغوية والتاريخية[3].

لقد كان الشيخ الطاهر العبيدي يمتلك ملكة فهم وتمكُّن أهّلته للفتوى، وذلك لإحاطته بالقواعد الكلية للشريعة، وتحلِّيه بصفات المُفتي الحاذق، والتي يقول فيها:

وكلّ من يُفتي بلا نصّ جفا***وفي بطون الكتب علم كفى
وقل لمن أفتى وليس يـدري***أكثر فتــوى مالك لا أدري
فلا تُقلّــد أيّ مُفـت مطلقا***إلا إذا شـــاع بعلــم وتقى

لقد كانت فتاويه تصدُر مُحرّرة ومُدقّقة، مملوءة فقها ووضوحا، ودام على هذا الحال إلى أن لقي ربه، وإنّ من أهم وسائل الإرشاد في عصره، نشر العلوم الدينية بين عامة الناس، ولذلك ترى المئات من الناس في الجامع عند إلقاء الدرس، مستمعين إليه بآذان واعية، إذ أن دروسه الوعظية كانت جذابة، تقرع الأسماع، وتتدفق إخلاصا وتفيض بلاغة وتسيل عذوبة ورقة وأدبا[4].

لقد تحمَّل الشيخ الطاهر عبء الدعوة برُبوع منطقة وادي سوف وريغ ومنطقة الزيبان، وهذا سنوات 1907-1968م، فكان طوال هذه السنوات كالطود الشامخ في رسوخ

---

[1] الظاهر أن تفسير العبيدي لم يدون ولم يصل منه إلينا شيء مكتوب وضاع بأكمله، وهي خسارة كبيرة لا تقدر بثمن نظرا لقدرات الشيخ العلمية. انظر: زواري أحمد، جمال: علاقة الإمام عبد الحميد بن باديس بعلماء وادي سوف قبل تأسيس جمعية العلماء الشيخ الطاهر العبيدي أنموذجا، مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الوادي، الجزائر، المجلد6، العدد1، 20165/06/30م، ص5.

[2] محمد بابا، عبده: المجموعة المباركة، المطبعة الثعالبية، الجزائر، ص43.

[3] انظر: قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص206.

[4] انظر: المرجع نفسه، ص207.

العلم وقوة الدليل والحجة، وشدة الورع والزهد والتعفف، وكان –رحمه الله- يكره التقليد؛ فقد استفتاه شخص في مسألة تحريم زوجته، فلم يُفت له الشيخ الطاهر، وعُرضت المسألة على الشيخ إبراهيم بن عامر[1]، وهو زميل الشيخ الطاهر في الدراسة، فأفتى الشيخ إبراهيم بالإرجاع، ولما راجع المستفتي الشيخ الطاهر، أجابه أنّ الشيخ إبراهيم اعتمد على حديث ضعيف، وقد انتفض الشيخ إبراهيم غاضبا لما بلغه رأي الشيخ الطاهر، وقال: إذا لم نأخذ بالحديث الضعيف في مثل هذه المعضلة، فكيف نبحث على الحلّ إذن[2].

من المواد التي كان الشيخ الطاهر يُدرّسها ويُركّز عليها مع طلبته، إضافة لتفسير القرآن الكريم وتجويده، فقد اهتم بشرح الحديث الشريف وتحليله، وبما أنه معدود من القلائل المتضلّعين في الفقه المالكي، فإنّ دروسه لا تخلوا من الحديث في الفقه على مذهب مالك واستخراج الأحكام العملية منه. هذا ولم يُهمل الشيخ التطرُّق لمسائل العقيدة والأصول في دروسه وجلساته التي كان يُفسّر فيها القرآن الكريم، وكلّ هذا المسار التعليمي كان مدعّما بدروس في اللغة العربية بمختلف فنونها[3].

وقد كان الشيخ العبيدي يعتمد في دروسه على جملة من المراجع اللغوية والفقهية، مثل: متن الأجرومية، متن قطر الندى وابل الصدى. ومتن المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لعبد الواحد بن عاشر، ورسالة القيرواني، ومتن الشيخ خليل، ومختصر الرحبية لابن موفق في علم الفرائض، وجوهرة التوحيد للقاني[4]. وحاشية الدسوقي على شرح العلامة الدردير على المختصر. مع العلم أنه كان يُلخّص جميع المسائل، وكلما أكمل كتابا يجعل له ملخصا وحوصلة[5].

لقد كتب الله للشيخ العبيدي القبول بين الناس، إذ كان له إقبال بارع في الجنوب، ولا سيما في تقرت، والوادي، وورقلة، والزاب، وعروش أولاد نايل، وكانت تطرب المجالس بذكره، وكان سكان تقرت والوادي، كبيرهم وصغيرهم يلقبونه "أبا الشيخ"، أي والدي

---

[1] مفتاح: أضواء على الطريقة الرحمانية، مرجع سابق، ص178.

[2] قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص208. نقلا من مقابلة شخصية مع الحاج عبد الله النجعي، صهر الشيخ إبراهيم، عمره 95 سنة، يوم الخميس 2008/02/28م، على الساعة 10 صباحا.

[3] انظر: المرجع السابق، ص208.

[4] المرجع نفسه، ص209. نقلا عن عبد السلام سليماني، مرجع سابق، ص5.

[5] المرجع نفسه، ص209. نقلا من تسجيل صوتي مصور عام 1992م للشيخ المرحوم مدني بن هدية، إمام مسجد في الزاوية العابدية بتقرت.

الشيخ، وقد قال فيه شقيقه وتلميذه الأديب العبقري، الشيخ أحمد العبيدي، ما نصه:

أقول لمن يبغي الحياة لدينه***ومن يطلب العلم النفيس إلى الأخرى
إذا كنت محتاجا لطلعة مرشد***نصوح يريك الطي في درسه نشرا
ومن قصبات السبق في حلبة حوى***وآيات تحقيقاته تعجز الحبرا
فذا الشهم شاف للغليل وإن ترد***فجرب تجد ما لست تدري له حصرا[1].

لقد بلغ الشيخ العبيدي –رحمه الله- درجة الاجتهاد في الاستنباط، وتأسيس القواعد، وتبيين المقاصد التي لا يدريها ولا يحيط بها إلا من وقف على حقائقها[2].

لقد كان للشيخ الطاهر –رحمه الله- طريقة خاصة في التدريس، حيث كان صبورا مع طلابه، حتى لو طلب أحدهم تكرار الدرس عشرين مرة، وكان الشيخ يختبر طلابه من وقت لآخر، ومن رآه متفوقا على أقرانه فإنه يمنحه إجازة مكتوبة، ثم يعين له دروسا خاصة بمنزله، عرفانا له بالتفوق والكفاءة، وفي حال بلوغ أحدهم قدرا معينا من العلم، يرشده إلى مواصلة تعليمه ودراسته بجامع الزيتونة، كما كان حال شقيقه أحمد[3]. وقد كان الطالب عنده يتمم حفظ المتون والحقائق في ظرف يسير، وتكون له مشاركة طيبة في الفنون المختلفة، ومن يتأمل نتائج تلاميذه، يجدهم متفوقين على غيرهم، لدرجة أن من يشارك منهم في امتحان الشهادة الابتدائية أو الأهلية، يحصل في الغالب على مرغوبه. وهناك من تلاميذه من درس بالزيتونة ولما أجري له الاختبار حصل على الدرجات العالية. ومن ينخرط من طلبته في سلك التعليم الثانوي، يكون نبوغه ظاهرا للعيان، ومتميزا عن الأقران[4].

خاتمة

لقد كان الشيخ الطاهر العبيدي من أبرز علماء سوف وتقرت خلال القرن الماضي، واضطلع بمهام التدريس والفتوى والتأليف في مختلف فروع المعرفة من تفسير وحديث وأصول ولغة وفقه مالكي. لقد ترك الشيخ بصماته واضحة جلية في منطقة الجنوب الشرقي، وترك تلامذة متمكنين كانوا خلفا له في ميدان العلم والتربية والتدريس. إن مكانة الشيخ أقر بها علماء أجلاء أمثال شيخ الأزهر محمد الخضر حسين، الذي أثنى عليه وعلى

[1] المرجع السابق، ص201-202.

[2] عبيدي: الشيخ الطاهر، نشأته ونبذة من ترجمته. مراسلة بعث بها إلى محمد المداني عبيدي حفيد الشيخ الطاهر يوم 08-12-2014م، مرجع سابق.

[3] مهوبي: معجم الصفوة، مرجع سابق، ج1، ص173-274.

[4] انظر: قمعون: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص209-210.

علمه لما حضر درسه في التفسير. كما اعترف بمقامه العلمي الشيخ بن باديس لما مر بتقرت[1] وتعرف عليه عن كثب. وقال عنه الشيخ إبراهيم بيوض عندما أبّنه في وفاته: لقد سقطت عرصة في الإسلام[2]. ولا يزال تراث الشيخ ينتظر من يشمر عن سواعد الجد والبحث العلمي الرصين، لاستخراج كنوزها والانتفاع بدررها، وكشف اللثام عن أعلام أثبات متمكنين ولكنهم مغمورون.

قائمة المصادروالمراجع

- قمعون، عاشوري: العلامة الفذ الشيخ الطاهر العبيدي حياته وآثاره، مجلة المنهل، جامعة الوادي، العدد 04، السنة 03، جانفي 2017م، ص192. نقلا عن: سليماني، عبد السلام: الشيخ الطاهر العبيدي بمناسبة عيد العلم، محاضرة ألقيت بالمسجد الكبير بتقرت يوم الجمعة 14 أفريل 1983م، مرقونة بالآلة الكاتبة.
- العوامر، إبراهيم: كتاب الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، الدار التونسية للنشر، 1977م.
- عبيدي، المكي: الشيخ الطاهر، نشأته ونبذة من ترجمته. مراسلة بعث بها إلي محمد المداني عبيدي حفيد الشيخ الطاهر يوم 2014/12/08م.
- العبيدي، الطاهر: رسالة الستر، تحق: محمد محدة، مطبعة البعث، قسنطينة، 1985م.
- محفوظ، محمد: تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 1982م.
- حرزولي، العزوزي: منظومة اليبان بأسهل بيان للعلامة الشيخ الطاهر العبيدي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، المجلد7، العدد7، 2015/06/01م.
- العمامرة، سعد: أعلام من سوف في الفقه والثقافة والأدب، دار الزنبقة للنشر الحر، الجزائر، 2018م.
- بن موسى، هارون الرشيد: العلامة الشيخ الطاهر العبيدي وجهوده في علم الفقه، مجلة النوازل الفقهية والقانونية، المجلد6، العدد3، 2022/10/29م.
- انظر: عتيق، عبد العزيز: في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، د.ت.
- العبيدي، الطاهر: النصيحة العزوزية في نصرة الأولياء والصوفية ونصيحة الشباب المزيحة للسحب والضباب، مطبعة حجازي، د.ت.
- بن موسى، هارون الرشيد: العلاقة بين الحركة الصوفية والإصلاحية ابن باديس والطاهر العبيدي أنموذجا، مجلة الدراسات الإسلامية، جامعة عمار ثلجي، الأغواط،المجلد5، العدد9، جوان 2017م.
- محمد، محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، ج3.

[1] لقد تزامل الشيخان في الدراسة بجامع الزيتونة في نفس الفترة تقريبا، وهو السبب الذي كان وراء لقائهما وصداقتهما بعد ذلك. انظر: سعد الله، أبو القاسم: تجارب في الأدب والرحلة، مرجع سابق، ص101.

[2] المرجع نفسه، ص60.

- سعد الله، أبو القاسم: تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.
- بوعزيز، يحي: ثورة الباشاغا المقراني والشيخ الحداد عام 1871م، دار البصائر، الجزائر، 2009م.
- الحفناوي، أبو القاسم: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م، ج2.
- غنابزية، علي: مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 19م، رسالة نيل الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2001/2000م.
- بن عزوز، محمد: تاريخ زاوية سيدي سالم، مخطوط بزاوية سيدي سالم، الوادي.
- مفتاح، عبد الباقي: أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، دار الوليد، الوادي، 2005م.
- بن موسى، موسى: الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها 1900-1939م، رسالة لنيل الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006م.
- غنابزية، علي: الشيخ سيدي مصباح بن سالم ومآثره في الزاوية السالمية بوادي سوف، مطبعة مزوار، الوادي، 2009م.
- انظر: عثماني، الجباري: التراث المخطوط بخزائن الطرق الصوفية في وادي سوف زاوية سيدي سالم العزوزية أنموذجا.
- مياسي، إبراهيم: الدور التعليمي لزاوية سيدي سالم الرحمانية بوادي سوف"حولية المؤرخ"، العدد1، إتحاد المؤرخين الجزائريين، الجزائر، 2002م.
- مهوبي، عبد القادر: معجم الصفوة، سير وتراجم لعلماء وأعلام وشيوخ من الجزائر في الفقه والتصوف، الثقافة والأدب، العلم والجهاد، الإصلاح والسياسة، تين والزيتون للنشر والتوزيع، القبة- الجزائر، د.ط، 2012م، ج1.
- ذياب، عبد الحليم- ينبوع، محمد هاني: جهود الطاهر العبيدي في التربية والتعليم بالجنوب الجزائري، مذكرة لنيل شهادة ماستر في الإذاعة والتلفزيون، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2017/2016م.
- قمعون: الشقيقان الشيخ الطاهر العبيدي الشيخ أحمد العبيدي، دار الثقافة، الوادي-الجزائر، 2010م.
- زواري أحمد، جمال: علاقة الإمام عبد الحميد بن باديس بعلماء وادي سوف قبل تأسيس جمعية العلماء الشيخ الطاهر العبيدي أنموذجا، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الوادي، الجزائر، المجلد6، العدد30، 2016/06/1م.
- محمد باباء عبده: المجموعة المباركة، المطبعة الثعالبية، الجزائر.

الشيخ أحمد عبد الباقي مفتاح (1920-1986م)

ـ لمحات من السيرة والمسيرة العلمية والروحية ـ

د/ جمال الأشراف
كلية العلوم الإسلامية – جامعة الوادي
lachraf-djamel@univ-eloued.dz

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيّدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الطيبين.

مقدمة

إنّ للاطلاع على سير الماضين والوقوف على أخبارهم فوائد جمّة، ناهيك عن الصالحين منهم، العاملين بما علموا، لذلك تطالعنا آيات الذكر الحكيم بقصص الأولين تذكيرًا وتعليمًا، حاكية ما كان منهم من إيمان واستقامة وجهاد وما تبعه من تكريم الله لهم وتمكينه إياهم، وكذلك ما كان من عصيان وشرود وعاقبتهما البوار والخسار. قال تعالى:﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [سورة يوسف:111].

عملاً بهذا المسلك القرآني دأب أسلافنا على العناية بسير الرجال وتسجيل مآثرهم بما يوقظ القلوب الغافلة، ويبعث الهمم ويشحذها، وقد نُقل عن أبي حنيفة رضي الله عنه قوله: "سير الرجال أحب إليّ من كثير من الفقه"؛ لأن سير الرجال تبعث على الاجتهاد والاقتداء، بل هي خير وسيلة لإشعال العزائم وإثارة الروح الوثابة، والتسامي إلى معالي الأمور، وتقويم الأخلاق.

وقد أسفرت هذه العناية عن كنوز من المدونات التي تزخر بها مكتبتنا الإسلامية تضم كمًا هائلا من كتب التراجم والطبقات لأعلام الفقه والحديث واللغة والتصوف وغيرها وهو ما لم يتيسر لأمة أخرى ما يماثله، بل ولا حتى ما يدانيه.

ومشاركة في هذا العمل الجليل وتحت مظلة فرقة البحث التي أُنشئت بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الوادي والتي تعنى بإبراز أعلام التصوف بمنطقة سوف وإسهاماتهم التربوية ودورهم في الحفاظ على الهوية انعقد هذا اليوم الدراسي للوقوف وقفة وفاء لتلك

الأرواح الطاهرة والإعلان عن الاعتراف بفضلهم، ورد بعض الاعتبار لهم بعد مرحلة تميزت بوسمهم بما هم منه براء، وزحزحتهم عن مكانتهم المفترضة في عقول وقلوب الشباب المعاصر.

وقد جاءت مداخلتي المعنونة بـ: الشيخ أحمد عبد الباقي مفتاح (1920-1986م)– لمحات من السيرة والمسيرة العلمية والروحية، تعريفًا بجوانب ثلاثة من شخصيته:

أولا: ملامح من سيرته الذاتية.

ثانيا: ملامح من عطائه العلمي والأدبي.

ثالثًا: ملامح من مسيرته الصوفية.

ولتحقيق ذلك توسلت منهجًا استقرائيًا وصفيًا تتبعت من خلاله ما توفر من معلومات شفهية، وما وقع تحت يدي من وثائق تتضمن نصوصًا للشيخ أحمد أفادني بها نجله البار عبد الباقي مفتاح-حفظه الله- وعلى بركة الله وبعونه نبدأ.

أولا: ملامح من سيرته الذاتية

1-**اسمه ونسبه**: هو أحمد بن عبد الباقي بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن سعد بن مبارك جحيدر الذي قدم من قفصة بتونس إلى قمار واستقرّ بها إلى حين وفاته. وجده الثالث أحمد بن سعد هو جد لأربع عائلات عريقة في مدينة قمار وهي عائلات: مفتاح، سعداني، كرام، ومصباحي.

أما والدته (أحمد مفتاح) فهي السيدة فاطمة الزهراء.[1]

2-**مولده وتعلّمه**: ولد أحمد مفتاح عام 1920م ببلدية قمار، وكان عمر والده عند ولادته في بداية عقده الثالث، وكان والده رجلاً صالحًا، حافظًا لكتاب الله، وشاءت حكمة الله أن يُقبض في ريعان شبابه بعد مرور نحو عام واحد على ولادة ابنه أحمد، ليذوق الطفل طعم اليتم والحرمان من رعاية الوالد.

كفله جدّه "الحاج محمد" والذي كان من أهل العلم والصلاح أيضا، ولكن هذه الكفالة بدورها لم تدم طويلاً، ففي عام 1924م توفي الجد ليذوق الطفل أحمد اليتم من جديد، وبقي في رعاية والدته "فاطمة الزهراء" التي سقته مع لبنها الحب والحنان والخلق والأدب إلى انتقلت إلى جوار ربها ولم يتجاوز عمره العاشرة (أي حوالي عام

[1] - التجاني العقون، **أعلام من قماربوادي سوف**، ط1. الوادي: مطبعة سخري 2013م، ص36.

1930م) أو أقلّ[1].

أثناء هذه الفترة تولى عمه "الحاج علي" كفالته وتعليمه، فدفع به إلى مسجد إبراهيم بن سعد بقمار فحفظ القران الكريم على يد الشيخ "العيد بن النصري" ثم درس العلوم الشرعية وعلوم اللغة على أيدي شيوخ العلم ببلدته قمار التي كانت حاضرة العلم والعلماء، وكان - رحمه الله- منذ صباه محبًا للعلم، شغوفًا بتحصيله مقبلاً عليه، وهو ما أدّى- مع ملكته الفطرية التي وهبه الله- إلى تحصيل زاد علمي وافر في تلك السن المبكرة في عدد من العلوم: كعلم الفقه، وعلوم اللغة وآدابها.

3-**الرحلة إلى جامع الزيتونة**: لم يكن ما تحصل عليه الشاب أحمد من معارف في بلدته "قمار" ليشبع نهامته ويروي غلته، فتطلع كعادة الكثير من الجزائريين في تلك الفترة إلى كعبة العلم في الشمال الإفريقي الجامع الأعظم بتونس ليكمل مسيرته العلمية، فتوجه إلى تونس عام 1940 والتحق بالزيتونة بعد نجاحه في اختبار الانتقاء وانتسب إليها رسميًا ليدرس العلم وفق مناهجها وعلى يد كبار أساتذتها وهناك أخذ قدرًا من المعارف على يد عدد من العلماء من أبرزهم:

* الشيخ عبد الجواد البنغازي الذي كان من أعلام علوم القرآن: كالقراءات، وعلم الرسم، وكان – رحمه الله- مصحح المصاحف بالجامع الأعظم، وقد أخذ عنه العلم كما تأثر به في الجانب الروحي.

* الشيخ عبد العزيز جعيط (1886-1970) الذي كان من كبار أساتذة الزيتونة وتولى عمادتها في الفترة (1940-1943) والذي تخرج على يديه أجيال من العلماء منهم: إبراهيم أبو اليقظان، عمار بن الأزعر، والمهدي البوعبدلي.

بقي الشاب أحمد مفتاح على هذه الحال من الانكباب على العلم والآداب مدة سنتين أي حتى عام 1942، ليضطر إلى قطع هذا المسار الرسمي والعودة إلى وطنه بسبب موت كافله عمه "الحاج علي" ليكمل مشواره في التحصيل اعتمادًا على عصاميته ويبني على ما حصَّله في بلدته أولاً، وما استفاده من جامع الزيتونة ثانيا، ومما عايشه من أجواء فكرية تعج بها الساحة الثقافية والسياسية سواء في تونس أو في الجزائر بعد عودته إليها.[2]

---

[1] - المرجع السابق، ص37.

[2] - علي غنابزية، ترجمة مخطوطة بعنوان الشيخ الفقيه الأديب: أحمد مفتاح القماري، وهي في الأصل مادة علمية قدمها في برنامج بإذاعة سوف.

ولا يمكن أن نختم هذه النبذة عن طلبه للعلم قبل الإشارة إلى صلته بأهل العلم سواء في قمار أو مدينة الوادي أثناء إقامته بها موظفا في المحكمة الشرعية إذ كان على صلة بالأخوين الشيخين "محمد طاهر" و"أحمد" العبيدي – رحمهما الله تعالى- وعن الأول منهما أخذ علم المنطق الذي يعتبر من علوم الآلة المهم تحصيلها لطالب العلم الشرعي، فعلى أساسه بنيت مدونات العلوم الشرعية: كالفقه وأصوله، وعلم الكلام، وعلم اللغة في مراحلها الوسيطة والمتأخرة.

فأخذ عنه متن إيساغوجي لأثير الدين مفضل بن عمر الأبهري (ت700هـ)، الذي عمّ انتشاره واستفاد منه خلق كثيرون[1].

4-**وظائفه**: بعد عودته من تونس أسس الشاب أحمد مفتاح تجارة بسيطة يعول بها نفسه، لكن هذه التجربة لم تدم طويلاً فقد نجح في مسابقة أجرتها السلطات لانتقاء موظفين للمحكمة الشرعية، التي تتولى الفصل في قضايا المسلمين الجزائريين، وعُيّن في محكمة الوادي في منصب "عدل" وهو ما يوازي النائب الثاني للقاضي، وكان القاضي وقتها هو السيد "مسعود عمراني". ظل في هذا المنصب إلى بداية الخمسينات لينتقل بعدها إلى محكمة قمار ويشغل نفس المنصب إلى غاية الاستقلال.

وفي عام 1962م بعد الاستقلال كُلف بمنصب القاضي في قمار مؤقتا، ثم عيّن لاحقًا بعد تنظيم القضاء في الجزائر المستقلة في محكمة الوادي بصفته كاتبًا للضبط، واستمر في هذه الوظيفة إلى غاية عام 1969م، ليتحول خلالها إلى سلك الشؤون الدينية والأوقاف ويعيّن إمامًا أستاذا بمسجد الرقيبة الكبير إلى يوم إحالته على التقاعد عام 1980م[2].

5-**مرضه ووفاته**: أبتلي الشيخ أحمد بداء السكري في مرحلة مبكرة من عمره وعانى من مضاعفاته معاناة شديدة خاصة في أواخر عمره حيث أصيب بالعجز التام. وتوفاه الله إلى رحمته عام 1986[3]م بعد عمر حافل بالعطاء العلمي والأدبي والعقب الطيب.

رحمه الله رحمة واسعة وأعلى درجته في الجنة، وسلام على روحه في عليين.

---

[1] -المرجع السابق.

[2] - التجاني العقون، أعلام من قمار، ص 38.

[3] - مقابلة مع نجله الأستاذ عبد الباقي ببيته العامر بقمار يوم 2023/01/21.

6-**خصاله**: إنّ التربية الصالحة التي يتلقاها المرء في أسرته ومحيطه، والتعليم المستمد من نور النبوة يطبعان الفرد بطابع الصلاح والإصلاح، وهو ما ينطبق على الشيخ أحمد مفتاح فقد كان – رحمه الله- صالحًا مجتهدًا في العبادة مقبلاً على ربه، متواضعًا لعباده، مجتهدًا في تحصيل العلم النافع طول عمره، ناصحًا لأبناء مجتمعه قائمًا بواجبه نحوهم، من ذلك مثلاً: أنه كان معروفًا بإصلاح ذات البين ساعيًا إلى الألفة بين عباد الله عملاً بقوله تعالى:﴿**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [النساء:114]. وبحكم عمله كنائب للقاضي يطّلع على مشكلات الناس وخصوماتهم فكان يسعى إلى تقريب وجهات النظر والفصل في النزاعات حتى لا يصيروا إلى رفع خصوماتهم إلى القضاء وهو ما يترك ندوبًا على قلوب المتقاضين.

وكان هذا دأبه حتى بعد توليه الإمامة في الجامع الكبير بالرقيبة فقد عمل جهده على إطفاء نار العصبيات البغيضة التي كانت تعشش في قلوب أبناء الأمة الواحدة نتيجة التعصب المقيت للمذهب أو العشيرة والتي كان يغذيها الاستعمار الذي يعمل على مبدأ: فرّق تَسُد[1].

كما كان مصلحًا بما ينشره من علم، سواء في مدينة الوادي التي كان يعمل بها أو في بلدته قمار.

فحينما كان في الوادي لم يتوان في بذل علمه للناس، فقد كان يلقي دروسًا علمية في علم المواريث في مسجد "الهبايتة"، وقد نقل الدكتور علي غنابزية عن الشيخ أحمد خراز أنّ الشيخ أحمد مفتاح كان يجمع بعد العشاء بعض السادة الأفاضل في مسجد سيدي عبد القادر "الهبايتة" في حدود عام 1948-1949م يعلمهم علم الميراث من كتاب مختصر خليل، وكان حافظًا لفصل المعاملات عن ظهر قلب، يقرأ شطرًا من المتن ثم يشرع في الشرح ارتجالاً[2]، وكانت له دروس أيضا في زاوية سيدي سالم التي كانت قلعة من قلاع القرآن والعلم والتي تخرج منها خلق كثيرون.

أما في بلدته قمار فكانت له دروس متنوعة يقدمها في أماكن عدة منها: مدرسة النجاح، وفي الزاوية التجانية، وفي مسجد سيدي إبراهيم بن سعد، وحتى في بيته كان يخصص دروسًا للنساء يعلمهن ويذكّرهن، وكذلك كان يُقدّم دروسًا علمية لفائدة أئمة الوادي

[1] - التجاني العقون، أعلام من قمار، ص39.

[2]- الدكتور علي غنابزية، الورقة البحثية المذكورة سابقًا.

بتكليف من مديرية الشؤون الدينية.[1]

كما أنّ من خصاله - رحمه الله- رحابة الصدر وسعة الأفق. فرغم كونه تجانيًا فقد كانت تربطه صداقات ببعض أعلام جمعية العلماء الجزائريين منهم:

* الشيخ الحفناوي هالي القماري (1910-1965م) والذي كانت بينهما مودة واحترام متبادل. وعندما توفي ألقى الشيخ أحمد كلمة مؤثرة في تأبينه عَرّف من خلالها بنسبه ومساره العلمي والعملي وقال في ختامها: "إخواني أرى أن نقف الآن هنا عند الجانب الجسماني السطحي المادي من حياة راحلنا الكريم ونُرجئ الكلام عن مميزاته وخصائصه العقلية وجوانبه الروحية وعن لون أدبه وقيمته بصفته كشاعر وأديب من أدباءنا اللامعين بالجزائر في العصر الحاضر إلى فرصة أخرى في ملتقى آخر إن شاء الله. والسلام عليكم ورحمة الله".

ومما يدل على تسامحه ورحابة صدره أيضا موقفه المتزن من رموز جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وذِكرهم بوصف المدح والثناء رغم مواقفهم المعروفة من التجانية. فهو يذكر الشيخ الطيب العقبي بوصف: "الخطيب المفوّه الكبير والمصلح الخطير"، وينعت الشيخ ابن باديس بـ: "أبي النهضة الجزائرية، وزعيم الأمة العالم المربي الكبير والخطيب المفوه والخطير". وينعت الشيخ العربي التبسي بـ: "العالم الغيور شهيد الحرية والاستقلال"[2]، ولا يعرف قيمة هذا التصريح إلا من علم حقيقة ما كان عليه الخلاف بين منتسبي جمعية العلماء والطرق الصوفية عموما والتجانية خصوصا، وهو ما تزال له بعض الامتدادات حتى وقتنا الحاضر.

ومن صور تسامحه أيضا ما أفاد به محدثنا الشيخ عبد الباقي- حفظه الله- أنّ بعضًا من منتسبي التجانية أنكروا على والده إقراره تحوّل ابنه إلى طريقة صوفية أخرى غير طريقة آبائه، فأجابهم بأنّ ابنه ما برح القرآن الكريم وذِكر الله تعالى. ولا يعرف أيضا قيمة هذا الموقف إلا ما عرف أنّ التحوّل عن الطريقة في ذلك الوقت أشبه بالتحول من دين إلى دين.

ثانيا: ملامح من عطائه العلمي والأدبي:

ترك الشيخ أحمد مفتاح آثارًا علمية وأدبية متنوعة، يدل ما بقى منها على تكوين

---

[1] - مقابلة مع نجله الأستاذ عبد الباقي –حفظه الله-

[2] - ينظر نص الكلمة التي ألقاها المرحوم أحمد مفتاح (-مخطوط يحوز الباحث نسخة عنه).

علمي رصين وقريحة وقادة مكنته من التعبير عن مشاعره فيما عايشه من هموم واقعه وما اختلجه من أحاسيس فيما عاصره من أحداث متنوعة.

وفيما يلي نبذة مختصرة عن ذلك العطاء:

1-الشيخ الفقيه:

لمّا كان الشيخ أحمد مفتاح نائبًا للقاضي في المحكمة الشرعية بالوادي وكانت جريدة النجاح[1] تَعتبر نفسها الناطق باسم القضاء الإسلامي، فإنها حرصت على متابعته ونشر ما يخصه، فكانت منبرًا إعلاميًا ينشر تساؤلات المواطنين الجزائريين وإجابات الفقهاء عنها، وكان الشيخ أحمد ممن يتولون الجواب عن أسئلة المستفتين، ونقدم هنا نموذجًا لتلك الإجابات:

-نشرت جريدة النجاح في عددها الصادر يوم 1946/12/25 سؤالاً مفاده: "إنسان حبس كتبًا بخزانة مسجد ورقلة الكبير واشترط أن لا تقرأ إلا في الخزانة المذكورة ومنها ما اشترط ألاّ يُخرج إلا بعد وضع رهن، فما الحُكم؟"

جواب الشيخ أحمد: "إنه من المقرر المشهور عند الفقهاء أنّ شروط الأوقاف تصحّ وتبقى حسب اشتراط مُحبسها إذا لم تناقض قاعدة فقهية إذ هي عندهم شبيهة بألفاظ الشارع لقوله صلى الله عليه وسلم: "المسلمون عند شروطهم". وإذا نُظِر إلى شرط المحبِّس -المسؤول عنه- وهو عدم إخراج الكتب إلا بعد وضع رهن فهو وجه لم يناقض أيّ قاعدة فقهية، بل إنه غرض شريف سام وهو الحفظ لها من الضياع والحرص على دوام الانتفاع. وعليه فحسب نظري يجب الانقياد له والعمل بما اقتضاه نصه عملاً بقول صاحب التحفة: "وكل ما يشترط المحبِّسْ من سائغ شرعًا عليه الحبس".

وقد ذكر شارح الأعمال الفاسية نقلاً عن المعيار يؤيد ما ذهبنا إليه أنّ أبا القاسم سراج سئل عن سؤالنا بلفظ سوى لفظة –ورقلة- ساقطة منه فأجاب بقوله: "لا يجوز أن يتعد شرط المحبِّس"، وعلل ذلك بقوله: "لأنه تصرّف في ملك الغير بغير إذنه؛ لأن الانتفاع بالحبس على ذمة المحبِّس". وهو تعليل مقبول حسن".

---

[1]- جريدة النجاح من أوائل ما صدر من الصحافة باللغة العربية بقسنطينة، أنشأها عبد الحفيظ بن الهاشمي، وترأس تحريرها مامي إسماعيل. بدأت في الصدور عام 1919 وتوقفت عام 1956 صدرمنها 4423 عدد، يوجد أرشيفها في ولاية قسنطينة كما توجد نسخة مصورة "ميكروفيلم "بالمكتبة الوطنية بالحامّة بالجزائر العاصمة. لمزيد معلومات ينظر: محمد يعيش، كبرى اهتمامات جريدة النجاح القسنطينة، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، عام 2000-2001.

-وممّا بقي من آثار الشيخ ما نشره في جريدة النجاح أيضا جوابا عن سؤال نشر بها جاء فيه[1]:

أنّ رجلا تزوج إمرأة بلغت الرابع عشرة من عمرها ثم أولد منها أولادا، ولمّا بلغت الخمسين أصيبت بمرض الروماتيزم فأهملها زوجها الشهور، ثم صرح لها أمام الناس بقوله: إنني مطلقك ومحرّمك، ولو تنزل ملائكة السماء لم ترجعك لي". يسأل السائل عن حكم هذا الطلاق؟ وحقوق تلك الزوجة؟ فأجاب الشيخ جوابًا نقتطف منه التالي: "إن حكم هذا الطلاق الواقع بذلك اللفظ البينونة والثلاث على مشهور مذهب السادة المالكية في المدخول بها، وينوي في عدد الطلاق في غيره وهو قول سيدنا علي وسيدنا زيد بن ثابت من الصحابة - رضي الله عنهم- كما أفاده العلامة ابن رشد في "بداية المجتهد"، وشهره المحقق ابن جزي في قوانينه، ومشى عليه فخر المغرب ابن أبي زيد القيرواني في الرسالة..."وأما حقوق هذه الزوجة المسؤول عنها الواجبة على مُطلقها فهي: النفقة، والكسوة، والسكنى، وسائر حقوق الزوجية مدة الإهمال قبل الطلاق إن لم يواصلها بها حسب حاله وحالها لقوله صلى الله عليه وسلم: "ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف".

ومن عطائه العلمي ما ذكره معرِّفنا بالشيخ أحمد مفتاح نجله الشيخ عبد الباقي أن لوالده بحث مطولاً في علوم القرآن يَدرسُ فيه قضية نزول القرآن على سبعة أحرف. وهي قضية وقع الخلاف حولها بين العلماء قديما وحديثا في تحديد المقصود بالحرف وتعيين المعاني السبعة المشار إليها في الحديث. جمع المؤلف في بحثه المذكور سبعة أوجه[2].

ومن صور عطائه العلمي أنه كان متقنا لعلم الفرائض، يقصده الناس من كل مكان ليقسم لهم تركاتهم، كما كان – رحمه الله- مُعلما لهذا العلم في مدينة الوادي كما سبق ذكره، ويبدو أن الشيخ لم يخلف آثارا مكتوبة في علم الفرائض أو أنها قد ضاعت فيما ضاع من وثائق.

2-**الشيخ المؤرخ:**

يقول الأستاذ الدكتور علي غنابزية[3]:

---

[1] - نص السؤال وجوابه موجود بخط المؤلف.

[2] - مقابلة مع الشيخ عبد الباقي.

[3] - منقول من الورقة البحثية آنفة الذكر.

"كان الشيخ على صلة وثيقة بتراث سوف، من وقائع وأحداث وأشغال. وتطوّر ذلك إلى البحث والتنقيب، وإلى عزم وتصميم على كتابة مؤلف في تاريخ سوف، وعمل على جمع المادة التاريخية حول المساجد والعمران، وبدأ مشروعه بكتابة بعض الأوراق وسمى هذا المؤلف: "القول المعروف في عمران سوف"، ولكن المرض والموت حال بينه وبين إتمامه.

والجدير بالذكر أنّ الشيخ كان أمينا في نقله للمخطوطات. ومنها أنه كتب تاريخ العدواني بخط يده ثم كتب تعليقًا عليه هذه العبارات والتي ننقلها بأكملها حتى تتضح المكانة العلمية والخُلقية لهذا الرجل المؤرخ.

نص التعليق:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الأسعد الكريم وعلى آله وصحبه وسلم وبعد: هذا كتاب تاريخ الشيخ العدواني نقلته كما وجدته دون تبديل أو تغيير، صورة طبق الأصل الذي نقلته منه مع أنّ فيه كثيرًا من التحريف الرسمي واستعمال لغة: "أكلوني البراغيث"، زيادة على ضعف الإنشاء وسقوط اللفظ وفساد رسم كثير من الكلمات، ونقلته كما وجدته على فساده تحرّيا في أمانة النقل. وقد بدأت أولاً نقله في كراسة أخرى واتبعت فيها الكتابة حسب الواجب رسمًا وإنشاء فوجدت نفسي سأبدل جميع الكتاب تقديما وتأخيرا مع حذف بعض الكلمات والجمل الغير مفهومة وإبدال– أحيانا-الواو فاء والعكس بالعكس. فوبخني ضميري على ذلك ورأيت لزامًا عليّ أن لا أبدل شيئا مما وجدته في النسخة التي بين يدي حتى في الغلط الرسمي ليقف من يأتي بعدي على ما وقفت عليه. وأنا أجزم بأن هاته الأشياء كلها أنجرت للكتاب من النقلة المحرفين -سامحهم الله-، وأن نفس الكتاب لم يبيضه صاحبه بعد، وعلى كل جزاه الله عما فعل خيرا فقد ترك لنا أثرا أغفله غيره، اللهم اغفر لنا وله والطف بنا وبه بجاه محمد النبي وآله.

مفتاح أحمد29 ربيع الأول سنة 1390 هجري1970/6/4م.

فهذه شهادة وتقييم لكتاب العدواني وتقدير لجهود القدامى، وأمانته العلمية في النقل قلما توجد عند الناس إلا من كان ذا نفس فريدة عزيزة، وكان الشيخ أحمد مفتاح من هذا الطراز الرفيع".

3-**الشيخ الأديب:**

يمكن القول-وبكل ثقة- أن الشيخ أحمد عبد الباقي مفتاح أديب بكل ما تحمله الكلمة من معنى وآثاره الباقية من مشاركاته المتنوعة في قرض الشعر وفنون النثر شاهدة على

ذلك وسنقدم هنا لمحة موجزة عن أهم أعماله الأدبية:

1.3-**شعره:**

نظم الشيخ أحمد عددًا معتبرًا من القصائد وفي أغراض عدة، ولا يمكن في هذه المداخلة الحديث عنها تفصيلاً، وإنما سنكتفي بالإشارة الخاطفة.

- **قصائد دينية:**[1] كتب مقطوعة في 10 أبيات لخص فيها الجواب حول الجدل الذي كان دائرا إذاك بشأن زكاة الأوراق المالية، نشرها في جريدة النجاح نقتطف منها قوله:

وجوب زكاة العين عند الأئمة	***	يناط بـأوراق البنـوك الجميلة
ويحـرم فيها كـل فعـل محرّم	***	علينـا بنص أو قيـاس لحكمـة
وحكمـة أوراق البنـوك رواجها	***	رواج أصول النقد في كل دولة
وإنّ شبـه الشيء يأخذ حكمه	***	كمـا هـو معلـوم لنا بالضرورة

كما كتب قصيدة بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف عام 1951 وعدد أبياتها 27 بيتًا نقتطف منها:

ربيـع الشهـور أَضأْتَ الآفـاقـا	***	بضوء جديد وكانت غسـاقا
عنـادا وبغضا وعجبـا وكبـرا	***	وزورا وكفـرا وشركـا نفاقا
وفحش الزنـــا وأكـــل الربـا	***	وسفـك الدمـاء مثيرا حناقا
فتلك خـلال الشعـوب قديما	***	جميعا أحـاط بها ذا وحاقا
برابـر عـرب وعـجم زنـــوج	***	عكـوفًاعليها سـواء وفاقا
إلى أن تجلت شموس الأماني	***	بقلـب الحجـاز تلوح اتّلاقا
وســرعان لاحـت بكل البقاع	***	شعـاعا منيرًا أزال المحاقا
فعــاد الظــلام منارا يضيء	***	كبـدر جميل يشـع اتساقا
وذلك بفضـل رســول عظيم	***	وآل وصحب بحرب حذاقا

كما كتب قصيدة أخرى بمناسبة الاحتفال بالمولد أيضا سنة 1967 إثر هزيمة العرب في الحرب ضد دولة الكيان عنوانها: شهر السعود وعدد أبياتها 21 نقتطف منها:

بهـلال الرســول بــدر السعــود	***	أنظم الشعـر في قوافي الخلود

[1] - كل القصائد المذكورة محفوظة وبحوزة الباحث نسخة عنها، ومنها نقلت هذه المقتطفات .

وعـــروض صوارم قــارعــات *** تبعث الـرعب في قلوب اليهود
تلكمو(القوم البُهت) في كل عصر *** وذووا البغي والبغاء في الوجود
كــم رســـول لله قــد قتــلــوه *** ونبي أردوه تــحـــت الخــدود

كما نظم في مرحلة في شبابه قصيدة صوفية رمزية يتغنى فيها بمحبوبته على أسلوب المحبين وهي 21 بيتا نقتطف منها:

أليلى عشقتك منذ الصغــر *** ولـم تـصليني ولـو بـالنظـر
وحبي إليـك زمـان الرضاع *** وحـب الــرضاع عميق الأثر
ملكت شعوري وقلبي وروحي *** وأخشى على الروح أن يحتضر
فـاتبعت أثـرك فـي كل ناد *** لأسمـع منــك حـديث السمر
وأشفي كـلومي بتـلك اللآلئ *** وذالك المحيـا البهيـج النضر

• **قصائد وطنية**: لأن شاعرنا كان ابن وقته يواكب أحداثه ويتفاعل معها فقد نظم قصيدة طويلة99 بيتًا بعنوان من وحي الثورة يصف فيها جهاد الأبطال ومعاركهم المجيدة والدعم الذي تلقته الثورة المباركة من الأشقاء والأصدقاء والمراحل الكبرى التي مرت بها نقتطف أبياتًا من أولها وأخرى من آخرها:

أيـا ربّـة الحسن ذات الجلال *** إليـك أروي حديـثا بـدا لي
يـتيـه دلالا وفخــرا وحســنا *** كعقد أنيــط بجيــد غــزال
يقص عليــك ملاحــم قومي *** بـأعدائهم في السياق الموالي
على قبس من شعــاع الهلال *** وفــوق مكــان بأعلى الجبال
تحالف قومي على الموت إلا *** إذا حــرّروا أرضهـم بالقتـال
فبــرّوا اليميــن بحــزم وعـزم *** وصدق المقال وحسن الفعال

إلى أن يقول:

وعـمّ السرور جميع الأنام *** وحـل الهنـاء بـوقف القتـال
وأصبح شعب الجزائر حرا *** طليـقـا من القيد والاحتلال
يفـاخر أهل الحياة بجيل *** جـديـد عظيم الكـرامـة عالي
سلالـة شعب زكي يدين *** بحسن الجوار وحب المعالي
وسوف يزيل الفروق بعدل *** يضيء الحياة كضوء اللآلئ

بجـاه النبي البشيـر النذير *** عروس الوجود وعين الكمال

ثم كتب – رحمه الله- قصيدة لأشبال الكشافة وتلاميذ المدارس عام 1962 ليتغنى جيل الاستقلال بأمجاده ويتربى على حب وطنه وخدمته وعدد أبياتها 20 بيتًا نذكر منها:

بـدا خـافقا في السـماء العلم *** وفوق الرؤوس وفوق القمم
وفي كل جزء من القطر عم *** بفضل كفـاح سراة الرجـال
على قبس من شعاع الأمل *** وفـوق ما كان بأعلى جبل
حلفتم يمينًا عظيم المثل *** على أن يحرر قلب الشمال
بلاد الجـزائر أرض الكرام *** وشعب البطـولة منـذ القدم
لـذلك تـرنو إليـه االأمم *** بـروح الـود وعيـن الجلال

كما نظم – رحمه الله- قصيدة يدافع من خلالها عن اللغة العربية في الجزائر أمام هجمة التيار الفرنكوفوني الذي غيرَّ لغة التدريس في المدارس الجزائرية إلى اللسان الفرنسي، جعل يشجع الشعراء من خلالها على الاهتمام بهذا الموضوع الخطير الذي سيكون له ما بعده، -وسبحان الله ما أبعد نظر الشيخ، فالذي توجس منه قد وقع فعلا- نقطف من هذه القصيدة التي يبلغ عدد أبياتها 34 بيتا: ما يلي:

بكى الروح والقلب حتى انفطر *** وأنَّ الضمير وأنين الضجر
وبـاتت تسيـل دماء فؤادي *** عليك غزالي جميل الحور

إلى أن يقول:

يريـدون إطفـاء شعلة نـور *** بظلمة ليـل سجى واعتكر
يريدون أن يطفؤوا عين شمس *** تضيء الظلام بنور القمر
وبحـرًا يفيض بديـع المعاني *** ويعبق لفـظا كعرف الزهر

ثم يقول:

ويـا عجبا مـن رجال تمالوا *** على هجر ليلى بغير حذر
تمالوا على بعدها من حماها *** وجـاءوا بعجمة نـاس أخر
ليعـدم فـهم الكـتاب المنير *** وتهمـل سنـة خيـر البشر
فتـلك أمـاني قـوم تجلت *** عيـانا تَجُر ذيـول البطر

- **قصائد إخوانية:**

كتب شاعرنا قصائد جميلة يعبر فيها عن مشاعره تجاه من أحبهم، منها قصيدة من 18 بيتا، ألقاها عند عودة الشيخ سيدي أحمد التجاني من أول حجة حجّها عام 1946 جاء فيها:

لمـــاذا أراكـم فـي سرور ونشـوة *** تُمـــالى كقيس بيـن ليلى ولبنـة
وأسمـع مـن شدو البلابـل صيغا *** بـأبدع مـوسيقى وأعذب نغمـة
تُميـل قلـوب السامعيـن وتسقها *** كـؤوسا دهـاقا مـن صفاء المحبة
وكـم مـن أديب قـام يلقي فرائدا *** من الجوهر المغشى بأجمل صبغة
ويهـدي يـواقيت التهـاني لأحمـدا *** بنيـل المنى مـن قرب خير البرية
ولـــثم يميـــن الله جـهـــرة *** تـجلت لـه ليلى بأكمـل صـورة
فسرَّح طرف العين من حسن روضها *** وطـاف بـها فـي كل شقٍّ ووجهة

ومن قصائده الإخوانية ما كتبه لأخيه قاضي محكمة الوادي الشيخ سيدي مسعود العمراني بمناسبة زواج ابنيه عبد الرحمان ومحمود وعدد أبياتها 9 نذكر منها:

غـادة الحسن نجِّزي لي عهودي *** مـع نسيم الصبا ونفح الخلـود
كي تغني اللحن الطروب بصوت *** يُـرقِصُ الـروح خـارقا للقيـود
بـل يداوي القلـب العـليل فيمسي *** يسـرج النـور مثل بدر السعود

إلى أن يقول:

وسليـل النبي حـقا وصدقـا *** شيبة الحمـد شيخنـا المسعـود
لم يزل في مراتب العز يرقى *** دائـما دون منتهى في صعـود
وتقبـل مني جمـيل التهاني *** يا سنِّي الخصال في ذا الوجود
بـزفاف تطيـب منه الحياة *** بـأريج يشـدو كـورد الخلـود

ولشاعرنا أيضا قصيدة يصف بها رحلة الشيخ سيدي أحمد التجاني إلى عين ماضي لتنصيب الشيخ علي بن الشيخ محمود التجاني شيخا للطريقة التجانية بزاوية عين ماضي يوم 1977/01/11 وعدد أبياتها 24 بيتا نقتطف منها:

يـا حبيبًا ردِّدْ جميل الأغـاني *** وانـظم الدُّر بالقـوافي الحسـان
وصف الرحلة التي سار فيها *** نجل قطب الورى وفخر الزمان
الإمـام الكبيـر أحمد محفو *** فـا بعين الرضـا من الرحمان

إلى أن يقول:

رضي الله عنه ما حفّ لطف *** وأمـــان بتـــلك المغـاني
وصلاة على رسول الهدى ما *** تليت آيـــات مـن القـــرآن
وسلامـا مني لأحـــمد يشـــذو *** بـأريج كـــالمسك والـريحان
ما سنى البدر في دياجي الليالي *** وسما الشعر بالقوافي الحسان

- **قصائد في مناسبات أخرى**: نظم الشيخ أحمد مفتاح قصيدة إثر أمطار طوفانية عام 1969 انقطعت بسببها الطرق وأتلفت المحاصيل، عبّر فيها عن الأسى الذي يشعر به، واستحث إخوانه الشعراء (شعراء الفصيح والملحون على السواء)كي يُعبِّروا عن هذه النكبة، نقتطف منها الآتي:

قوافي الشعر فاضت بالشعور *** كفيض الماء من أعلى البحور
على صحـرائنا ذات الفيـافي *** بطـوفان طغى رغم الصخور
ومـا عهـدي بهـا إلا قفـارا *** تميت الطيـر من حـر الهجير

إلى أن يقول:

نذير من فعال البغي جاءت *** فهـل مـن مستجيب للنـذير
وتـــآمرنـا بتقوى الله حتى *** نُجـازى عنـه بالخيـر الكثيـر
ونبقى في رياض العزّ نشدو *** قوافي الشعر فاضت بالشعور

2.3-**النثر:**

كتب الشيخ أحمد مفتاح نصوص أدبية نثرية عديدة وفي مواضيع متنوعة منها الكلمات التأبينية، والخطب المنبرية، والخطب الاحتفالية، وأدب الرحلة، وحتى تحليل بعض النصوص الأدبية، ومما بقي محفوظًا[1] منها نختار الآتي:

1.2.3-**كلمات التأبين:**

من القطع الأدبية الجميلة التي تدل على علو كعبه في البيان؛ النص الذي كتبه في تأبين فقيد العروبة والإسلام والجزائر العالم الجليل الشيخ "محمد اللقاني بن السائح الطيباتي" حينما أقامت الزاوية التجانية بتماسين حفلا تأبينيا بأمر من الشيخ سيدي أحمد التجاني وتحت رعايته، فكان من المتحدثين في هذه المناسبة الشيخ أحمد، وفيما يلي نُبذة منتقاة من كلامه:

[1] - أطلعني الشيخ عبد الباقي على عدد من نصوصها، وعنها نقلت ما تيسر في هذا البحث.

الله اكبر

أيتـها النفس أجمـلي جزعا *** إن الـذي تحذرين قـد وقعـا

الله أكبر

الدهر يفجع بعد العين بالأثر *** فما البكاء على الأشباح والصور

الله أكبر

فـالعيش نوم والمَنيّة يقظة *** والمرء بينهمـا خيـال سـار

نعم إن الموت ليس يقظة فحسب، بل يقظة وفرحة كبرى للروح المؤمنة الطاهرة، إن في ذلك تكسير لسجنها، وتحطيم لأغلالها، وفك لقيودها التي كانت مقيّدة بها في قفص البدن، والموت هو الدرب الوحيد الموصل بالروح إلى أوج بروجها وأعلى مقاصدها وأرفع مراتبها وسلم السعادة الأبدية الأزلية في العوالم الجبروتية اللانهائية ﴿**وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ [العنكبوت:64].

التأبين تخليدًا لذكراه، وللإشادة ببعض مزاياه: كان – رحمه الله- مفخرة للإسلام والعروبة قاطبة، وللمغرب العربي عامة، وللجزائر خاصة، ولصحرائنا بوجه أخص، إذ كان – رحمه الله- عالمًا أصوليا ومحدِّثًا صوفيًا، كما كان شاعرًا فحلاً صاحب قريحة فيّاضة، وخيال خصب وفكر عميق، وذكاء وقاد. وقد كان – رحمه الله- مثالاً أعلى في تفهيم تلاميذه لدروسه بالجامعة(الزيتونة)، حريصًا على اختيار أحسن الأساليب وأقربها للتفهيم، ولا زلنا ونحن ندرس بتلك الجامعة نسمع من شيوخها إذا مدحوا أحدًا منهم يقولون: "إنّ أسلوبه وتدريسه يضاهي أسلوب الشيخ اللقّاني، وكفاه بهذا الاعتراف شرفًا...". وبالجملة، فقد كان الشيخ – رحمه الله- طودًا في العلم والأدب وآية في الفلسفة والتصوف الإسلاميين. كما كان نارًا موقدة تتأجج غيرة وحماسة للوطنية الجزائرية. رحمه الله برحمة الشهداء والعلماء العاملين والصالحين، ورحم الله شهداءنا الذين بذلوا نفوسهم وأموالهم لتحرير بلادنا. والسلام عليكم".

2.2.3- كلمة في الحفل الخمسيني لخلافة سيدي أحمد التجاني بتماسين في سنة1976:

كان أديبنا على علاقة قوية مع شيخ الزاوية بتماسين سيدي أحمد التجاني وبينهما مودة. وفي الذكرى الخمسين لتولي الشيخ المشيخة -وكانت عام 1976- ألقى الشيخ أحمد مفتاح كلمة بالمناسبة نوّه فيها بأهمية المحبة في الله وفضلها مستشهدا بعدد من النصوص النبوية الشريفة، وذكرَّ بجملة من الأخلاق المحمدية التي يتحلى بها المتبَّعون لهذه الطريقة

الأحمدية من المحافظة على صلاة الجماعة والبر بالوالدين، والإحسان إلى الأقربين ومواساة المساكين وعمارة البيوت بالذكر سرا وجهرا.

ثم عرّج على ذكر خصال الشيخ المحتفل به، وذكر أخلاقه الظاهرة والباطنة وجلائل أعماله ومن ذلك قوله: "وكان كما كان آباؤه من قبل صوفيا بالقلب والروح، أي لم يكن متصوفا خاملاً ولا متزمتًا عاطلاً، إذ كان جادًا في عمله الأخروي والدنيوي، موفيا لكل حقه عملا بقوله تعالى:﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾ [القصص:77] وبالأثر القائل: "اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا".

ثم ختم كلامه بقول الشاعر:

ومن لي بحصر البحر والبحر زاخر *** ومن لي بإحصاء الحصى والكواكب

3.2.3-التحليل الأدبي للنصوص:

بين أيدينا تحليل لأبيات من قصيدة خمرية لعمر ابن الفارض يبدو أنّ المؤلف كتبها لجريدة النجاح. ومن هذا النص المحفوظ المشار إليه نقتطف هذه الجمل بعد الاستهلال بذكر الأبيات وهي:

يقولون لي صفها فأنتب بوصفها *** خبير، نعم عندي بأوصافها علـم

صفاء ولا مـاء ولطف ولا هواء *** ونـور ولا نـار وروح ولا جسـم

وقـالـوا شربت الإثـم كلا وإنمـا *** شربت التي في تركها عندي الإثم

على نفسه فليبك من ضاع عمره *** وليس لـه فيها نصيب ولا سهم

ثم عرّج الكاتب في تحليليه على بيان مكانة الخمر عند العرب في جاهليتها وكيف كانت تتفنن في وصفها وصف ساقيها ومجالس شربها ثم أصنافها وهي الصرف والممزوجة، ثم انتقل إلى بيان الدلالة المقصودة عند القوم فقال:

"وأما عمر بن الفارض - رضي الله عنه- الذي ساقنا لهذا الحديث اللذيذ، حيث كانت خمرته ليست من قبيل خمرة هذا ولا ذاك، بل هي خمرة روحانية ولذة وجدانية، لا يعرفها إلا من تذوق طعم الحب الإلهي، ولذة الوجدان الصوفي، وعرف معنى العبودية بالحب والهيام، فقد فرّق بين الممزوجة والصرف وأشار إلى ذلك بقوله:

عليك بها صرفا وإنْ شئت مزجها *** فعَدْلك عن ظَلَم الحبيب هـو الظُلم

ثم زاد المعنى بيانًا فساق أبياتًا تنسب لأبي مدين شعيب - رضي الله عنه- منها:

قل للذي ينهى عن الوجد أهلـه *** إذا لـم تذق صفا شـراب الهـوى دعنا
إذا حنّت الأرواح شوقا إلى اللقا *** تـراقصت الأشبـاح يـا جاهل المعنى
ألا تنظر الطير المقفص يا فتى *** إذا ذكـر الأوطـان حـنَّ إلـى المغنى
ففـرّج بالتغـريد عمـا بفـــؤاده *** فتضطرب الأعضاء في الحس والمعنى
كـذلك أرواح المـحبين يا فتى *** تهـزهزهـا الأشـواق للعـالم الأسنى
أتـلزمها بـالصبر وهي مشوقة *** وهـل يستطيع الصبر من شاهد المعنى

ثم ختم مقالته[1] بالذي هو خير، إذ بيّن أن الشعراء في الجاهلية والإسلام وإن أجادوا فنّيًا في وصف الخمر، فإنهم ما بلغوا معشار معشار ما جاء في كتاب الله تعالى بأسلوب جميل أخاذ بمجامع القلوب، جذاب للأرواح، فقال جل شأنه:﴿**ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَ أَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ**﴾ [القيامة:13-19].

ثالثا: ملامح من مسيرته الصوفية:

يمكن ملاحظة الانتماء الصوفي للشيخ أحمد مفتاح من خلال ما تقدم من نصوص نقلناها من كلامه شعرًا ونثرًا، ومدى محبته لهذا المسلك عمومًا ولطريقته وشيوخها خصوصا، ومع ذلك سنحاول تسليط مزيدٍ من الضوء على هذا الجانب من شخصيته.

يقول محدثنا عن الشيخ أحمد مفتاح وهو نجله الشيخ عبد الباقي-حفظه الله[2]-إن أسلاف عائلة مفتاح القدامى كانوا ينتمون إلى الطريقة القادرية ثم إن جده أحمد بن سعد مع تسعة آخرين كانوا من أوائل من أخذوا عن الشيخ سيدي أحمد التجاني عندما ظهر بالدعوة إلى الله والتربية الصوفية، وحين زاروا الشيخ عام1201هـ في عين ماضي أرشدهم إلى بناء زاوية في بلدتهم قمار فشيدوها سنة 1204هـ.

وهي أول زاوية تجانية في العالم، بنيت في حياته وبأمره، مع العلم أن سكنى عائلة مفتاح ملاصقة للزاوية. فمنذ ذلك الوقت (أي ما يزيد عن قرنين من الزمان) والعائلة منخرطة في الطريقة التجانية تلتزم أورادها والولاء والمحبة لشيوخها.

وبالعودة إلى الشيخ أحمد تحديدًا فقد كان تجاني الطريقة كأسلافه وكذلك زوجته،

[1] - يحوز الباحث نسخة مصورة عن هذا النص.

[2] - كل الكلام المذكور في الجانب الصوفي للمرحوم أحمد مفتاح سمعته من نجله الأستاذ عبد الباقي في المقابلة المذكورة.

كبر وترعرع في زاويتها بقمار، ملتزمًا أورادها حتى توفاه الله، وكان يعتقد فضلها وما خصها الله به من مزية نشر الإسلام في إفريقيا، وربط الملايين بذكر الله والقرآن العظيم. ومن دلائل ارتباطه بالطريقة قلبًا وقالبًا صحبته في قمار للشيخ سيدي محمد السائح بن سيدي حمه عروسي، الذي كان من أهل العلم وأثرى مكتبة زاوية أقمار بأصول كتب التصوف كالإحياء للغزالي والفتوحات المكية لمحيي الدّين بن العربي وغيرها. وكذلك علاقته المتينة بشيخ الطريقة في تماسين سيدي أحمد بن حمّه، وقد مرّ معنا سابقا طرفا من النصوص التي يعبّر من خلالها الشيخ أحمد عن محبته وولائه للشيخ، سواء في الحفل الخمسيني لتوليه المشيخة، أو في حفل استقباله عند عودته من الحج، أو رحلته إلى عين ماضي لتنصيب خليفتها الجديد، واستجابته للمشاركة في حفل تأبين محمد اللقّاني الذي دعا إليه الشيخ[1].

ومن صور الترابط بين العائلتين (عائلة مفتاح وعائلة الزاوية التجانية) المصاهرة، وهو ما يدل على متانة الصلة بينهما.

كما تقوم علاقات الشيخ أحمد الواسعة مع التجانيين في مناطق عديدة دليلاً على أصالة انتمائه للطريقة، من ذلك مثلاً علاقة الصداقة التي تربطه بمقدم زاوية الوادي في ذلك الوقت، المقدم العروسي محمدي والذي تولى شيخنا أحمد تأبينه لما مات رحمه الله.

ومنها كذلك صلته الوثيقة بمقدم زاوية البياضة، الرجل الصالح سيدي العيد بن يامة الذي كان يزوره مع القاضي سيدي سعود العمراني في زاويته بالبياضة، وكانت تعقد فيها أحيانا جلسات الصلح بين المتخاصمين من أبناء الجهة.

وقبل أن نختم هذا الحديث عن انتمائه للطريقة، وتمسكه بها ودفاعه عنها، لا بد أن نشير إلى أن تكوينه العلمي جعله متزنًا معتدلاً في مواقفه، لا يقبل الشطط من أيٍّ كان، لذلك لم يكن بمستغرب عليه القيام بتهذيب الاعتقادات الغليظة عند بعض العامة. ففي مجتمع تنتشر فيه الأمية وتعظيم رموز الطرق تشيع بعض التصورات التي قد لا تتوافق مع أحكام الشرع أو ما يعبّر عنه من معانٍ بألفاظ فجة، فلم يكن أمام الشيخ أحمد إلا التوجيه والتصحيح بالحكمة والموعظة الحسنة، شأن أهل العلم الصادقين الذين لا يقرون الخطأ. فما كان من بعضهم إلا أن سيّر وفدًا إلى

[1] - يحوز الباحث صور عن الكلمات المشار إليها.

تماسين شاكيا عمل الشيخ أحمد، فردعليهم الشيخ سيدي أحمد التجاني قائلاً: "سي أحمد رجل عالم، وإذا أزعجتموه بمثل هذه المواقف تخسرونه، ويتحول عنكم إلى غيركم". غيركم". فكانت كلماته تلك بلسمًا ردت بعض هؤلاء إلى رشدهم، وخففت الإنكار على الشيخ فيما يقوم من واجب النصح.

ومن طريف ما ذكره لنا الشيخ عبد الباقي[1] من غيرة والده على الدين، وحكمته في تهذيب تلك الاعتقادات الغليظة أنه كان يلاحظ أحدهم كلما أراد القيام نادى: "يا سيدي الحاج علي"، فأراد الشيخ أن يوجهه إلى الاعتماد على ربه الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد بأسلوب جميل يُفهم ويُقنع محاوره بحكمة فقال له: يا فلان هل تناديني إذا مررت بجوارك وتقول لي يا سي أحمد تعال ساعدني على القيام. فقال الرجل: لا، أنت أكبر من ذلك، فلك من الاحترام والتقدير ما يمنعني من ذلك. حينها قال له الشيخ أحمد: أو ليس سيدي الحاج علي أوْلى بهذا التقدير، والمفروض أن تكون أحرص على عدم إزعاجه وهو في مكانه البعيد. فهكذا أوصل رسالته ودخل لمحاوره من مدخل يتماشى مع قناعته دون دخول في جدال ربما كان الرجل لا يفقهه، بل ربما كان سيزداد عنادًا وإصرارًا.

هذه بعض أهم الملامح الشخصية والعلمية والروحية للشيخ - رحمه الله- استمددناها من ولده الشيخ سيدي عبد الباقي مفتاح في مقابلة معه بمنزله العامر بمدينة قمار يوم 2023/01/21م.

خاتمة

في ختام هذه الورقة التي حاولنا من خلالها تقديم صورة أقرب إلى الواقع عن علم من أعلام الطريقة التجانية بوادي سوف يمكن تسجيل النقاط التالية:

1-يمكن القول بأن منطقة سوف تملك رصيدًا من القامات العلمية والروحية التي حافظت على القيم التربوية والروحية للأمة الجزائرية في الماضي والحاضر، وما النموذج المقدم في هذه الورقة إلا حلقة من تلك السلسلة الممتدة.

2-يقدم النموذج المعروض في هذه الورقة الدليل على نجاعة المسلك التربوي الصوفي في تكوين أفراد وسطيين يستوعبون الآخر، ويعملون معه في المشترك بما يعود بالخير على المجتمع.

3-إن التنقيب عن هؤلاء الأعلام وتوثيق سيرهم وأعمالهم يساهم في استمرارية الأمة

[1] - المقابلة المذكورة.

من حيث ربط اللاحق بالسابق ودرء خطر القطيعة مع أصولنا وثوابتنا.

4-إن إحياء هؤلاء الأعلام وما عُرفوا به من إقبال على الله ورحمة بعباد الله وغيرها خصال حميدة يقدم القدوة الحية للجيل المعاصر الذي طوّفت به الحضارة المادية المعاصرة بعيدًا، وأنسته ذاتيته وقيمه، حتى صار كثير منا يتساءل من أين دُهينا؟

5-إن مثل هذه البحوث يشكل خطوة باتجاه تصحيح كثير من التصورات التي رُوّج لها والتي سعت إلى هدم هذا النموذج وتقديم نماذج أخرى بديلة أثبتت التجارب حاجتها إلى مراجعات عميقة.

التوصيات:

1. يوصي الباحث الطلبة في المراحل المختلفة بالعمل على البحث عن الشخصيات الفاعلة في منطقتنا علميًا أو روحيًا أو اجتماعيًا والتعريف بها وبأدوارها.

2. أما بالنسبة للشخصية محل البحث فيمكن توجيه الطلبة الباحثين إلى أكثر من موضوع منها:

- تتبع فتاوى الشيخ في جريدة النجاح وجمعها ودراستها.
- العمل على جمع النصوص الأدبية المختلفة ودراستها دراسة علمية وفق المناهج الأكاديمية المعمول بها.

وفق الله الجميع لما فيه، الخير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قائمة المراجع:

1- العقون: التجاني، أعلام من قمار بوادي سوف، ط1. الوادي: مطبعة سخري 2013م.

2- غنابزية: علي، ترجمة مخطوطة بعنوان: "الشيخ الفقيه الأديب أحمد مفتاح القماري"، وهي في الأصل مادة علمية قدّمها في برنامج بإذاعة وادي سوف.

3- مفتاح: أحمد، مجموعة من القصائد والرسائل المخطوطة، لدى الباحث نسخة عنها.

4- مفتاح: عبد الباقي، مقابلة معه في بيته العامر بقمار يوم 2023/01/21.

5- يعيش: محمد، كبرى اهتمامات جريدة النجاح القسنطينة، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، عام 2000-2001.

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
❁ مقدمة	05
❁ مجموع البحوث:	09
❁ نبذة عن تاريخ منطقة وادي سوف وبعض علمائها.	
✍ أ.د. عبد الرحمان تركي	11
❁ إسهامات علماء الجزائر في نشر التصوف من خلال كتاب "التشوف إلى رجال التصوف" للتادلي.	
✍ ط.د. حمزة سليمان / د. أحمد عامر باي	21
❁ دخول التصوف و انتشاره بالجزائر: قراءة في كتاب "أنس الفقير وعز الحقير" لابن قنفذ القسنطيني.	
✍ ط.د. صفية فضلة / د. زهير بن كتفي	39
❁ دور التصوف في حفظ عقيدة التوحيد ومواجهة الاستعمار الفرنسي في منطقة وادي سوف .	
✍ ط.د. شامة مقيدش / أ.د معمر قول	53
❁ جهود الشيخ محمد العيد التجاني في خدمة الطريقة التجانية.	
✍ ط.د. سمية بن بردي / د. أحمد عامر باي	69
❁ الشيخ عبد العزيز الشريف ونشاطه الإصلاحي والتعليمي بوادي سوف.	
✍ د. محمد عمارة	77

۞ الشيخ الحبيب حنيش بن عثمان المداني السيرة والآثار.

✍ د. أحمد عامرباي 85

۞ الشيخ عبد الباقي مفتاح ودوره في خدمة التصوف.

✍ ط.د . الزازية خذيري / د. زهيربن كتفي 109

۞ التربية الروحية في رؤية الشيخ عبد الباقي مفتاح.

✍ د. زهيربن كتفي 127

۞ الطريقة الرحمانية بوادي سوف ودورها العلمي .

✍ د. علي خضرة 149

۞ محمد الصالح بن سيدي سالم الأعرج السوفي وجهوده في خدمة التصوف.

✍ أ.د. معمرقول 161

۞ الشيخ الطاهر العبيدي ودوره التربوي والتعليمي بمنطقة وادي سوف.

✍ ط.د محمد العربي رحومة / أ.د معمرقول 167

۞ الشيخ أحمد عبد الباقي مفتاح: لمحات من السيرة والمسيرة العلمية والروحية.

✍ د. جمال الاشراف 187

۞ قائمة المحتويات 207